فريق
متميزون
E-BOOK

دراسة

روائع من حياة الصحابيات

مُصطَفى زَهرَان

كتوبيا
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

روائع من حياة الصحابيات

مصطفى زهران

إهداء

إلى: خُديجُة بنتُ خُويلد أول من آمن بالله،
وسيدة نساء أهل الجنة.
إلى: الزهرة الفواحة في بستان الإيمان
الصديقة بنت الصديق عائشة.
إلى: رائدات مدرسة الصبر والإيمان،
سمية، وعفراء، وأم سليم، وأم سلمة، والسميراء.
إلى: المجاهدات الصابرات،
صفية، ونسيبة، وأسماء، والخنساء، وأم حرام، وأم حكيم.
إلى: كل امرأة وفتاة تبحث عن القدوة الصالحة
حتى لا تضل فتشقى.
إلى: الفتيات المؤمنات اللاتي يقاومن إغراء الحضارة وفتنتها.
إلى: أبي رحمه الله، وأمي حفظها الله، وإخوتي.

سر عظمة هذا الجيل

لعلَّ سر في عظمة جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وتفوُّق هذا الجيل على أجيال الأرض، هو مدى تلقيه ومعايشته لسيد الخلق محمد ﷺ، فقد نال من عظمة تربيته ما لم ينَله أحدٌ، وفاز بصحبته ما لم يفز به أحدٌ، وأوقف ﷺ وقته عليه منذ أن كان هذا الجيل أفرادًا إلى أن غدا عشرات إلى أن اقترب من المائتين، وتكاد تكون أفضلية الصحابة متوافقة مع هذا المبدأ، فالرجل الأول في الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه نهل من رسول الله ﷺ قرابة أربعين عامًا قبل النبوة، ثم كان أقرب الناس إليه بعد النبوة حتى لقي النبي وجه ربه.

والمرأة الأولى في الأمة خديجة بنتُ خُويلد رضي الله عنها أكرمها الله تعالى بصحبة رسول الله ﷺ خمسة عشر عامًا قبل النبوة، وعشرة أعوام بعدها، فنهلت من فضله، واقتبست من نوره ما لم تنَله امرأة قط، وزيد بن حارثة رضي الله عنه المولى الأول في الأمة تلألأ بنور النبي ﷺ منذ يفاعته حتى لقي وجه ربه يوم مؤتة، والعشرة المبشرون بالجنة كانوا أول الناس إيمانًا، وإسلامًا، والتصاقًا برسول الله ﷺ.

عدا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي شذَّ عن القاعدة، إذ تأخَّر إسلامه حتى السنة السادسة للبعثة، وارتفع حتى كان الرجل الثاني في الأمة، وما عمار، وصهيب، وخباب رضي الله عنهم إلا أخدان من رسول الله ﷺ قبل البعثة؛ فلقد أوقف الله تعالى نفس نبيَّه ﷺ على بناء هذا الجيل وتربيته، وكان رسول الله ﷺ سعيدًا بهذا التوجيه الرباني.

قبل البداية

لا يرتاب أحدٌ من ذوي الألباب أن الصحابة الكرام هم الذين حازوا قصبات السبق، واستولوا على معالي الأمور من الفضل والمعروف والصدق، فالسعيد من اتبع صراطهم المستقيم، واقتفى منهجهم القويم، والتعيس مَن عدلَ عن طريقهم، ولم يتحققَ بتحقيقهم، فأي خطة رُشد لم يستولوا عليها، وأي خطَة خير لم يسبقوا إليها، تالله قد وردوا ينبوع الحياة عذبًا صافيًا زلالًا، ووطَّدُوا قواعد الدين والمعروف فلم يدعوا لأحدٍ بعدَهم مقالًا، فتحوا القلوب بالقرآن والذِّكر والإيمان، والقُرى بالسيف والسنان، وبذلوا النفوس النفيسة في مرضاة الرحيم الرحمن، فلا معروف إلاَ ما عُرف عنهم، ولا بُرهان إلاَ ما بعلومهم كُشف، ولا سبيل نجاة إلا ما سلكوا، ولا خير وسعادة إلاَ ما حقَقوه وحكوه، فرضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعين به، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومَن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ونبيه ورسوله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نقول زورا، أو أن نخشى فجورًا، أو أن نكون بك ربي من المغرورين، وما قل وكفى خير مما كثر وإلهي.

إن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، بسم الله القوى العزيز، وفي سبيله، وعلى بركته، أضع هذا الكتاب الذي أرجو أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى.

أما بعد

إني لما كتبت كتاب روائع من حياة الصحابة تاقت نفسي أن أكتب كتابًا عن نساء الصحابة رضوان الله عليهم، فاستخرت الله عز وجل، فشرح لذلك صدري، ويسَّر لي فيه أمري، وأعانني على تحقيق هذه الرغبة التي ملكت على شغاف قلبي، فجاء هذا الكتاب "روائع من حياة الصحابيات" على هذا النحو الذي أرجو الله أن يحوز إعجاب القراء، ويقع في نفوسهم موقعًا حسنًا، وقد كتبته بأسلوبٍ يُناسب أهل العصر على اختلاف درجاتهم في الثقافة والفهم.

وبعد

إنَّ سِيَر الصالحين والعظماء هي زينةُ التاريخ وحليته، وهي فوق كل ذلك تلعبُ دورًا مهمًا في حياة الشعوب؛ لأن سِيَر الصالحين تربية عملية للنفوس، وغرسٌ للفضائل، وتدريب على التجمل بالآداب الإنسانية في ميادين الخُلق والرضا والطاعة لرب العالمين، ذلك لأن التربية بالاقتداء من خير الأساليب التربوية لصقل الطباع وتهذيب المشاعر، والسَّير قُدمًا على طريق التقوى والإيمان والاستقامة.

ولذلك فإن دراسة التاريخ الإسلامي عامة، وتاريخ الصحابة والصحابيات خاصة يمثل خطوة عظيمة في طريق بعث الأمة من جديد؛ لأنه يدفع الأمة المسلمة لأن تقوم مرة أخرى، وتنفض غبار الغفلة فتستعيد أمجادها، وتعود مرة أخرى لتقود العالم كله إلى خيريّ الدنيا والآخرة.

فلقد نال أصحاب النبي ﷺ من الفضل والكرامة ما لم ينله أحد من البشر، فهم الذين رأوا النبي صلى لله عليه وسلم، وآمنوا به وبرسالته وصدقوه، وآزروه، وآووه، ونصروه، وهم الذين عظموا أمره، وتفانوا في طاعته ومحبَّته ﷺ.

وقد تناول المؤلفون سِيَر أولئك العظماء بالتدوين وحاولوا في مُصَنفاتهم أن يبرزوا أدوارهم الكبيرة في الأحداث والواقع، وما كان لهم من أثر عظيم في عصرهم والعصور التي تلت، وقد نال هؤلاء العظماء من الرجال شيئًا من الاهتمام فأفردت لهم الكتب وانتشرت سيرهم على مدى التاريخ، بيد أن العظيمات الخالدات لم ينلن الاهتمام الكافي بالمقدار الذي تستحقه كُلُّ واحدةٍ منهن، على عظم الدور الذي قامت به في حياتها، والخير العميم الذي خلفته في القول والفعل والحال.

وقد رجوت الله أن يفهم القارئ الكريم من خلال هذا الكتاب أن الإسلام أعزَّ المرأة وكرَّمها

وأنصفها، وأعطاها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات، وأوصى الرجل بها خيرًا، بوصفها شقيقته في المعتقدات والعبادات والمعاملات وتحمُّل التبعات في تربية النشء وصنع الأجيال، وتعمير الأرض، واستمرار الحياة؛ فهي مُطالبَة بجميع التكاليف الشرعية مثل الرجل إلا ما كان منها غير ملائم لفطرتها وطبيعتها، ولا طاقة لها به، ولا قدرة لها على فعله أو تركه.

فهذا الكتاب يجوب بنا في رحاب حياة المرأة المسلمة التي عاشت في كنف الرسول الكريم ﷺ من خلال مواقف متعددة تعبر عن المنهج الإسلامي القويم الذي وضع الأسس لحقوق المرأة وواجباتها، فتحتَ ظلَه بايعت على ما بايع عليه الرجال، ورسمت أسمىَ معاني البذل والعطاء في سبيل ذلك، ولم تقتصر خصائل المرأة المسلمة على أنها مؤمُنة راسخة الإيمان، وزوجًا وأمًا من الطراز الأُول، بل ربت فأحكمت، وأصيبت فاحتسبت، بل كانت فوق ذلك كله مجاهدة في سبيل الله فخاضت المعارك، وضمدت الجراح، وحملت الزاد، وأصلحت السهام، وسكبت الماء في حلوق العطاش وهم يجودون بنفوسهم في سبيل الله عز وجل ، إنها حياة المرأة المسلمة بكل ما فيها من سمو وفخار.

فإلى كل أخت مؤمنة تؤمن بالله واليوم الآخر أُقدِّم تلك الباقة العطرة من حياة هذا الجيل الفريد لتتعايش كل أخت بقلبها مع هذه المواقف العطرة، وتتعرف على القدوة الحقيقية التي فاح عبيرها وانتشر أريجها، فهن مثالٌ يُحتذَى، ونبراسٌ يُقتدَى، بالوقف على أخبارهن تحيا القلوب، وباقتفاء آثارهن تحصل السعادة، وبمعرفة سيرتهن ومناقبهن تكون القدوة بجميل الخصال، ونبيل المآثر والفعال.

فهيَّا إلى هذه الواحة اليانعة لنعيش في رحاب الصادقات ولنستنشق عبير الصدق عسى الله أن يرزقنا الصدق والإخلاص في الدنيا، والنعيم والرضوان في الآخرة. فأسأل الله أن يجعل لهذا الكتاب القبول في قلوب أخواتي المسلمات وأن يُنفَعهن به ويرزقهن العمل بما فيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾

مصطفى نصر زهران

روائع من تضحيات الصحابيات

أول شهيدة في الإسلام

أُيكون من المصادفات الرائعة في التاريخ الإسلامي، أن يكون أُول من دخل الإسلام امرأة، وأول من استشهُد في سبيل الله امرأة، نعم هذا ما كان، فأوَّلُ خلقِ الله إسلامًا بدعوة النبي ﷺ أمُ المؤمُنيُن خُديجةُ بنُت خُويلد رضي الله عنها ، وأول منَ حظي بالشهادة في تاريخ المسلمين امرأةٌ، هي الصحابيُة الجليلةُ سمية بنت خياط - أمُ عمار بن ياسر رضي الله عنهما -، نعم لم تدخل سمية رضي الله عنها معركة قَطّ، فلم يكن قد أُذِن للمسلمين بالقتال بعد، ولكنها تلك المرأة التي تحمَّلت في سبيل الله الأذى والعذاب، وتحدت الرجال الصناديد الطواغيت، وأبُت أن تترك الإسلام، أو تعود إلى مِلة الكفر، أو تحني رأسها إلا لله عز وجل الذي أكرمَها فقبلها أول شهيدة عنده في هذا الدين.

والكلام عن سمية عليها سحائب الرحمة والرضوان مُمتعٌ آسرٌ، وهو مؤثر بقدر ما هو شائق، فقد ابتدأت حياتها بامتحانٍ صغيرٍ فيما يخصها، ولكنه انتهى بنجاح كبير؛ فهي في قائمة الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهُم الله من فضله، وأسبغ عليهم من نعمه، وها نحن هنا نتعايش من خلال تلك السطور مع قصة الصبر على البلاء، إنها قصة تتكرر كُلَّ يومٍ، إنهُ الصراع الدائم بين الحق والباطل، بين أهل الإيمان وبين أهل الكفر.

بعد قرونٍ طويلة عاشتها البشرية في ظُلمات الشرك والجاهلية، إذا بشمس الإسلام تُشرِق على أرض الجزيرة لتُخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار التوحيد والإيمان، لتنقلهم من البؤس والشقاء إلى سعادة الدنيا والآخرة، إلى جنة التي تثمر لهم بعد ذلك جنة الآخرة.

ابتدأت رحلة الشهرة مع الأسرة الياسرية عندما أرسل الله رسوله ﷺ بالإسلام، فأسلم عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وعاد إلى أبويه، وقدمه تسابق الريح، يريد أن يأخذ بأيديهما إلى جنة الدنيا التي ستثمر لهم النعيم في جنة الآخرة، وما إن رآهما عمار حتى عرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما القرآن، وإذا بتلك القلوب النقية الطاهرة، تنفتح وتبتهج بسماع كلام الله، وإذا بياسر وسمية رضي الله عنهما يشعران بالنور وهو يضيء أرجاء الكون من حولهما فيقول كُلُّ واحدٍ منهما في لحظة واحدة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، بذلك ارتفعت ثلاث دعائم متينة للإسلام، وهبَ التاريخ يفتح صفحة ناصعة ليسجل صبر هذه الأسرة التي لها قدم صدق في الإسلام، والدين ما يزال غضًا نديًا.

انطلقت الأسرة الكريمة المباركة في رحلتها إلى جنة الرحمن، وعلى الرغم من أن الطريق صعبٌ وشاقٌ وطويلٌ، لكن عاقبته محمودة وغالية، ويكفي أن يضع المؤمن قدميه على أول الطريق، ويستعُين بالله سبحانه وتعالى حتى يجني ثمار الإيمان في الدنيا والآخرة، وما هي إلا ساعات معدودة حتى طار خبر إسلامهم إلى بني مخزوم فاستشاطوا غضبًا، وصبّوا على آل ياسر أشد العذاب، فكانوا إذا حميت الظهيرة يأخذونهم إلى بطحاء مكة، ويُلبسونهم دروع الحديد، ويمنعون عنهم الماء، ويصهرونهم في الشمس المحرقة، ويصبون عليهم من جحيم العذاب ألوانًا، حتى إذا بلغ منهم الجهد مبلغًا أعادوا معهم الكرة في اليوم الذي يليه.

ولكن مع ذلك مضت الدعوة في طريقها، وسط هذا الجحود والعناد، يُقبل عليها كُلُّ مَن كانت له بقية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو الأمر الذي جعل المشركين يشتدون في تعذيب مَن آمن منهم بالله وبرسوله وكفر بالجبت والطاغوت، وكان هذا شأن كُلِّ من أظهر

إسلامه بمكة، ولكن درجات العذاب كانت تتفاوت فيما بينهم، فما كان منهم إلا أن صبروا واحتسبوا ذلك كله عند الله، لأنهم يعلمون يقينًا أن سلعة الله غالية، وأنه لابد من بذل النفس والنفيس من أجل الفوز بالجنان، وبرضوان الرحيم الرحمن.

كانت سمية بنت خياط رضي الله عنها رائدة الصابرات الصامدات في مطلع النور، ولا يعرف في تاريخ النساء امرأة صبرت كسمية، فقد جعلت رضي الله عنها الصبر شعارًا لها، ولا ريبَ أن الصابرين يُوفون أجرهم بغير حسابٍ، وللإنسان أن يتصور امرأة وهن العظم منها، وبلغت من الكبر عتيًا، تتحمل عذاب أصحاب القلوب القاسية قسوة الحجارة، بل إن من الحجارة لما يتفجر منه الماء، وتتحمَّل أنواع العنت والإرهاب بسبب إيمانها بالله العزيز الحميد.

فقد ظلَّ المشركون يُعذِّبون سمية وزوجها ياسر وابنها عمار رضي الله عنهم ، ومزَّقَت السياط أجسامهما، إلا أن إيمانها الوثيق بالله بات كالجبال الرواسي، لا تؤثر فيه الأمواج، ولا الرياح، وترك هؤلاء الصابرون أحلام المتحاملين تذروها الرياح، وتجعل كبار المشركين يبهتون من صبر هذه الأسرة، التي جاءت لتسجل عليهم سوء أعمالهم، وتسجل لنفسها صبرًا جميلًا محمودًا في غرة التاريخ؛ فإذا بالحبيب محمد ﷺ يمر عليهم، ويقول لهم: صبرًا آل ياسر فإنَّ موعدَكم الجنة، لقد هبَّت رياحُ الجنة على قلوبهم، فأطفأت نار العذاب في غمضة عين، وهنا بدأت نفوسهم تشعر بالراحة والطمأنينة، وبدلًا من المعاناة التي كانوا يجدونها من أثر التعذيب، أصبحوا يستعذبون العذاب في سبيل الله، ويحلمون بالجنة ليلًا ونهارًا.

ففي الثلة الأولى من شهداء المؤمنين كان ياسر زوج سمية، إذ استشهد هذا المؤمن تحت وطأة العذاب بأيدي المشركين، بعد موت زوجته بقليلٍ، أما بطلة الشهداء سمية فقد أُعطيَت لأبي جهل الفاسق، أعطاها له عمُّه أبو حذيفة بن المغيرة، وكانت عجوزًا كبيرة كما ذكرنا، ولكنها تحملت ما لا يتحمَّلُه الأشداء، وأخذ أبو جهل أخزاه الله يفرغ حقده في تعذبيها رجاءً أن تفتن في دينها، ولكن أنَّى له ذلك، فقد ركنت سمية إلى الصمت، ولم تجبه بحرفٍ واحدٍ، وتحملت العذاب بإصرارٍ واستكبارٍ، واستعلت بعقيدتها على أبي جهل ومن معه، واستخفت بمُرِ العذاب والبلاء في سبيل الله.

ولما يئس الفاسق من ثباتها، وأثاره صبرها، طعنها بحربة في موطن عفتها، فماتت شهيدة، ورضيت بذلك أن تسلم روحها لخالقها من أجله، وفي سبيله طائعة مختارة، هنا تتحول المحنة الياسرية إلى منحة ربانية، وكان استشهاد سمية رضي الله عنها في السنة السادسة أو السابعة من البعثة، وكانت أول شهيدة في الإسلام.

عبرة

للمرأة المسلمة أن تقرأ سيرة هذه الشهيدة الوفية لدينها، فتأخذ منها العظة والعبرة فتصبر على ما أصابها، ثقة بالله، وطمعًا في ثوابه محتسبة أجرها عليه في جميع ما تقوم به من عملٍ صالحٍ وجهدٍ مشكورٍ، وكما أن سمية رضي الله عنها قدوة للنساء، فهي كذلك قدوة للرجال أيضًا، فإنهم إذ يرون أن المرأة قد كان هذا حالها في التمسك بعقيدتها، لا تلين ولا تستكين، ولا تستجيب إلا لضميرها الحي، وقلبها اليقظ، ولا تعدل عن الإيمان بالله قيدَ شعرةٍ حتى لقيت ربها وهي في أتون العذاب.

كانت سمية رضي الله عنها حين استشهدت امرأةً عجوزًا فقيرةً، متمسكة بالدين الإسلامي، ثابتة عليه لا يزحزحها عنه أحد، وكان إيمانها الراسخ في قلبها هو مصدر ثباتها، وصبرها على احتمال

الأذى الذي لاقته على أيدي المشركين. أيها القارئ الكريم، لك أن تتصور بخيالك هذه المأساة التي كانت تمر بآل ياسر، لا لجرم ارتكبوه، ولا لإثمٍ اقترفوه، ولكنهم قد نالهم ما نالهم، لأنهم قالوا بلسان الحال والمقال: ربنا الله لا إله إلا هو.

أفلا يطيب نفسًا مَن لم يكن بينه وبين الجنة لا زفرات تخرج من رئتيه ثم لا تعود، فهنالك عطاء بغير حساب، ورزقٌ بلا نفاد، وحياة بلا موت، هناك الرضا والرضوان، هناك ما لا عينَ رأت، ولا أذنَ سمعت، ولا خطر على قلب بشر

من أجل هذا المواقف أعددته

لقد كانت نسيبة بنت كعب أم عمارة رضي الله عنها من خيار المجاهدات اللاتي ضربن بسهم وافر في نصرة الدين في كثير من المواطن، وأُثبتت للعالمين أن المرأة المسلمة لو تسلحت بالإيمان الكامل، والعز الصادق، والإرادة القوية، لصنعت المعجزات، وضربت أروع الأمثال في البطولة النادرة، والشجاعة الخارقة للعادة، إنها امرأةٌ آمنت بربها، واستمسكت بالعروة الوثقى، وزادها الله يقينًا وهدى، ومنحها القوة على تحمُّلِ الشدائد، ومواجهة الصعاب، ولا ينسى أحدٌ موقفها يوم أن قتل ولدها حبيب بن زيد، على يد طاغية بني حنيفة مسيلمة الكذاب، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العظيم.

بلغ مصرع حبيب بن زيد إلى أمه نسيبة بنت كُعب أمُ عمارة رضي الله عنهما، فطوت جوانحها على أحزانها، واحتسبته عند الله، وما زادت عن قول: «من أجل هذا الموقف أعددته، وعند الله احتسبته، لقد بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة صغيرًا، ووفى له اليوم كبيرًا، فحمدت الله سبحانه وتعالى كثيرًا.»

رغم ذلك لمَ تقف رضي الله عنها عاجزة تبكي ابنها، وتندب حظها؟ لا، لمَّا كان يوم اليمامة جهز الصديق رضي الله عنه جيشًا لحرب بني حنيفة، ونبيهم الكذاب مسيلمة، وعقد لواء هذا الجيش لسيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، فانضمت إلى الجيش المجاهدة الباسلة أُمُ عمارة وابنها عبد الله بن زيد رضي الله عنهما، لقد خرجا يريدان الجهاد في سبيل الله، وكانا يريدان أيضًا أن يثأرا لحبيب من عدوه، وعدو الله مسيلمة.

وفي يوم اليمامة؛ هذه المعركة الطاحنة شوهدت نسيبة تشق الصفوف كاللبؤة - أي أنثى الأسد - الثائرة وهي تنادي: أين عدو الله؟ دلوني على عدو الله، وهي تريد أن تتصدى لقتله، وإراحة المسلمين منه، ولا تبالي وهي تدفع نفسها لهذا الهدف الغالي، بيدها التي قُطعت، وهي تؤدي هذه المهمة، لأن الله تعالى قد أبقى لها اليد الأخرى التي بإمكانها أن تبذل بها ما تستطيع من طاقة.

فلما انتهت إليه وجدته ملقىً على الأرض، وسيوف المسلمين تنهل من دمائه، فطابت نفسًا، وقرت عينًا، ولمَ لا؟؛ لأن ابنها عبد الله بن زيد المازني شارك في قتل رأس الكفر مسيلمة، وتقرُ عين بهذه النهاية لهذا المجرم، ألم ينتقم الله عز وجل لفتاها البر التقي، من قاتله الطاغية الشقي؟ بلى، لقد مضى حبيب، ومسيلمة كُلٌّ منهما إلى ربه، ولكن فريقٌ في الجنة، وفريقان في السعير.

عبرة

من المدهش في خبر أم عمارة رضي الله عنها هذه المرأة العظيمة أنها لم تُقدِّم نفسها في الجهاد فحسب، بل قدمت ابنيها ليكونا فداءً للنبي ﷺ، ولئن كان الدافع لدى زوجها وابنيها مألوفًا في مجتمع الصحابة رضي الله عنهم، فإن صدور ذلك من أمهما، وهي تشاهدهما وتتوقع في أي لحظة أن يكونا تحت سنابك الخيل شهيدين، وقد كان؛ إن ذلك يُعدُ مثالًا عاليًا لقوة الإيمان، ورسوخ اليقين.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هكذا كانت المرأة المسلمة زمان، يوم أن كانت دنيا المسلمين مقبلة، كانت المرأة صحيحة العقل، سليمة البدن، صائبة الرأي، ثم خَلَفَ من بعد ذلك خلفٌ

زخمت فيه المرأة وجهها بالمساحيق، فأفسدت الوجه، ومعدتها بالحبوب المستوردة فأوهنت العظم، وكانت النتيجة: أن ضمر الجسم، فلم يبقَ هناك عقل، إلا بقايا من أعصاب متوترة لا تصبر على حال من القلق، ثم لا تحسن تربية، ولا تحسن تبعلًا.

رجولة بددت رجولة الرجال!

من خلال الزَيارات المتكررة لحدائق التاريخ، رحت أداعب أُغصانها، لتجود علينا بأزهار المعلومات عن الصحابية السميراء بنت قيس رضي الله عنها ، فعلمتُ أنَه لا بُدَ لي من مصافحة أوراق الورد لأشعر بوخز شوكه، لأحصل على الرائحة الزكية، فلكل بطل من أبطال المسلمين موقف عُرف به، وكان مهبط الشرف من حياته، ومعقد الفخر من سيرته التي تصاحبه في حياته، وتروى عنه بعد مماته، وليس هناك أملَك للقلب، وأملَك للنفس، وآثر في التاريخ من موقف السميراء بنتُ قيس رضي الله عنها يوم أُحد، التي قطعت شوطًا كبيرًا في حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله.

لقد أسلمت السميراء فشمخت بإسلامها، وشمخ بها الإسلام، فإذا هي نموذجٌ فريدٌ لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة، وحين نفر المسلمون إلى أُحد، سارعت السميراء تحرض ولديها النعمان بن عبد عمرو، وسليم بن الحارث رضي الله عنهما، للخروج للقتال مع رسول الله ﷺ، ثم تمضي هي من خلف الركب النبوي، مع نفر من نساء المسلمين تستطلع أخبار القتال.

واحتدم القتال، وشرعت أبواب الجنة تستقبل شهداء الإسلام، وشرعت أبوب جنهم، تلتهم قتلى الكافرين من قريش، والسميراء ورهطها من النساء يراقبن المعركة عن بُعدٍ، حتى إذا لاح لها فارس يقترب، نهضت إليه تستوقفه، وتسأله عن أخبار المعركة، ولمن الغلبة، فعرفها الفارس، فنعى إليها ولديها النعمان وسليم.

فما زادت أن قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقالت: يا أخا الإسلام، ما عنهما سألتك، أخبرني ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال الصحابي: خيرًا إن شاء الله، هو بحمد الله على خير ما تحبين. قالت: أرنيَه، أنظر إليه. فأشار الصحابي إلى رسول الله ﷺ، وقد تهلَّل وجهها، ونسيت مصيبتها بولديها، وقالت: كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله - أي بسيطة -.

وما هي إلا ساعات، حتى جيء لها بولديها الشهيدين، فقبلتهما، وحملتهما على ناقتها، ورجعت بهما إلى المدينة، وفي الطريق، قابلتها أمُ المُؤمُنين عائشة رضي الله عنها. فقالت: ما وراءك يا سميراء؟ قالت السميراء: أما رسول الله ﷺ، فهو بحمد الله بخيرٍ لم يَمُت، وأما المسلمون فقد اتخذ الله منهم شهداء، وأما الكافرون فقرأت قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ (الأحزاب: ٢٥). فقالت عائشة رضي الله عنها: فمَن هؤلاء الذين فوق الناقة يا سميراء؟، قالت: هُما ولداي النعمان وسليم، قد شرفني الله باستشهادهما، وإني لأرجو الله أن يلحقني بهما في الجنة.

عبرة

مَن قال إن مواقف البطولة وقفٌ على الرجال من دون النساء، أبدًا، ربَ نساء تزنُ إحداهن عشرات الرجال، إن التاريخ الإسلامي العظيم، مليءٌ بمواقف بطولة شامخة لنساء صنعهن الإسلام هذا الدين العظيم، فشمخن بإسلامهن، وشمخ بهن الإسلام، منهما سميراء بنتُ قيس رضي الله عنها، فهي نموذج فريد بين النساء.

لم تكن مشاركة المرأة المسلمة في أخطر أمور المسلمين العامة وهي المعارك، فقط لضرورة سببتها الهزيمة المروعة يوم أُحد، فعن ربيعة بنت معوذ بن عفراء قالت: كُنَا نغزو مع رسول الله ﷺ، نسقى القوم ونخدُمُهُم، ونردُ القتلى والجرحى إلى المدينة؛ لذلك تكونت رؤية دعاة

الإسلام للمرأة المسلمة، ومدى مشاركتها في الحياة العامة من هذا الموقف، ومن غيره، ففهموا أن المرأة هي نصف المجتمع، ونصف الأمة، وعليها واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مثلٌ للمؤمنات المجاهدات

أخذَت المواجهة بينَ النبي ﷺ وبينَ قريش، تشتدُ يومًا بعد يوم، والرسول الكريمُ ماض في دعوته، وقلوبُ المشركين تكادُ تتميزُ من الغيظ، يفكرون ويدبرون ويتشاورُون ويتساءلون عمَا يعلمون، وأخيرًا قرروا القضاء على أتباع محمد ﷺ، ليكونوا عبرة لمن يُفكر في دخول هذا الدين، ولا يجدُ رسول الله ﷺ حوله أنصارًا، ولا من يدعوهم بدعوته، ثم انصرفوا ينفذون.

وتردد في صحراء مكة الصُراخُ والعويل بالليل والنهار، وشاعت مناظرُ التعذيب والتنكيل بكل أتباع محمد ﷺ، كان منهم من يُلقى في الشمس الحارقة، التي تُذيبُ الحديد، ومنهم من يُوضعُ حجرٌ كبيرٌ ملتهبٌ على صدره فلا يتحرك، ولا يستطيعُ الفرار من تلك الأشعة التي تشويه، ومنهم من يُقذفُ به في حُجرة مُظلمة، بلا طعام ولا شراب، حتى يُمزِّق الجوعُ والعطشُ أحشاءه.

كانت أمُ المُؤمنين خديجة بنتُ خُويلد رضي الله عنها في وسط هذه الحرب الضروس، تعملُ بثبات وعزمٍ وصبرٍ، تُؤدي دورها على خير ما ينبغي، فقد كانت يدُها تمسحُ بها على جرح المجروح، وتُواسيه، وتُشجعه، وتُبشره بالنصر أو الشهادة، وفتحت خزائنها للمسلمين على مصارعيها، يأخُذون منها ما يشاءون، وبذلت أموالها في سبيل الله، تدفع ديون غير القادرين، وتشتري الأرقاء المعذبين وتُعتِقُهم لوجه الله تعالى.

لا تهتم رضي الله عنها بذلك العبث الذي يصنعونه، فلا تُلقي بالًا إلى تلك الحجارة المُتساقطة على دارها منَ سفهاء قريش، والضاربة بابها، ولا إلى ذلك الصياح، الذي يصيحُ به المُشركون وأطفالُهم حول دارها ببذيء القول، ولا تبالي بمنظر أولئك الأشرار وهم يسيرون خلف رسول الله ﷺ وهم يُهللون، ويرمونه بأحط الكلام وأقبحه، بل تبتسمُ، وتنتظرُ الرسول حتى يدخُل الدار، فتقابله باشة ضاحكة، وتُزيلُ بابتسامتها وهُدوئها ما أهمه ﷺ، وتُزيلُ بيدها ما يكون قد أُلقى عليه من أقذار.

فلما رأى الرسول الكريمُ صلوات ربي وسلامه عليه ما يحلُ بأصحابه من ذلك الأذى الذي لا يُطاقُ آثر أن يُبعدهم عن مكة، وأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، حتى يأذن الله بأمره، ويكشف السوء عن عباده، فطربت السيدة خديجة رضي الله عنها لهذا الإذن، وأسرعت تُعاوِن المهاجرين على التجهُز للسفر، وتُقدمُ لهم ما يُعينُهم على الرحيل، وتُشجعُهم، وتقوي قُلوبهُم، وتُهون عليهم الفراق، وتؤكدُ لهم النصر، وقرب التلاقي.

وزاد طربُـها، حين جاءها عُثمان بن عفان زوج ابنتها رُقية رضي الله عنهما، يُخبرها بعزمه هو ورقيةُ، على الهجرة مع المهاجرين، فقالت في رضا: بارك الله فيك يا عُثمان، وبارك في رُقية، وكتب لكما السلامة، أما أنا فسأظل هُنا مع رسول الله ﷺ، حتى يأذن الله بأمره.

وفي ستار الليل، كان هؤُلاء المهاجرون يفرُون من مكة بدينهم، والسيدة خديجة رضي الله عنها تودعهم باسمة مُتجلدة، لم يبد عليها شيءٌ مما يبدو على الأُمهات حين يُودعن الأولاد الأعزاء.

عبرة

يا أيتها الأخوات، خديجة بنتُ خويلد رضي الله عنها مثلٌ للمُؤمُنات، المجاهدات، الصادقات، ومثُل للباحثات عن مَثل يقتدين به، فهي من حيثُ السمو لم يدانيها إلا ابنتها فاطمة، ومن سبقها من الصالحات، اللواتي ذكرهنُ الله تعالى مثُل مريم بنتُ عمران، وامرأة فرعون، فقد

كانت رضي الله عنها امرأة عالية الهمة جياشة العواطف، واسعةُ الأُفق، مفطورة على التدين، والنقاء، والطُّهر حتى لقد عُرفت بين أترابها وبين نساء قريش بالطاهرة.

يا أيتها الأخوات الكريمات، سُنَّة الله في هذا الكون لا تتبدل ولا تتغير، إن النصر لا يتنزل كما ينزل المطر، ولا يُمَكَن المؤمنون وهم قاعدون، ومع أن الله قادر على نصر عباده بِكُن فيكون، إلا أنه جل جلاله، يبتليهم ويجعل طريق النصر صعبًا وشائكًا، ليُميِّز الصادق من الكاذب، ويميِّز الخبيث من الطيب، ذلك لو يشاءُ الله لانتصر منهُم ولكن ليبلو بعضكم ببعض، وليتخذ الشهداء الأبرار، والذين قُتلُوا في سبيل الله فلن يُضل أعمالهُم، ولأن سعلته غالية، ولا تشترى إلا بثمنٍ غالٍ، بأرواح تُزهَق، وأموال تنفق، ودماء تسكب، ألا فليعلم الكسالى، والذين يحبون الراحة والدعة، أنه لا مكان لهم في صف الأبطال.

المؤمنة الصابرة

التوكُّل الذي يقوى الإنسان به ضربٌ من الثقة بالله، ينعش الإنسان عندما تكتنفه ظروف محرجة، ويلتفت حوله فلا يرى عونًا ولا أملًا، فالمكافح عدوٌّ قويٌّ الشكيمة، شديد البأس، على ضعف العدة، وقلة الناصر، يحس عندما يتوكل على الله أنه أوى إلى ركن شديد، ويستمد من هذا التوكل ثباتًا ورباطًا، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جوٍّ مكفهر، وقد بيَن الله تبارك وتعالى أن هذا التوكل، كان غذاءَ الكفاح الطويل، الذي قاوم به النبيُّون، وأتباعهم مظالم الطغاة، وبغي المستبدين، وهكذا كانت أمُ المؤمنين أمُ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما ، فتعالوا بنا لنرى كيف قاومت رضي الله عنها .

ما كان يخطُر ببال صخر بن حرب - أبي سفيانُ - أن في وسع أحدٍ من قريشٌ أن يخرج على سُلطَانه، أو يُخالفه في أمرٍ ذي بالٍ؛ فهو سيد مكة المطاع، وزعيمها الذي تدين له بالولاء، لكن ابنته رملة - أمُ حبيبةُ - رضي الله عنها قد بددت هذا الزعم تمامًا، وذلك حين كفرت بآلهة أبيها، وآمنت هي وزوجُها عُبيد الله بن جحش بالدعوة المحمدية التي أشرق نُورها في ربوع مكة.

وقد حاول سيد مكة المطاع أبو سفيان بكل ما أُوتيَ من سطوة، وبأسٍ، وقوةٍ، أن يرد ابنته وزوجُها إلى دينه، ودينِ آبائه، فلم يُفلح في ذلك؛ لأن الإيمان الذي رسخ في قلب رملة، كان أعمق من أن تقتله أعاصير سيد مكة وزعيمها، وأثبت من أن يُزعزعه غضبُهُ.

ركب أبا سفيان الهمُّ بسبب إسلام رملة فما كان يعرف بأي وجه يُقابلُ قريشًا، بعد هذا الزّلزال الذي ضرب بيته بإسلام ابنته، وقد عجز عن إخضاع ابنته لمشيئته، والحيلولة دُونها ودون اتباع مُحمد ﷺ.

ولما تيقنت قريشٌ من أنَّ أبا سفيان عاجز عن أن يرد ابنته وزوجُها عُبيد الله إلى دين الآباء، وأنه أصبح ساخطًا على ابنته وزوجها اجترأت عليهما، وبدأت تضيِّق عليهما الخناق، ولم يكن هذا التضييق خاصًا بهما، بل لسائر المستضعفين من المسلمين؛ فلقد قرَّر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام، وإيذاء الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام.

ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم، انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحمُّلًا للضيم، وتوقعًا للويل، وصاحبت هذه الحرب المشتعلة حرب من السخرية والتحقير، قُصِدَ بها تخذيل المسلمين، وتوهينُ قواهم المعنوية.

فلما خشي النبي ﷺ على أصحابه من أن يُفتَنوا في دينهم، أذنَ لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، فهاجرَوا إليها، وكانت أمُّ حبيبة وزوجُها في طليعة المهاجرين الذين خرجوا فرارًا بدينهم من بطش قريش، لكن ظلَّت المِحَن تنزل على أمُ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما كما سنرى ذلك في هذا الكتاب.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إذا كان الابتلاء لا بُدَّ قائمًا بالنسبة للمؤمن؛ فالصبر عليه، وعلى مشاقه واجبٌ، ومن فقدَ الصبر فافتتن في دينه، أو ارتدَّ على عقبه، إذًا فقد وقع في سخط الله

سبحانه وتعالى، ومن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلى بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم، ولم يُطِعهم، عوقُب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم أعظم وأدوم من ألمِ أتباعهم، فلا بُدَّ من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان.

إن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمُعرِض عن الإيمان يحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير في الألم الدائم، والله تبارك وتعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكنهم رب العزة، فلا يظن أحدٌ أنه يخلص من الألم البتة، وإنما تفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم مَن باع ألمًا مستمرًا عظيمًا بألمٍ مُنقطعٍ يسير، وأشقاهم من باع ألمًا منقطع اليسير، بالألم العظيم المستمر.

الإنسان الضعيف، هو الذي يستعبده العرف الغالب، وتتحكم في أعماله التقاليد السائدة، ولو كانت خطأ يجر معه متاعب الدنيا والآخرة، وقد أحدث الناس في أفراحهم وأحزانهم بدعًا شتى، وتواضعوا على الاستمساك بها أشد من استمساكهم بحقائق الدين، ولكن المؤمن الحق، لا يكترث بأمر ليس له من الدين.

تحتسب أولادها الأربعة

مَن أرادَ أن يعرف كيف يُقلِّب الله القلوب من حالٍ إلى حالٍ، وكيف يصنع في النفوس الأبية صُنعًا يثير الإعجاب، وكيف ينزع منها العبث والهزل والقنوط، ويبعث فيها الرجاء والأمل، والرضا بالقضاء والقدر، فلينظر إلى تماضُر بنتُ عمرو رضي الله عنها - الخنساء - كيف كانت في الجاهلية، ثم كيف صاغها الإسلام صياغة جديدة، تحولت معها إلى امرأة مُجاهِدة صبورة، تحرض أولادها على الجهاد في سبيل الله، وتدفعهم إلى ميادين القتال، لكي يسطروا في البطولة والتضحية أنصع الصفحات، ولكي تنال باستشهادهم عز الدارين.

لقد كانت شهرة الخنساء رضي الله عنها في الجاهلية قد ذاعت وطار صيتها، بعد مراثيها التي سارت بها الركبان، فلقد تركت بعد موت أخيها صخر ديوانًا كان الأول من نوعه في شعر المراثي والدموع، وعندما جاءت الخنساء مع قومها بني سُليمان، وأسلمت لله تعالى، حزنت على الخير الذي فاتها، وعلى العمر الذي مضى بعيدًا عن هذا النور، ولكنها عزمت على أن تستدرك كُلَّ ما فاتها، وأن تُضحي بكل ما تملك من أجل نُصرة هذا الدين العظيم.

وفي يوم القادسية تقدِّم الخنساء أولادها الأربعة لينالوا شرفَ الشهادة في سبيل الله، نعم هذه هي الخنساء التي ملأت الدنيا بكًاء وعويلًا في الجاهلية على موت أخيها صخر، نعم ألَم أقل لكم أن الإيمان قد صاغها صياغة باهرة يعجز البيان عن وصفها، لقد كانت الخنساء رضي الله عنها معجزة من معجزات الإيمان، لقد علمنا كيف كان حُزنها على أخيها، وجزعها لموته، وتصدُّع قلبها، واضطرام حشاها، لقد استحال كل ذلك إلى صبر أصاغه الإيمان، فلم تأسَ على فائت من متاع الحياة الدنيا.

أولئك أبناؤها، وهم أشطار كبدها، ونياط قلبها، خرجوا إلى القادسية الطاحنة، فقالت لهم حين نادى قائد الجيش الإسلامي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : يا عباد الله، حي على الجهاد: يا بني، لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكمُ بنو رجل واحد، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيَرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

يا بني: إذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجلُلت نارًا على أرواقها، فيمُموا وطيسها، وجالدوا عدوكم، تظفروا بجنات الخلد والمقامة، لقد قدمتهم جميعًا إلى المعركة، ولم تدخر منهم أحدًا يعولها، ويقوم بشأنها، لأنها تحسن التوكل على الله، وتثُق في فضله العظيم، وترجو من أعمُاق قلبُها أن ينتصر المسلمون نصرًا عزيزًا على تلك القوة الغاشمة التي جاءت من كل صوب وحدبُ بأعداد غفيرة لا أول لها ولا آخر، ومعهم من العتاد والعدد ما لا يكاد يحصى ولا يعدُ، لوقف زحف هذا النور.

فلما باشروا القتال بقلوب فتية، وأنوف حمية، فإذا فتر أحدهم ذكَّرَه إخوته وصية الأم العجوز، فزأر كالليث، وانطلق كالسهم، وانقض كالصاعقة، ونزل كقضاء الله على أعداء الله، وظلوا كذلك حتى استشهدوا جميعًا في ليلة الهرير الحاسمة، وكل منهم أنُشد قبل أن يستشهد رجزًا: فأنشد الأول:

يا إخوتي، إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة بمقالة ذات بيان واضحة وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان كلَّابا نابحة.

وأنشد الثاني

إن العجوز ذات حزمٍ وجلد قد أمرَتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرًا بالولد فباكروا الحرب حُماة في العدد.

وأنشد الثالث

والله ما نعصى العجوز حرفًا نُصحًا وبرًا صادقًا ولطفًا فبادروا الحرب الضروس زحفًا حتى تلُفُوا آل كسرى لفًا.

وأنشد الرابع

لستُ لخنساء ولا للأخرم ولا لعَمري ذي السناء الأقدم إن لم أُرد في الجيش الأعجم ماضٍ على الهول خضم حضرمي.

وهكذا سقط الأبطال الأربعة في ساعة واحد في ليلة الهرير، وبلغ الأم نعي الأسود الأربعة، فلم تلطم خدًّا، ولمُ تشق جيبًا، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلِهمُ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

هكذا استقبلت الخنساء رضي الله عنها نبأ استشهاد أبنائها الربعة، فما وهنت وما ضعفت، وما استكانت، وما تفوَّهت بما تتفوه به الثكلى عادة، لعلمها أنها ستحلق بهم، وتحشر معهم إن شاء الله، وتلقى جزاء الصابرين في جنات النعيم.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات لنا هنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال، ما الذي حولها، وغيَّرَها من حالٍ إلى حالٍ؟! إنه إكسير الإيمان الذي وضعه النبي ﷺ في قلوب المؤمنين، فنقلهم من دنيا الجهالة إلى عالم المُثل العليا، والقيم الرفيعة، والأخلاق العالية، والشوق إلى رضوان الله.

هذه المرأة العظيمة التي بكت أخاها صخرًا ورثَتهُ بالأشعار المبكية دهرًا طويلًا في الجاهلية، نجدها في الإسلام تدفع بنيها جميعًا إلى حمام الموت، ثم تقول هذا الكلام الإيمانيُ الرفيع بعد استشهادهم، وهذا شاهد من الشواهد الكثيرة التي تدلنا على التحول الكبير الذي طرأ على حياة العربية بعدما دخلوا في الإسلام.

ففروا إلى الله

كانت النساء في عصر النبي ﷺ تصبر على البلاء، نعم كن يصبرن على العذاب الشديد، والكي بالحديد، وفراق الزوج والأولاد، يصبرن على ذلك كله حبًا لله ورسوله، وتعظيمًا لرب العالمين، لا تتنازل إحداهن عن شيءٍ من دينها، ولا تهتك حجابها، ولا تدنس شرفها، ولو كان ثمنُ ذلك حياتها، نساء خالدات، تعيش إحداهن لقضية واحدة، كيف تخدم الإسلام، تبذل للدين مالها، ووقتها، بل وروحها، حملن هم الدين، وحققن اليقين، فتعالوا بنا لنرى نموذجًا فريدًا للمرأة المسلمة المؤمنة الصابرة المحتسبة للبلاء عن ربها.

ما إن سرت نسمات الدعوة المحمدية الزكيةُ بمكة حتى أقبلت أسماء بنت عميس رضي الله عنها على رسول الله ﷺ، وأسلمت بصحبة زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ليأخذا مكانهما بين السابقين الذين أسهموا أعظم إسهام في سبيل إعزاز دين الله عز وجَلّ..

ولقد لقي أصحاب رسول الله ﷺ في مكة من العذابِ أمرًا عظيمًا، وأجمعت قريش أمرَها على تعذيب المسلمين، وإيذاء النبي ﷺ، فكان أبو لهب يسير خلف النبي الكريم ﷺ، وهو يدعو الناس لعبادة الله الواحد الأحد، وأبو لهب خلفه يقول: لا تصدقوه لقد صبأ عن دين آبائه.

في وسط هذا المناخ عاشت أسماء بنت عميس مؤمنةً بالله ثابتة إلى جوار زوجها، ولقد لقي جعفر وزوجته أسماء رضي الله عنهما من أذى قريش، ونكالها ما لا يعلمه إلا الله، ولكنهما صبرا على الأذى والابتلاء، لأنهما يعلمان أن البلاء سُنةٌ ثابتةٌ لا تتبدَّل ولا تتغير، وأن طريقَ الجنة محفوف بالمكاره، وما هي إلا ساعات معدودة، ثم يجبر الله لهما كل كسر في جنته، ومستقر رحمته.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيبُ أصحابه من هذا البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله عز وجل، ومن عمه أبي طالب، وأنه ﷺ لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، فقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنَّ بها مَلِكًا لا يُظلَم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.

فخرج عند ذلك أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وخرجت أسماء مع زوُجها جعفر، مع عددٍ موفورٍ من نساء الصحابة في رفقة أزواجهن إلى الحبشة كما أمرهم رسول الله ﷺ، ولم يخرجن إلى إعداد الطعام أو النزهة، بل خرجن في طاعة الله ورسوله، وذهبن في شد أزر أزواجهن مبشرات مؤمنات معينات صادقات، فنلن أجرًا عظيمًا.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن الدين والاستمساك به، وإقامة دعائمه، أساسٌ ومصدرٌ لكل قوة، وهو السياج لحفظ كلِّ حقٍّ من مالٍ وأرضٍ، وحرية وكرامة، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام، والمجاهدين في سبيله، أن يجندوا كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة، وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها، حتى إذا اقتضى الأمر بذل ذلك كله في سبيلها، وجب بذله، ذلك أن الدين إذا فقد أو غلب عليه، لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوي شأنه، وقامت في المجتمع دعائمه، ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مالٍ

وأرضٍ ووطنٍ يعود، يعود أقوى من ذي قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة.

أم الشهداء السبعة

ظفرت الكثير من نساء حضارتنا بشهرة واسعة كانت سمة بارزة في حياتهن وبعد موتهن، منهم كانت عفراء بنت عبيد الأنصارية رضي الله عنها، وعفراء امرأة صنعها الإسلام، وصاغها صياغة بوأتها مكانة سامية بين المسلمين والمسلمات، وخلَّدت ذكراها على مَرِّ العصور؛ فهي رضي الله عنها أمُ الشهداء، ومعدن الأبطال، ومدرسة تخرج فيها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فجاهدوا في الله حق جهاده، وضربوا في البطولة أروع الأمثال.

لقد أسلمَت وبايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، وأخلصت لله في القول والعمل، وهبَت أولادها للجهاد في سبيل الله، فكان منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر. ولقد أنجبت من زوجُها الحارث بن رفاعة ثلاثة أبناء، هم: عوف، ومعاذ، ومعوذ، وهم من الأنصار.

أما عوف فقد كان أحَدَ الستة الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام في منى، وكان أحد اثني عشر رجلًا بايعوه بيعة العقبة الأولى، وكان معه في هذه البيعة شقيقه معاذ، ثم كانوا جميعًا مع الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية، وكان عددُ مَن بايع يومئذ ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين.

وتزوجت عفراء رضي الله عنها بعد الحارث رجلًا من مكة هو البكير ابن عبد ياليل الليثي، فولدت له أربعة بنين أيضًا، وهم: «عاقل، وخالد، وإياس، وعامر» وهم من المهاجرين، وهؤلاء الأربعة هم أول من بايع رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه.

وقد شهد أولادها جميعًا غزوة بدر، فاستشهد يومئذ عوف ومعوذ وعاقل، واستشهد خالد يوم الرجيع، واستشهد عامر يومَ مأساة بئر معونة، وإياس يوم سهل عقرباء - اليمامة -، ومعاذ في صفين. فقد دفعتهم جميعًا إلى ساحات القتال، واحتسبتهم عند الله عز وجل، وأسهمت معهم في هذه الميادين بجهد مشكور، فكانت تقوم بخدمة المجاهدين بكل ما وسعها من جهد، شأنها في ذلك شأن مثيلاتها من المؤمنات اللاتي خلد التاريخ ذكراهن في أنصع صفحاته.

لقد مضى سائر أولادها يجاهدون في سبيل الله حتى لقي كُلٌّ منهم ربَّه راضيًا مع الشهداء الأبرار، وكانت هي أم الشهداء السبعة تسعد بهم أحياءً وأمواتًا، إذا قدمتهم جميعًا قربانًا لله عز وجل، فدفعت بهم وهي معهم إلى ساحات الوغى، فكلما سقط واحد منهم فرحت باستشهاده فرحًا مشوبًا بالحزن على فراقه، شأنها في الحزن شأن الأمهات، بوصفهن ينبوع الحنان والرحمة، وشأنها في الفرح شأن العارفين بالله، الذين يدخرون للدار الآخرة كل ما ملكوه وما عملوه، وما كانوا سببًا في نتاجه أو إنجابه ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، إننا نتعلم من هذه الأم المؤمنة الصابرة، كيف نغرس في نفوس أبنائنا حب الجهاد والتضحية، والجود والكرم، والبذل والشجاعة والإقدام، حتى يخرج الأبناء للحياة، وهم أصحاب همة عالية، وفكر راق، وعزيمة قوية، فالله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها، وأولادنا أمانة في أعناقنا، فلينظر كل منا ماذا يغرس في عقل ولده وقلبه، فهو ما سيجنيه في حياته وبعد مماته.

ولنعلم أن الأم مدرسة لأبنائها، يتلقون منها العلم بأمور الدين والدنيا في مقتبل حياتهم،

ويقتدون بها في عاداتهم وعباداتهم وأقوالهم وأفعالهم، وطريقة تفكيرهم؛ فالمرأة المؤمنة تُخرجُ للأمة رجالًا يبنون كما كانت أوائلهم تبني، ويفعلون من المكارم مثل الذي فعلوا، فهي برجاحة عقلها، وسلامة فطرتها، وكثرة تجاربها، وخبرتها في الحياة، تستطيع أن تنشئ جيلًا قويًا ناهضًا، يقوم بواجباته على أتم وجه وأكمله.

صبرٌ واحتساب

مرت الدعوة الإسلامية في طورها الأول بتجربةٍ قاسيةٍ، فقد امتُحن الصحابة وابتلوا بلاءً شديدًا كما وقع لبلال وعمار وخباب وسمية وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، وهذا الابتلاء لا بُدَّ منه في الدعوات، حتى تصقل ويقوى عودها، ويزداد رجالها ونساؤها خبرةً وتمرسًا في الحياة، فإذا مكَّن الله لهم في الأرض كانوا على قدر المهمة المناطة بهم، وحتى لا تكون المحنة أُقسى مما يتحمله بشرٌ، فعندئذٍ قد يتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس، كان رسول الله ﷺ يخفِّف من الآم أصحابه، ويدعوهم إلى الصبر، ويذكِّرهم بما وقع للمؤمنين من قبلهم، ويبشرهم بأن سيكون بعد الضيق فرجٌ بإذن الله، فكانت كلماته بردًا وسلامًا على قلوبهم.

وكان الصالحون يقرؤون قول رب العزة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ فيشتاقون للقاء إخوانهم في الجنات، فيخوضون الطريق إليها غير مبالين بقلة العدد، وضعف العدة، وندرة المناصر، فلقد كان لهم مع ربهم أخبار وأسرار، فلم يكتفوا بقيام الليل، وصيام النهار، والعفة عن النظر إلى المحرَّمات، والاشتغال بالطاعات، بل نظروا إلى أعز ما يملكون إلى أنفسهم التي بها قوام حياتهم، ثم قدموا في سبيل أن يرضى عنهم العزيز الحكيم، كل ذلك نجد أنهم قدموا في سبيل الله عز وجل .

فلقد افتن المشركون في تعذيب المسلمين وترويعهم، وأذاقُوهم من بأسهم ما لا عهدَ لهم به من قبل، عند ذلك أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعزمت أُمُ سلمة وزوجُها رضي الله عنهما على أن يكونا أول المهاجرين فرارًا بدينهما، وتخلُصًا من أذى قريش، لكن هجرة أُمُ سلمة وزوجُها لم تكن سهلة مُيسَّرة كما خُيِّل لهما، وإنما كانت شاقة مُرة، خلفت وراءها مأساة تهون دُونها كل مأساة.

فلنترك الكلام لأُم سلمة رضي الله عنها لتروي لنا قصة مأساتها، فشُعورُها بها أشدُّ وأعمقُ، وتصويرُها لها أدقُّ وأبلغُ. قالت أُمُ سلمة رضي الله عنها: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، أعدَّ لي بعيرًا، ثُم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة، ثم خرج يقود بعيره، وقبل أن نفصل عن مكة، رآنا رجالٌ من قومي بني المغيرة قاموا إلينا، فتصدوا لنا.

فقالوا لأبي سلمة: هذه نفسُك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه هي بنتُنا، فعلام نتركك تأخُذُها منا، وتسير بها في البلاد، - أي ممنوعة من المغادرة- ونزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني، وما إن رآهُم قومُ زوجي بنُو عبد الأسد يأخذُونني أنا وطفلي، حتى غضبوا أشد الغضب وقالُوا:

لا والله لا نتركُ ابننا عند صاحبتكم، ما دمتم قد انتزعتموها من صاحبنا انتزاعًا، فهو ابنُنا ونحنُ أَولَى به، ثُمُ طفقُوا يتجاذبُون طفليّ سلمة بينهم على مشهد منِّي حتى خلعُوا يدَه وأخذُوهُ، وفي لحظاتٍ وجدتُ نفسي مُمزقة الشمل وحيدة فريدة: فزوجي اتجه إلى المدينة فرارًا بدينِه ونفسِه، وولدي اختطفهُ بنُو عبد الأسد من بين يدي مُحطمًا ممزقًا، أمَا أنا فقد استولى عليَّ قومي بنُو مخزُوم، وجعلُوني عندهُم، ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني في ساعة.

ومُنذ ذلك اليوم جعلتُ أخرج كل غداةٍ إلى الأبطح، فأجلسُ في المكان الذي شهد مأساتي، وأستعيدُ صُورةَ اللحظات التي حيل فيها بيني وبين ولدي وزوجي؛ فما أزال أبكي حتى يُخيم عليَّ الليل، وبقيتُ على ذلك سنة أو قريبًا من سنة إلى أن مرَ بي رجُلٌ من بني عمي - أحد بني المغيرة - فرق لحالي ورحمني وقال لبني قومي:

ألاَ تُطلقُون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، وما زال بهم يستلينُ قُلُوبهُم ويستدر عطفهم حتى قالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، ولكن كيف لي أن ألحق بزوجي في المدينة، وأترك ولدي وفلذة كبدي في مكة عند بني عبد الأسد؟ كيف يُمكنُ أن تهدأ لي لوعةٌ أو ترقأ لعيني عبرةٌ، وأنا في دار الهجرة، وولدي الصغيرُ في مكة لا أعرفُ عنهُ شيئًا؟!!

ورأى بعضُ الناس ما أعاني من أحزاني وأشجاني، فرقت قُلُوبهُم لحالي، وكلمُوا بني عبد الأسد في شأني، واستعطفُوهُم عليَّ، فردوا إليَّ ولدي، فلم أشأ أن أتريث في مكة حتى أجد من أُسافرُ معهُ، فقد كُنتُ أخشى أن يحدُث ما ليس بالحُسبان فيعُوقني عن اللحاق بزوجي عائقٌ؛ لذلك بادرتُ فأعددتُ بعيري، ووضعتُ ولدي في حجري، وخرجتُ مُتوجهةً نحو المدينة أُريد زوجي، وما معي أحدٌ من خلق الله.

وما إن بلغتُ التنعيم - مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة - حتى لقيتُ عُثمان بن طلحة أخا بني عبد الدار. فقال لي: إلى أين يا بنت زاد الراكب؟ فقُلتُ: أُريدُ زوجي في المدينة، قال: أو ما معك أحدٌ؟ قُلتُ: لا ورب الكعبة إلا الله، ثُمَ بُنيّ هذا، قال: والله لا أتركُك أبدًا حتى تبلُغي المدينة، ثُمَ أخذ بخطام بعيري، وانطلق يهوى بي، فوالله ما صحبتُ رجُلًا من العرب قطُ أكرم منهُ، ولا أشرف، كان إذا بلغ منزلًا من المنازل أناخ بي، ثُمَ يستأخرُ عنَي، حتى إذا نزلتُ عن ظهره واستويتُ على الأرض دنا إليه وحطَ عنُهُ رحلهُ، واقتادهُ إلى شجرة وقيدهُ فيها.

ثُمَ يتنحى عني إلى شجرة أُخرى فيضطجعُ في ظلَها، فإذا حان الرواحُ قام إلى بعيري فأعدهُ، وقدمهُ إليَّ، ثُمَ يستأخر عني، ويقُول: اركبي، فإذا ركبت، واستويتُ على البعير، أتى فأخذ بخطامه وقادهُ، وما زال يصنعُ بي مثل ذلك كُل يوم حتى بلغنا المدينة، فلما نظر إلى قرية بقباء لبني عمرو بن عوف قال: زوجك في هذه القرية، فادخُليها على بركة الله، ثُمَ انصرف راجعًا إلى مكة.

وكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهُم ما أصابُ آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قطُ أكرمُ من عُثمان ابن طلحة.

عبرة

يا أيتها الأخوات، كانت فتنة المسلمين من أصحاب النبي ﷺ في مكة، فتنة الإيذاء والتعذيب، وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية، فلما أُذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة، أصبحت فتنتُهم في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم، ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم، أمام الفتنة الأولى والثانية، قابلوا المِحَن والشدائد بصبرٍ وثباتٍ، وعزم عنيد، حتى إذا أشار لهم الرسول بالهجرة إلى المدينة، توجهوا إليها وقد تركوا من ورائهم الوطن، وما لهم فيه من مال ومتاع، ذلك أنهم خرجوا مُستخفين متسلِّلين، ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصُّوا من الأمتعة والأثقال، فتركوا كل ذلك في مكة ليسلم لهم الدين، واستعاضوا عنه بالإخوة الذين ينتظرونهم في المدينة ليؤووهم وينصروهُم، وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذي أخلص الدين لله، لا يبالي بالوطن ولا بالمال في سبيل أن يسلم له دينه.

وتوالت الأحزان

في تاريخ النساء مواقف حافلة بالبطولات والتضحيات، ولكن بطلتنا أسماء بنتُ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما تَفُوق النساء جميعًا في موقف يشير إلى ذكائها وصبرها، وحُسن تصرفها، فإذا نسي التاريخ لأسماء مواقفها كُلها، فإنهُ لن ينسى لها رجاحة عقلها، وشدة حزمها، وقُوة إيمانها وهي تلقَى ولدها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما اللقاء الأخير، وذلك أن ابنها عبد الله بُويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن مُعاوية، ودانت له الحجاز، ومصر، والعراق، وخُراسان، وأكثرُ بلاد الشام، إلا الأردن، ودمشق.

لكن بني أُمية ما لبثُوا أن سيرُوا لحربه جيشًا لجبًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فدارت بين الفريقين معاركُ طاحنةٌ أظهر فيها ابنُ الزبير من ضروب البطولة ما يليق بفارس شُجاع مثله، غير أن سلطانه بدأ ينحسر ويتلاشى، وأحاطت به جنود الحجاج وهو في مكة، وأحجار المنجنيق تنهمر عليه من كل مكان، وبدأ أنصاره ينفضون عنه شيئًا فشيئًا، وكانت الفرصة سانحة أمامه لطلب الأمان أُو الفرار.

ولكن أنى لهُ ذلك وقد عرفتهُ البلاد بطولها وعرضها بالشجاعة، والثُبات، والإقدام، وأُمهُ أُسماء فدائية الإسلام الأولى، وها هي أمُه قد قاربت المائة، وعقلها ما يزال يشع بالحكمة، وفصل الخطاب، وتوجه إليها يبثُها حزنه، ويستشيرها فيما يفعل.

وقُبيل مصرعه بساعات دخل على أُمه أسماء، وكانت عجوزًا فانية قد كُفَ بصرُها. فقال: السلامُ عليك يا أُمي ورحمةُ الله وبركاته. فقالت: وعليك السلامُ يا عبد الله، ما الذي أقدمك في هذه الساعة، والصُخُور التي تقذفها منجنيقاتُ الحجاج على جنودك، تهز دور مكة هزًا؟!

قال: يا أَمة، جئتُ لأستشيرك في أمرٍ. قالت: تستشيرني في ماذا يا عبد الله. قال: أُماهُ لقد خذلني الناس وانحازوا عني رهبة من الحجاج، أو رغبة بما عنده، حتى أولادي وأهلي انفضُّوا عني، ولم يبق معي إلا نفرٌ قليلٌ من رجالي، وهم مهما عظم جلدهم فلن يصبروا إلا ساعة أو ساعتين، ورسل بني أمية يفاوضُونني على أن يُعطوني ما شئتُ من الدنيا إذا ألقيتُ السلاح، وبايعتُ عبد الملك بن مروان، فما ترين؟

فعَلا صوتُها وقالت: الشأنُ شأنُك يا عبد الله، وأنت أعلَمُ بنفسك، فإن كُنت تعتقدُ أنك على حق، وتدعُو إلى حقٍّ، فاصبر وجالد كما صبر أصحابُكَ الذين قُتِلوا تحت رايتك، وإن كنت إنما أردت الدُنيا فلبئس العبدُ أنت، أهلكتَ نفسك، وأهلكت رجالك، وإن قُلت: إني كُنت على حقٍّ فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي، فليس هذا فعل الأحرار، ولا من فيه خيرٌ، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقعُ بك يا بن الزبير، والله لضربة بالسيف في عزٍّ أحب إليَّ من ضربةِ السوط في ذلٍّ.

فقال: يا أُماهُ، ولكني مقتُولٌ اليوم لا محالة. قالت: ذلك خيرٌ لك من أن تُسلم نفسك للحجاج مُختارًا، فيلعب برأسك غلمانُ بني أُمية. قال: يا أُمَّاهُ والله لستُ أخشى القتل، وإنما أخافُ إن قتلني أهلُ الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. هنا قالت أسماء قولتها المشهورة التي جرت مجرى الأمثال: يا بني إن الشاة لا يضُرها السلخ بعد الذبح، يا بني امضِ على بصيرتك، واستعن بالله عز وجل.

فأشرقت أساريرُ وجهه وقال: بُوركت مناقبُك الجليلة، فأنا ما جئت إليك في هذه الساعة إلا

لأسمع منك ما سمعت، والله يعلمُ أنني ما وهنتُ ولا ضعفت، وهو الشهيدُ عليَّ أنني ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وأنني ما قُمتُ بما قُمتُ به حبًا بالدنيا وزينتها، وإنما غضب لله أن تُستباح محارمُه، ولكني أحببتُ أن أُعلم رأيك فزدتِني بصيرة مع بصيرتي، وهاأنذا ماضٍ إلى ما تُحبِّين، فإذا أنا قُتلتُ فلا تحزني عليَّ، وسلمي أمرَكِ لله، قالت: إنما أحزنُ عليك لو قُتلت في باطل.

قال: يا أُمَّاهُ كُوني على ثقة بأن ابنك لم يتعمد إتيان مُنكر قطُ، ولا عمل بفاحشة قطُ، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظُلم مُسلمٍ ولا مُعاهِد، ولم يكُن شيءٌ عندهُ آثر من رضا الله عز وجل، لا أقولُ ذلك تزكية لنفسي، فالله أعلمُ منِّي بي، وإنَما قُلته لأُدخِل العزاء على قلبك.

فقالت: الحمد لله الذي جعلك على ما يُحب، وأُحب، ثُمَ قالت: اقترب منَي يا بُنيّ لأتشمم رائحتك، وألمس جسدك، فقد يكُون هذا آخِر العهد بك. فأكب عبد الله على يديها ورجليها يُوسِعُهُما تقبيلًا، وأطلقت يديها تتلمَّسُ جسده، ثُمَّ ما لبث أن ردتهُما عنه وهي تقُوُل: ما هذا الذي تلبسُه يا عبد الله؟ قال: درعي. قالت: ما هذا يا بُني لباسُ من يُريد الشهادة. قال: إنَما لبستُها لأُطيب خاطرك، وأُسكن قلبك. قالت: انزعها عنك، فذلك أشدُّ لحميتك، وأقوى لوثبتك، وأخفُّ لحركتك، ولكن البس بدلًا منها سراويل مُضاعفة، حتى إذا صُرعت لم تنكشف عورتك.

نزع عبد الله بنُ الزبير درعه، وشدَّ عليه سراويله، ومضى إلى الحرم لمُواصلة القتال وهو يقول: لا تفتري عن الدُّعاء لي يا أمي، فرفعت كفيها إلى السماء وهي تقول: اللهُم ارحم طول قيامه، وشدة نحيبه في سواد الليل، والناس نيامٌ، اللهُم ارحم جُوعَه وظمأهُ في هواجر المدينة وهو صائمٌ، اللهُم ارحم بِرَّهُ بأبيه وأمِّه، اللهُم إني قد سلَّمتُه لأمرك، ورضيتُ بما قضيت له، فأثبني عليه ثواب الصابرين.

لم تغرُب شمسُ ذلك اليوم إلا كان عبد الله بنُ الزبير رضي الله عنهما قد لحق بجوار ربه، ولم يمض على مصرعه غيرُ بضعة عشر يومًا إلا كانت أمُّهُ أسماء بنتُ أبي بكر رضي الله عنهما قد لحقت به.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد وقفت بعضُ النساء موَاقفَ إيمانية مُتميزةً عبر التاريخ الإنساني، وبعض هذه المواقف يعجزُ عنها الرجال، ومن هؤلاء كانت الصدِّيقة بنت الصدِّيق أسماء بنتُ أبي بكر رضي الله عنهما، فقد جادت بنفسِها لله عز وجل، وآثرت ما عنده، وتخلَّت عن الدنيا، وصبرت على فراق الولد، واستحقت بذلك أسماء أن يُضرَب بها المثال لهذا الموقف الإيماني؛ فالله عز وجل يُثبِّتُ أهل الإيمان، ويُيسر لهم سبيل الزيادة في إيمانهم رحمة بهم، نسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، الإسلام بمبادئه الشاملة وأنظمته الخالدة حضَّ الآباء والأمهات والمربين جميعًا على أن يهتموا بملازمة أولادهم ومراقبتهم في كل ناحية من نواحي الحياة، فالله تعالى يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم: ٦). وكيف يقي المربي أهله وأولاده نارًا إذا هو لم يأمرهم وينههم ولم يراقبهم ويلاحظهم، فمسئولية الرجل عن رعيته

تلزمه أن يلحظ الولد ويؤدبه ويراقب حركاته وسكناته حتى إذا أهمل حقًّا أرشده إليه، وإذا قصر في واجب حضّه عليه، وإذا رأى منكرًا نهاه عنه وحذَّرَه منه، وإذا فعل معروفًا شكر له صنيعه، وشجعه على المواصلة.

الممتحنة التي صدقت في هجرتها لله

إن من آثر رضا الله عز وجل، ورضا رسوله ﷺ، آثره الله على الدنيا بأسرها، فلا بُدَّ للمؤمن أن يُوثر الله في كل مقام، وأن يحبه ويحب رسوله ﷺ أكثر من حبه لولده وولديه والناس أجمعين، بل أكثر من حبه لنفسه، وها نحن هنا في هذا الموقف نتعايش بقلوبنا مع صحابية جليلة عرفت قدر نعمة الإسلام، بل عرفت قدر نفسها في ظِلِّ هذا الدين العظيم، فخرجت من دنياها مهاجرة إلى الله ورسوله ﷺ، لتعلِّم الكون كله درسًا عظيمًا في التضحية والفداء من أجل هذا الدين العظيم.

لقد كانت أمُ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها تبحث عن فجر يبدد ظلام الجاهلية، فلما ظهرت شمس الإسلام في صحراء مكة القاحلة، وجدت أمُ كلثوم رضي الله عنها أن أصحاب الفطر السليمة والقلوبُ التقية النقية يسارعون إلى الدخول في هذا الدين؛ فما كان منها إلا أن وجدت قدمها تسابق الريح لتنضم إلى تلك القافلة الإيمانية، فأسلمت لله وبايعت.

رغم أنها نشأت في بيتٍ شديد العداوة للإسلام، وللنبي ﷺ، وتحديدًا والدها الذي كان من أكابر مجرمين قريش، وهذا الشقي الذي آذى الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه كثيرًا قبل هجرته، وانفرد بما لم يفعله أحدٌ، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق صلوات ربي وسلامه عليه، حتى إنه قد حاول مرة أن يخنقه بيده، وكان يحشد الجيوش لمحاربة الإسلام، فقُطعت عنُقه جزاءً وفاقًا.

كانتُ أُم كلثوم رضي الله عنها ذات مكارِم وفضائل جليلة منذ أن أشرب الإيمان في قلبها، ومنذ أن لامست نسمات الإسلام نفسَها الصَّافية، وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها هي الوحيدة في بيتها من ينشرح صدرها للإسلام، وتؤمن بالله ورسوله ﷺ، حتى إنها كانت من أوائل الذين أسلموا، وواحدة من المسلمين الذين صلوا إلى القِبلتين.

كانُت أم كلثوم رضي الله عنها قد كتمت إسلامها وأخفَتْه، ولكن يومًا بعد آخر كانت مواصلة الحياة في بيتها، والحفاظ على إسلامها تزداد صعوبةً، ويومًا بعد آخر كان خوفُها يزداد من إيذاء كفار قريش لها، وإجبارها على ترك دينها، وكانت الهجرة إلى المدينة قد حبست عنها في مكة ومنعتها من اللحاق بركب المهاجرين، وصبرت على ذلك زمنًا، وهي تتحمل الشدائد في سبيل الله عز وجل، بعد أن عُرِفَ أمرُ إسلامها، حتى اتخذتُ القرارَ الصعبَ، وقررت أن تخرج إلى مدينة رسول الله ﷺ لتنضم إلى المسلمين هناك.

قرار أم كلثوم رضي الله عنها لم يكن صعبًا فقط، لأنها فتاة وحيدة تخرج لتقطع الطريق الطويل من مكة إلى المدينة دون حمايةٍ أو ونسٍ، وإنما أيضًا كان صعبًا بسبب التوقيت الذي اختارته وقت صلح الحديبية، الذي كان يتضمَّن شرطًا مُجحفًا للمسلمين، يشترط على الرسول ﷺ أن يرد إليه أي شخص يأتيه مهاجرًا من مكة، حتى ولو كان مسلمًا.

كانت أم كلثوم تعرف بهذا الشرط إلا إنها توكلت على الله، وأصرت على الرحيل، وفي الطريق صادفت قافلة تخص رجلًا من قبيلة خزاعة التي دخلت في حلف مع الرسول ﷺ ضد قريش، فاطمأنت وطلبت منهم أن يصحبوها معهما، وأمنتهم على نفسها فحفظوا الأمانة وأحسنوا صحبتها حتى وصلت إلى المدينة المنورة.

فلنترك الكلام لأمُ كلثوم رضي الله عنها لتروي لنا قصة هجرتها وقد قالت: كنت أخرج إلى بادية لنا فيها أهلي، فأقيم فيها الثلاث والأربع، وهي ناحية التنُعيم، ثم أرجع إليهم فلا يُنكرون ذهابي للبادية، حتى أجمعت المسير، فخرجت يومًا من مكة كأني أريد البادية، فلما رجع من تبعني، إذ رجل من خزاعة، قال: أين تريدين؟ قلت: ما مسألتك؟ ومَن أنت؟ قال: رجل من خزاعة.

فلما ذكر خزاعة اطمأنت إليه، لدخول خزاعة في عهد رسول الله ﷺ وعقده. فقلتُ: إني امرأة من قريش، وإني أريدُ اللحاق برسول الله ﷺ، ولا عِلمَ لي بالطريق، قال: أنا صاحبك حتى أوردك المدينة، ثم جاءني ببعير فركبتُه حتى قدمنا المدينة، وكان خير صاحبُ، فجزاه الله خيرًا.

بعد أن تأخرت أم كلثوم رضي الله عنها عن موعد العودة، وشعر أهلها بغيابها خرجوا ليبحثوا عنها، فعرفوا أنها هاجرت إلى المدينة، حيث أخبرتهم واحدة من النساء أنها رأتها تسلك الطريق المؤدية إلى المدينة، وحين عرف أهلها بذلك تذكَّروا فورًا شرط صلح الحديبية، فقالوا: لا ضير، بيننا وبين محمد عهد وصلح، وليس أحد من الناس بأوفى من محمد، نذهب إليه ونسأله أن يفي بعهدُنا.

وخرج أخواها عمارة والوليد للمدينة ليستعيدوا أختهما، بينما كانت أم كلثوم رضي الله عنها في بيت النبوة، دخلتُ على أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها وعرَّفتها بنفسها، وقالت لها: إنها تخشى أن يردها رسول الله ﷺ لأهلها التزامًا بشرط الصلح، ولما دخل الرسول على أم سلمة أخبرته بذلك فرحَّب بها فقلت: يا رسول الله، إني فررت إليك بديني، فامنعني ولا تردني إليهم يفتنوني ويعذبُوني، ولا صبر لي على العذاب.

ووصل شقيقاها إلى المدينة في اليوم التالي لوصولها، وطلبوا من رسول الله ﷺ استردادها، إلا أن الله نزل في قرآنه ما ينجيها، حيث تنزَّلت الآية العاشرة من سورة الممتحنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

عبرة

لقد ملأت هذه القصة القلب بالروعة، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم، فقد كان في مكنة المؤمنين في مكة أن ينجوا بحياتهم في مُقابل الهزيمة لإيمانِهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة، وكَم كانت البشرية كلها تخسر، كما كانوا يخسرون، وهم يقتلون هذا المعنى الكبير.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن غاية المسلم التي يسعى إليها هي رضا الله عز وجل، وذلك لا ينال إلا بقصده تعالى وحده، والإخلاص له، والمسلم الذي يسعى إلى رضا الله لا بدَّ أن يكون أمامه هدفٌ واضحٌ يجد في السعي إليه، ويسابق العمر في تحصيله، ومن ثم يدرك أنه لن يصل إلى غايته إلا بالإخلاص لله تعالى.

الصالحة الصابرة

رزق الله عز وجل هذه الصحابية بعلوِّ الهمَّة، وحباها كثيرًا من الفضائل، وفي مقدمتها الصَفاء والإنصاف، والعدل، والصِّدق، وقول الحقِّ على أي جنبٍ كان، فالغاية هي مرضاة الرحمن، وكبت الشَيطان، ولقد مكثت هذه السيدة الجليلة ساعات وأيامًا في بيت النبوَّة، فتخلقت بآداب أهل البيت، وسلكت سبل الهدى والرَّشاد قولًا وعملًا، ولم تعصف بها الأمومة لتصدها عن التضحية في سبيل الله عز وجل، فتعالوا بنا لنرى هذه البطولة.

تفانت أم أيمن رضي الله عنها في طاعة النبي ﷺ، وأخلصت كل الإخلاص في حبه وخدمته، واشتركت مع الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه في الجهاد، فقد حضرت معركة أحد الطاحنة، وقامت بسقاية المجاهدين، ومداواة جراحهم، وعندما خالف الرماة أمرَ الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، واستطاع المشركون أن يقتلوا عددًا كبيرًا من الصحابة رضي الله عنهم ، وانهزم بعض المسلمين بين يد الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه لقيتهم وجعلت تحثوا في وجوههم التراب، وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغزل به وهلم بسيفك، ثم اتجهت نحو رسول الله ﷺ تستطلع أخباره في نسوة من نساء الصحابة رضي الله عنهم معها حتى اطمأنت على سلامته، فحمدت الله عز وجل .

وفي غزوة خيبر خرجت أم أيمن رضي الله عنها لتقدِّم ما تستطيع أن تقدمه لخدمة دين الله عز وجل، ولكن ابنها أيمن رضي الله عنه قد تخلف عن غزوة خيبر لعذرٍ منعه من الخروج، فظنت أنه جبن فعيرته بالجبن والخوف، ولم تعرف أنه لم يستطع الخروج لمرض فرسه، وفي معركة مؤتة كان الخطب عظيمًا والبلاء شديدًا على أم أيمن فقد قُتِل زوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولما وصل الخبر إلى أم أيمن صبرت واحتسبت زوجها عند الله عز وجل.

وجاءت غزوة حنين وخرجت أم أيمن كعادتها لتنصر دين الله عز وجل بأي شيء، ولو بشربة ماء تقدمها للمجاهدين في سبيل الله، وكان معها في ركب المجاهدين ولديها أيمن وأسامة رضي الله عنهما للذود عن حياض الإسلام والدفاع عن رسول الله ﷺ، وكان ولداها من المائة الصابرة التي ثبتت حول النبي ﷺ يومئذٍ، وسقط أيمن يومئذٍ شهيدًا، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ، حين فرَّ الناس من وجه الخيل التي باغتتهم عند إشراق الشمس، وظل يضرب بسيفه ميمنة وميسرة حتى سقط في الميدان مع من سقط من الشهداء.

كانت أم أيمن رضي الله عنها قمة في مجال الصبر والتسليم لقضاء الله عز وجل، وكانت ممن ضرين أروع الأمثلة فلقد فقدت ابنها أيمن في معركة حنين، فما بكت، ولا حزنت عليه، بل فرحت واستبشرت باستشهاده في سبيل الله، ورأت أنها قدَّمَت لنصرة دين الله بطلًا من أبطال الجهاد، تربَّى في حجرها، وأعانها خير الخَلقِ في تنشئته على الخُلق الفاضل، والسلوك النبيل، وأسهم بحظٍّ وافرٍ في إعداده لمواطن الرجولة، وميادين البطولة.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن النفس البشرية حين تستعلي فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ، وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض، وماذا ستدفع؟ وماذا ستخسر؟، وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق إلى الله من صعابٍ وأشواكٍ

وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق.

هذه الصحابية الجليلة أم أيمن لم تتخرج في كلية الآدب قسم التاريخ، لكنها تخرجت من مدرسة محمد ﷺ، فقد رأيناها على أميتها فاقت الوزيرات والمتعلمات حيث تأثرت بقضايا أمتها، واحترق قلبها بضعف راية الإسلام في صحراء في مكة، ولا ينسى التاريخ الصادق لها هذين الموقفين يوم أُحُد ويوم حنين.

ففروا إلى الله

نحن نقترب هنا أكثر وأكثر لنستنشق عبيرَ زهرةٍ من بستان العائلة العمرية، إنها الزكية ابنة الفاروق، هي الصَوَّامة القَوذَامة، المزرية بنفسها اللَوَّامة، إنها أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما وارثة الصحيفة الجامعة للكتاب، تلكم الزهرة التي جمع الله فيها من المكارم والفضائل ما يعجز قلمي أن يصفها أو يذكُرَها مجرد ذِكرٍ، فأبوها هو فاروق هذه الأمة، وعمُّها هو زيد بن الخطاب رضي الله عنه بطل معركة اليمامة، وأمها زينب بنت مظعون أخت الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنهما ، وعمتها فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها إحدى السابقات إلى الإسلام، وأخوها هو الزاهد العابد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وها نحن نتعايش بقلوبنا من خلال تلك السطور مع هذه الزهرة.

لما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وكان عمر رضي الله عنه ما زال على الشرك كان الحبيب ﷺ يتمنى أن يسلم عمر ليكون شوكة في ظهور المشركين، فأسلم، ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا في ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف في الله لومة لائم.

وهكذا دخل الإسلام إلي هذا البيت المبارك ليكون حصنًا حصينًا يذود عن الإسلام وأهله، وهكذا عاشت تلك الأسرة العمرية المباركة في ظل هذا الدين العظيم، وفي جوار هذا النبي الكريم ﷺ ينهلون من النبع الصافي، ويتعلمون من هدي النبي ﷺ وأخلاقه وعبادته وسلوكه ورحمته.

تقدم أحد السابقين إلي الإسلام وهو خنيس بن حذافة رضي الله عنه لزوج من حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، فتزوجها، وعاشت معه في سعادة غامرة، في رحاب الإسلام، وفي ظل الإيمان والطاعة، وكان خنيس رضي الله عنه قد أسلم قديمًا قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، وكان إسلامه على يدي الداعية الأول للإسلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وحينما اشتد إيذاءُ المشركين لأصحاب الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه، أشار النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة، فكان خنيس ممن هاجر هو وزوجته إلى الحبشة ثم ما لبث أن عاد إلى مكة، فلما رأى أن الإيذاء والتعذيب يزدادُ يومًا بعدَ يومٍ أخذ زوجه حفصة وهاجرا إلى المدينة المنورة، بعدما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلي المدينة.

وهناك عاش الزوجان في رحاب الأنصار، وازدادت سعادتهما بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ولما كانت غزوة بدر التي كتب الله فيها النصر والعزة للفئة المؤمن، كان خنيس رضي الله عنه من أبطال تلك الغزوة المباركة، فقد كان رضي الله عنه يشتهي ويتمنى الشهادة من أعماق قلبه؛ فلما شارك في تلك الغزوة أصيب بجراحات كثيرة في جسده، ومع ذلك ظل يقاتل قتال الأبطال، فقد كان خنيس رضي الله عنه ممن لا يبحثون عن النصر، إنما كان يبحث عن الشهادة، كانت كل أمانيه أن يموت شهيدًا على أرض بدر، ولما انتهت بدر عاد خنيس إلى المدينة متأثرًا بجراحه.

ولما وصل المدينة ما لبث أن مات هذا الصحابي الجليل الذي بذل نفسه لله، وفاز بأعظم منقبة فقد صلى عليه الحبيب ﷺ، ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وهكذا كان الفراق المؤلم، وهكذا ترمَّلت حفصة رضي الله عنها وهي في

سنٍّ مبكرة، وحزنت لموت زوجه وقُرة عينها حزنًا كاد أن يمزق قلبها، لكنها كانت في قمة سعادتها لأنه مات ميتة كريمة، وسوف تشهد له جراحه التي كانت كلها في سبيل الله.

عِبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن قضية الإيمان ليست أمرًا على هامش الوجود، يجوز لنا أن نغفله أو نستخف به، أو ندعه في زوايا النسيان، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره على هذه الأرض، بل أجد قضية الإيمان هي أعظم قضية مصيرية بالنظر إلى الإنسان، إنها سعادة الأبد أو شقوته، إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا، فكان لزامًا على كل ذي عقل أن يفكر فيها ويطمئن إلى حقيقتها.

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره في النفس والحياة إنما نعني الإيمان القوي الدافق، الإيمان حين يبلغ مداه، ويشرق على القلوب سناه، ويخط في أعماق النفوس مجراه، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعزع، الإيمان المخدر النائم، إنما نتحدث عن الإيمان اليقِظ، ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون، فإننا نناقش هنا الماديين الذي يشكِّكونَ في قيمة الإيمان، ليتعلموا أن الإيمان الذي يحاربونه كلما زاد عمقُه في القلوب، وسلطانه على النفوس ازداد أثَرُه المبارَك في حياة الأفراد والجماعات.

روائع من حب الصحابيات

التماس البركة

لا يقتصر مُحِبَ على تنفيذ أوامر حبيبه، بل يراقب بشوق حركاته وسكناته، ويلاحظ بدقة تغيرات وجهه، وإشارات عينيه، لعلَّه يجد فيه شيئًا يحبُّه حبيبه فيفعله، أو يعرف ما يبغضه حبيبه فيبتعد عنه، وهكذا كان أولئك الأبرار المحِبُّون الصادقون للحبيب المصطفى ﷺ، فلم يقفوا عن امتثال أمره، واجتناب نواهيه فقط، بل كانوا يتابعون أفعاله، ويلاحظون تصرفاته بحبٍّ وتقديرٍ وشوقٍ حرصًا على الاقتداء به؛ فإذا وجدوه ﷺ يفعل شيئًا سارعوا إلى فعله بدون تردد، وإذا رأوه ابتعد أو ترك شيئًا، بادروا إلى الابتعاد عنه.

ومن الشواهد الرائعة الدَّالة على حُب الصحابة لرسول الله ﷺ، حب الأنصار له ﷺ، فلقد برهن الأنصار رضوان ربي عليهم في شتى مواقفهم على أن إيمانهم برسول الله ﷺ وبرسالته، وكان هذا إيمان حب أفعمت به قلوبهم، وبادلهم رسول الله ﷺ هذا الحب بحب أجل وأعظم، عم به رجالهم، ونساءهم، شيبهم، وشبابهم، غلمانهم، وأطفالهم؛ فقد قال لهم: يا معشر الأنصار، والله وأنا أحبكم، ويعلم الله أن قلبي يحبكم، وأنتم من أحب الناس إليّ.

وشائج الإيمان إذا قامت على الحب، كانت صورة للنفس الإنسانية في أصفى صفائها، وصورة للفطرة البشرية في أنقى نقائها، تعجز عظائم الأحداث عن فصم عراها، وهكذا كان إيمان الأنصار حبًا مؤمنًا، وكان حبهم إيمانًا مؤثرًا، فاستحقوا من دون سائر الناس الاستئثار برسول الله ﷺ وحياته ومثواه، وهذه قصة إحداهن، إنها الصحابية الجليلة أم أيوب رضي الله عنها.

لا يمكن لنا، ونحن نتكلم عن أم أيوب رضي الله عنها أن نصف مدى السعادة التي غمرتها وزوجها، منذ تلك اللحظة المباركة التي دخل فيها رسول الله ﷺ بيتها إلى آخر لحظة في حياتها، ولذا فقد كانت أم أيوب تسابق زوجها رضي الله عنهما إلى التماس الخير، بالتبرُّك بآثار أصابع النبي ﷺ في قصعة الطعام، كلما أعادها إليهما صلواتُ ربي وسلامه عليه.

يرسم لنا أبو أيوب رضي الله عنه صورةً وضيئةً عن ذلك فيقول: كنا نصنع للنبي الكريم ﷺ الطعام ثم نبعث به إليه، فإذا ردَّ علينا فضلة منه، تيممت أنا وأم أيوب موضِعَ يدِه فأكلنا منه، نبتغي بذلك البركة.

حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه، وقد جعلنا له بصلًا أو ثومًا فردَّه رسول الله ﷺ، ولم أرَ ليدِه فيه أثرًا، فجئته فزعًا، فقلت: يا رسول الله، بأبي وأمي، رددت عشاءك، ولم أرَ فيه موضع يدِك، وقلت: أحرام هو يا رسول الله؟

قال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجلٌ أناجي ربي، فأما أنتم فكلوه. فقال أبو أيوب: فإني أكره ما تكره يا رسول الله، والله لم نصنع تلك الشجرة بعد ذلك.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، من علامات الحب أن تنفعل لمحبوبك حتى تأتمر من غير أمرٍ، وتنتهي من غير نهي، ولكن بشرط وهو: أن تلاحظ تصرف محبوبك فما كان يأتيه ويحبه فقد صار أمرًا من غيرِ أمرٍ، وما كان يكرهه ويعافه ويجافيه، فأنت كذلك تكرهه وتأباه، ولو لم ينهك عن ذلك، هذا الذي قصدته، فإذا رأيت محبوبك يُقبِل على شيءٍ ما، ولكنه لم يأمرك، ولم يَقُل لك: افعل كذا، فمجرد إقباله على هذا الشيء، تعتبره أمرًا في حقك، وإن لم يأمرك حبيبك. هذه

علامة المحب أن يراقب أحوال محبوبه، فإذا رأى محبوبه يأتي الفعل مرارًا وتكرارً فعله.

الزوجة الصالحة

إن الإيمان صلةٌ كريمةٌ بين العباد وربهم، ومن حق هذه الصلة، بل أثرها الأول تزكية النفوس، وتقويم الأخلاق، وتهذيب الأعمال، ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست في النفس عاطفة حية، تترفع بها أبدًا عن الخطايا، وتستشعر الغضاضة من سفساف الأمور، أمام الإلمام بالأمور دون تورع، والوقوع في الصغائر دون اكتراث، فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها، ثم فقدانها لإيمانها، وكان أصحاب الرسول في القمة من الحياء، وهكذا كانت الصحابية الجليلة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما.

لقد تزوجت أسماء بنت أبي بكر بالزبير بن العوام رضي الله عنهما بمكة، ولما كانت الهجرة انطلقت إلي المدينة، وهي حامل بابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فولدته بعد الهجرة فكان أول مولود في الإسلام بعد الهجرة. وكانت رضي الله عنها مثال الزوجة الصابرة الشاكرة، وكانت معوانًا لزوجها في أعماله، لنترك المجال هنا ل أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما لتحكي لنا تلك القصة.

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: تزوجني الزبير، وما له في الأرض مال، ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، ثم قالت: فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، فكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق.

ثم قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ، فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه فدعا لي، ثم قال: تعالى ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان من أغير الناس.

فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى فجئت الزبير، فقلت: لقيني رسول الله ﷺ، وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه فاستحييت، وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى، كان أشدَ عليَّ من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مطيعة لزوجها، تخدمه وتسوس له فرسه، وتصبر على شدته، وغيرته وفقره، ولا تشكو لأبيها ولا لغيره، وتحتسب ذلك كله عند الله عز وجل، فقد رباها الإسلام أحسن تربية، وكان للبيت الذي عاشت فيه أثر طيب في سياسة الأسرة، وتدبير شؤون الزوج والأولاد، وكانت تطيع زوجها، وتحسن عشرته، وتواجه بحلمها حدته وشدته في بعض الأحيان، والأم مدرسة لأولادها، يتعلمون منها الكثير من أخلاقها وسلوكها.

كانت أسماء دائمًا مثلٌ رائع للمرأة المسلمة التي تسلحت بالحزم، والعزم طول حياتها، وتحلت بالصبر والمثابرة في أشد الأزمات وأحلك الملمات، وتصرفت في شؤون دنياها تبعا لما يقضى به دينها الحنيف، وكانت على الحق الذي عرفته من القرآن والسنة لا تحيد عنه، ولا تتخلى عن أهله حتى لقيت ربها عز وجل، فرضي الله عنها وأرضاها، وأسكنها ربي مع النبيين، والصديقين،

والشهداء، والصالحين.

تلك هي الكرامة

حين يصدق الإيمان، تصدر عن صاحبه مكارم الأخلاق، ويهدى إلي الطيب من الأقوال والأفعال، ومن وحى ربنا ذي الجلال إلي النبي ﷺ الأسوة في كل الأحوال والخصال، نتعلم كيف يمد الإيمان شعوبنا وأمتنا بطيب الفعال، فمحبة الخير لكل مسلم أمر واجب في الإسلام، لازم لصدق الإيمان، وأثر للعقيدة السليمة النقية، وينبغي للمسلم أن يتعلم من سيرة سيد الخلق صلوات ربي وسلامه عليه، وكيف كان لا ينسى من قدم له معروف، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الماتع.

كان لفاطمة بنت أسد رضي الله عنها مكانة كبرى عند رسول الله ﷺ، إذ كان يساويها بابنته فاطمة رضي الله عنها، ويخصها بالهدية، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أهدي لرسول الله ﷺ حلة من إستبرق فقال لي: أجعلها خمرًا بين الفواطم، فشقها أربعة أخمرة: خمارًا لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وخمارًا لفاطمة بنت أسد - أمي -، وخمارًا لفاطمة بنت حمزة، وخمارًا لفاطمة بنت شيبة زوج عقيل بن أبي طالب.

ولقد ظلت فاطمة رضي الله عنها تعيش في ظل الإيمان والتوحيد، عابدة صائمة قائمة إلي أن جاء اليوم الذي نامت فيه على فراش الموت لتلقى ربها عز وجل فيكافئها عن صنيعها مع الحبيب ﷺ، فقد حظيت رضي الله عنها بالتكريم إذ ماتت في حياة النبي ﷺ وشهدها وتولى دفنها، وذكر فضلها، ودعا لها بالمغفرة والرحمة من الله.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما توفيت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس على رأسها فقال: رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبها وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة.

ثم إن رسول الله ﷺ صبَ الماء الذي في الكافور عليها بيده، وخلع قميصه فألبسها إياه، وكفَنها ببرد فوقه، ولما حفر قبرها، وبلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده، وأخرج ترابه، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه ثم قال: الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين.

ثم كبر عليها أربعًا، وأدخلها لحدها بمشاركة العباس وأبي بكر رضي الله عنهما، وتعجب الصحابة رضوان الله عليهم من صنيع النبي ﷺ وقالوا: ما رأيناك يا رسول الله ﷺ صنعت هذا لأحد من قبل؟، فقال: إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر بي منها، إنما ألبستها قميصي هذا لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها ليهون عليها.

ومما أكرم الله فاطمة رضي الله عنها أن خفف الله عنها ضغطة القبر ببركة رسول الله ﷺ، فقد خص الله عز وجل رسول الله ﷺ بأنه لا يضغط في قبره، وقد أعفيت فاطمة من ضغطة القبر إكرامًا لرسول الله ﷺ، فكان حقًا على القبر أن يشرق بنور الله، ويفيض برحمته على امرأة كريمة معطاء، إنها كانت أحسن الناس صنيعًا بعد أبي طالب.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هذه صورة من الحياة البيتية للنبي ﷺ هذا الرجل الذي كان ينهض

بإنشاء أمة، وإقامة دعائم دولة على خير مثال معروف، وعلى غير نسق مسبوق، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة، وتنشئ في الأرض مجتمعًا ربانيًا في صورة واقعية يتأسى بها الناس.

وهي صورة من حياة إنسان كريم، رفيع جليل عظيم، يزاول إنسانيته في الوقت الذي يزاول فيه نبوته فلا تفترق هذه عن تلك، لأن قدر الله عز وجل جري أن يكون بشرًا رسولًا، حينما جري بأن يحمل الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير، إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل، ومن كمالها أن يظل الإنسان إنسانًا فلا تكبت طاقة من طاقة البانية، ولا تعطل استعدادًا من استعداداته النافعة، وفي الوقت ذاته تهذبه وتربيه وترتفع به إلي غاية مراقيه.

الداعية العظيمة

ظل رسول الله ﷺ عشرين عامًا ينشد الخير لقريش، وللناس جميعًا، ويحاول بكل وسيلةَ أن يوجههم إليه ويرغبهم فيه، بيد أنهم عموا وصموا، وبادلوه عداوةَ بمودة، وإساءة بإحسان، وقاطعوه، وأخرجوه، وحاربوه، وألبوا عليه، وظلوا دهرهم يتربصون به الدوائر، ويتحينون الفرص للقضاء عليه، فلما أظهره الله عز وجل عليهم، وأمكنه من رقابهم عفا عن كل ما سلف من مساءاتهم وعداوتهم، وكافأهم بالصفح الجميل، والعفو الشامل، فكان هذا العفو فتحًا آخر، فتح الله عز وجل إغلاق القلوب، وطوي به عناد النفوس المتكبرة، فغدت تفيض بالحب والإخلاص.

فاخرج الله عز وجل بهذا العفو، والإحسان، فوج شريفٌ النسب شديدة العداوة للإسلام من الظلمات إلى النور، وتمثل هذا الفوج في صحابية كريمة أسلمت يوم الفتح، وإسلام على يديها زوجها وأبوها وأمها، بعد أن ظل هؤلاء يحاربون رسول الله أكثر من عشرين عامًا، إنها الصحابية الجليلة أم حكيم بنت الحارث رضي الله عنهما، فتعالوا بنا لنرى كيف أخذت بيد زوجها من الظلمات إلي النور.

كانت أم حكيم سببًا في إسلام زوجها عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه فقد فر إلي اليمن عندمَا دخل الرسول القائد ﷺ فاتح مكة، فأتت أم حكيم رسول الله ﷺ فاستأمنته لعكرمة فأمنه، ثم استأذنته في طلبه فأذن لها، فخرجت في طلبه ومعها غلام لها رومي، فلما أوغلا في الطريق راودها الغلام عن نفسها، فجعلت تمنيه وتماطله حتى قدمت على حي من العرب فاستعانتهم عليه، فأوثقوه وتركوه عندهم.

ومضت حتى أدركت عكرمة رضي الله عنه عند ساحل البحر في منطقة تهامة، وهو يفاوض نوبيًا مسلمًا على نقله والنوبي يقول له: أخلص حتى أنقلك.

فقال عكرمة: وكيف أخلص؟

قال الرجل: تقول أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقال عكرمة: ما هربت إلا من هذا.

وفيما هما كذلك إذ أقبلت أم حكيم على عكرمة وقالت: يا بن عم جئتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، من عند محمد بن عبد الله ﷺ، وقد استأمنت لك منه فأمنك فلا تهلك نفسك، فقال عكرمة: أنت كلمته.

قالت: نعم أنا كلمته، فأمنك وما زالت به تؤمنه وتطمئنه حتى عاد معها، ثم حدثته حديث غلامها الرومي فمر به وقتله، قبل أن يسلم.

وفيما هما في منزل نزلا به في الطريق أراد عكرمة أن يخلو بزوجه، فأبت ذلك أشد الإباء. وقالت: إني مسلمة، وأنت مشرك فتملكه العجب من ذلك.

وقال: إن أمر يحول دونك ودون الخلوة بي لأمر كبير. فلما دنا عكرمة من المدينة.

قال النبي ﷺ: سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت - هذا ما قاله نبي الرحمة في حق أشد إنسان حاربه - وما هو إلا قليل حتى وصل عكرمة وزوجته حيث يجلس رسول الله صل الله عليه وسلم، فلما رآه النبي وثب إليه من

غير رداء فرحًا به، ولما جلس رسول الله ﷺ.

وقف عكرمة، وقال: يا محمد إن أم حكيم أخبرتني أنك أمنتني فقال رسول الله ﷺ: صدقت فأنت آمن، فقال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، وطأطأ عكرمة رأسه من الحياء، فقال رسول الله صل الله عليه وسلم: لا تسألني اليوم شيئًا أعطيه أحد إلا أعطيتك، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي عن كل عداوة عاديتكها، فقال رسول الله: اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، أو مركب أو ضع فيه يريد أن يصد عن سبيلك، فقال عكرمة: أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالًا في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله.

عبرة

يا أيتها الأخوات، حين تذكر الخالدات في التاريخ تبرز أم حكيم رضي الله عنها في ذروتهن، فهي التي استطاعت أن يغلب حلمها جهلها، - والمرأة تنطلق من الحب والكره أكثر بكثير من الرجل -، ولم تكتف بذلك بل اعتبرت رسالتها الحقيقة هي أن تقنع زوجها بالإسلام، وكم تثق بنفسها حين تقطع الأرض إلي اليمن باحثة عن زوجها، تدعوه إلي الله، وإلي ورسوله، وإلي أمان، طامحة إلي إسلامه، وهي في أعتى بيئة عداء للإسلام، فأبوها الحارث بن هشام الذي لم يدخل الإسلام بعد، وعمها أبو جهل، وزوجها عكرمة، فالبيئة تنضح بالكره لمحمد ﷺ والحقد عليه، ومع ذلك استطاعت أن تتجاوز ذلك كله، وتمضى الداعية العظيمة في فجاج الأرض لتعود بزوجها إلي رسول الله.

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن الإيمان وحده هو صانع العجائب، الإيمان هو الذي يهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخير، مهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات، وتضحيات ومشقات، وهو العنصر الوحيد الذي يغير النفوس تغييرًا تامًا، وينشئها خلقًا آخر، ويصبها في قلب جديد واحدًا في عهدين، عهد الكفر، وعهد الإيمان، لرأيت الثاني شخصًا غير الأول تمامًا، لا يصل بينهم إلا الاسم، أو النسب أو الشكل.

كل مصيبة بعدك جلل

حتى يتحقق لدى المسلم أصل الإيمان، ويسير في طريق بلوغ كماله، لابد أن يحب ما أحبه الله تعالى، محبة تحمله على الإتيان بما وجب عليه منه، وما ندب إلي فعله، وأن يكره ما كرهه الله تعالى، كراهة تحمله على الكف عما حرم عليه منه، وما ندب إلي تركه، وهذه المحبة لما أحبه الله تعالى، والكراهة لما كرهه، لا تحققان إلا إذا أحب المسلم الله تعالى ورسوله ﷺ حبًا يفوق حبه لكل شيء، بحيث يضحى في سبيلهما بكل شيء، ويقدمهما على كل شيء، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم ، وهكذا كانت هذه الصحابية الجليلة التي لم يذكر التاريخ لها اسمًا، ولكن موقفها كان كالشمس سطوعًا، وقد كتبه التاريخ بحروف من نور، في صحائف من ذهب، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الماتع.

لما كان يوم أحد وقد قالوا: لقد قتل رسول الله ﷺ، حتى كثرت الصوارخ في المدينة، خرجت امرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها، وأخوها، وأبوها، وابنها، في أحد مع الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، فلما نعوا لها، وقد مرت على أحدهم قالت: من هذا؟ قالوا أبوك، ومرت على أخر قالت من هذا؟ قالوا: هذا أخوك، وهذا زوجك، وهذا ابنك.

فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟! قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أروينه حتى أنظر إليه. قالوا: هذا رسول الله ﷺ. فذهبت إليه حتى إذا رأته قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كل مصيبة بعدك جلل، فسلامتك في موت الأقارب والأباعد خير لي، ولفناء الدنيا أخف عليَّ من أتصاب بواخزة إبرة.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، هذا الموقف يدل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين عند نساء الصحابة • جميعًا، فهذه المرأة الدينارية قد نعي لها زوجها وأبوها وأخوها وابنها، فلم تتأثر لذلك، بل سألت عن سلامة النبي ﷺ، فلم يشف الخبر عن سلامته وجدها عليه، ولم يطفئ حرقة خوفها عليها حتى شاهدته بعينيها، فاطمأن قلبها واستصغرت كل مصيبة تصاب بها، أو يصاب بها غيرها مادام رسول الله ﷺ سالمًا، وهذا أكبر دليل على كمال محبة رسول الله ﷺ التي هي من كمال الإيمان، كما أن عدم تأثر تلك المرأة بموت أبيها وزوجها وابنها دليل على كمال اتصافها بالصبر الجميل، والرضا بقضاء الله تعالى وقدره.

إنها ابنة الصديق

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي خير امرأة تزوجها النبي ﷺ بعد أكمل النساء خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وحديثنا عنها ذو شجون، فيه عطر من شذاها، وروح من ريحانها، وقبس من إيمانها، ونور من يقينها، فلقد احتلَّت أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما مكانةً كبيرةً في بيت النبي ﷺ، مما جعل أنظار الصحابة تتجه بإعجابٍ، وإكبارٍ، واحترامٍ، وإجلالٍ، نحو بيت أم المؤمنين السيدة عائشة، لما خصَّها الله تعالى من الفضائل والمكرمات، مما أثار غيرة ضرائرها، أمهات المؤمنين • أجمعين

ففي صحيح البخاري يروي لنا هشامٌ عن أبيه رضي الله عنه، قال: كان الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، فقالت عائشة: فاجتمع صواحبي -أي أمهات المؤمنين - إلى أم سلمة رضي الله عنها، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري النبي ﷺ، أن يأمر الناس أن يهدوا إليه، حيث ما كان، أو حيث ما دار.

فذكرت أم سلمة ذلك للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إلى، ذكرت له ذلك، فأعرض عني، فلما كانت الثالثة ذكرت له، فقال: يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي، وأنا في لحاف امرأةٍ منكن غيرها.

ثم إن أمهات المؤمنين حاولن محاولةً ثانية مع السيدة فاطمة رضي الله عنها، أن تكلِّم أباها النبي ﷺ بهذا الخصوص، فلم تجدِ محاولتها شيئًا. فقد روي في صحيح مسلمٌ: أن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله إلى رسول الله، فاستأذنت عليه وهو مضطجعٌ، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، وأنا ساكتة، فقال لها النبي ﷺ: أي بنيَّة! ألستِ تحبين ما أحب؟، قالت: بل يا رسول الله، قال: فأحبي هذه، -أي عائشة-.

فقامت فاطمة رضي الله عنها حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي، فأخبرتهن بالذي قاله لها النبي ﷺ، فقلن لها: ما نراكِ أغنيتِ عنا من شيء، فارجعي إلى النبي ﷺ، فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبدًا.

ثم أرسلن أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحشٍ زوج النبي ﷺ، وكانت تضاهي عائشة رضي الله عنها عند رسول الله في الحظوة والمنزلة، فتكلَّمت في ذلك، فلم تجدِ في كلامها شيئًا، ثم قال النبي ﷺ معلنًا مكانة زوجه عائشة: إنها ابنة أبي بكر.

عبرة

أرأيتم إلى هذا الوفاء؟ فالإنسان أحيانًا يتألَّم أشد الألم حينما يمحض كل إخلاصه، وكل حبه، وكل خدمته لإنسان، ثم ينسى له هذا الإنسان ذلك كله، أما النبي ﷺ فهو أوفى الأوفياء، ما من إنسان أعطى النبي ﷺ كل اهتمامه مثل أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهذه ابنته، فلأنها بنت أبي بكر لها عند النبي حظوةٌ خاصَّة.

لقد كان أبوها أكرم رجل في الإسلام بعد النبي ﷺ، إنه الصديق الذي سبق إلى الإسلام فكان أول من نطق بالشهادتين من الرجال، وكان يشبه النبي ﷺ في خلقه الفاضل، وسلوكه النبيل، وكان صاحبه في الغار، وقد افتداه بنفسه وماله، وأحبه أكثر من نفسه التي بين جنبيه ولازمه ملازمة

الظل لصاحبه، وأخذ عنه الكثير والكثير من العلم، وكان يقتدي به في عباداته وعاداته، ولا يخرج عن سنته قيد شعرة. لهذا كان أحب إنسان إلى قلب النبي ﷺ.

هكذا يكون الوفاء

لقد ملكت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها على النبي ﷺ شغاف قلبه بحلمها، وحكمتها ونور بصريتها، وجمالها الروحي، ومشاعرها الجياشة بالحب والوفاء، وتعبيرها الصادق عن إيمانها العميق بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، فكان النبي ﷺ أعظم وفاءً لها، إذا لم ينسها في صباح أو مساء.

لقد تزوج النبي ﷺ بعدها بعشر نسوة، كلهن من الأخيار الأبرار، ومع ذلك لم يجد ﷺ منهن مجتمعات ما كان يجده من خديجة ساعة من نهار، وكان من عظيم وفائه لها: أنه كان لا يترك امرأة كانت تزوره في بيت خديجة إلا وصلها، وأكرمها ودعا لها بخير.

من مظاهر وفائه ﷺ لخديجة رضي الله عنها، أنه جاءت إليه أم زفر ماشطة خديجة رضي الله عنها، وكانت تفد عليه ﷺ وهو في المدينة، فيحسن استقبالها، ويبالغ في إكرامها ويقول: هذه كانت تغشانا في عهد خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان.

ومن أروع الأمثلة التي ضربها النبي ﷺ في الوفاء لها: أنه لما أراد فتح مكة أعطى الزبير بن العوام رضي الله عنه رايته، وأمره أن يغرزها بأعلى مكة في الحجون - وهو المكان الذي دفنت فيه خديجة - وقال له: لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتي حتى آتيك.

وهناك ضربت للرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه قبته حيث اتخذ له مكانًا للقيادة يدير منه معركة الفتح الأعظم، ويشرف على الفتح، وهو بالقرب من قبرها على سير الحوادث، ومن هناك دخل أم القرى بتأييد الله ونصره.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، ما يلفت النظر أن النبي ﷺ لم تشغله الأعمال الجليلة الكبيرة التي تملأ حياته مثل، الدعوة إلى الله، تلقي الوحي، تبليغه للناس، عرضه على القبائل، الهجرة إلى المدينة، تأسيس الدولة الإسلامية، بناء المجتمع المسلم الجديد، الجهاد في سبيل الله، الخروج إلى الغزوات، إرسال الرسائل والكتب إلى الأمراء والملوك، استقبال الوفود، كل هذه الأعمال الجليلة التي نهض بها النبي ﷺ لم تشغله عن تذكر السيدة خديجة رضي الله عنها ، بل بقيت مع كل هذه الأعمال ذكرى خديجة رَضِي اللَّه عَنها عالقة في قلبه الشريف لا تفارقه، كأنها أصبحت جزءًا منه لا تكاد تنفصل عنه.

الذي يلفت النظر أيضًا أن النبي ﷺ تزوج بعد وفاتها أمهات المؤمنين، واجتمع عنده في وقت واحد تسع منهن، وكن رَضِي اللَّه عَنهن مع كل ذلك تسع نسوة يتنافسن على خدمته، ومحبته، وتوفير راحته، ومع ذلك لم ينس السيدة خديجة، هذا الوفاء الزوجي، ما من زوج على وجه الأرض أكثر وفاءً لزوجته من رسول الله ﷺ.

أصحاب السفينة

عاش المسلمون في أرض الحبشة هذه الأرض الطيبة، وفي كنف مليكها آمنين ينشرون الإسلام في كل مكان ذهبوا إليه بحرية تامة، حتى أذن لهم رسول الله ﷺ بالعودة إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة، فهاجروا إليها طيبين راشدين، على رأسهم جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس رضي الله عنهما بعد أن مكث الصحابة رضوان ربي عليهم عشر سنوات في رحاب النجاشي آمنين مطمئنين، يرفلون في حلل السعادة، ويعبدون الله بلا قيود، ولا مؤامرات تدبر لهم بالليل والنهار، ولا عذاب يسلط عليهم من كفار قريش.

عاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى المدينة، وإقدامه تسابق الريح من أجل رؤية الحبيب ﷺ، الذي طال شوقه إليه، وما إن وصل حتى كان النبي ﷺ عائدًا من فتح خيبر، كانت فرحة النبي ﷺ عظيمة بقدوم ابن عمه جعفر بن أبي طالب بعد طول غياب، فقبله بين عينيه، وقال رسول الله ﷺ له: والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر، وأسهم لهم رسول الله، وأعطاهم من الغنائم.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشد المسلمين فرحًا بالعائدين، لأن أخته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها كانت من المهاجرات إلى الحبشة، وقد رأى أسماء بنت عميس عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه يا حفصة، قالت: أسماء بنت عميس، فبدا له أن يداعبها، مبالغة في إظهار سروره بقدومها، فقال لها: يا حبشية، سبقناكم بالهجرة - يقصد إلى المدينة - فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم.

غضبت أسماء وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وأيم الله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ وأسأله، والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه.

فلما جاءت إلى النبي ﷺ قالت: يا رسول الله ﷺ، إن عمر قال: كذا وكذا، فقال النبي ﷺ، فماذا قلت له يا أسماء؟ قالت: قلت له كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: ليس بأحق منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أهل السفينة هجرتان.

قالت: فلقد رأيت أصحاب السفينة يأتوني أفواجًا يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هو أفرح، ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات للمرأة المسلمة أن تقرأ سيرة هذه السيدة الوفية لدينها، وربها ورسوله، فتأخذ منها العظة والعبرة، فتصبر على ما أصابها، ثقة بما عند الله، وطمعًا في ثوابه، محتسبة أجرها عليه في جميع ما تقوم به من عمل صالح، وجهد مشكور، وكما أن أسماء رضي الله عنها قدوة للنساء، فهي كذلك قدوة للرجال أيضًا، فإنهم إذ يرون أن المرأة قد كان هذا حالها في التمسك بعقيدتها، لا تلين ولا تستكين، ولا تستجيب إلا لضميرها الحي، وقلبها اليقظ، ولا تعدل عن الإيمان بالله قيد شعرة حتى لقيت ربها.

لقد كانت رضي الله عنها قدوة حقيقية من القدوات، فهي امرأة قدوة في الإيمان بالله تعالى،

قدوة في الدعوة إلى الله تعالى، قدوة في الصبر على البلاء في تتابع عدد من المصائب عليها، قدوة في التغرب عن الأهل في سبيل الدين، فقد عاشت رضي الله عنها سنين وهي بعيدة عن أهلها، ومع ذلك استطاعت أن تضحي من أجل هذا الدين العزيز على قلبها.

الوفية لزوجها

في جلسة غمرتها أنوار ربانية، كان محمد ﷺ يتحدث مع أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فكان صوته الصحل يمس أوتار فؤادها، وتلك الحكمة المتدفقة من بين شفتيه تغمر روحها بسعادة عارمة مجنحة، تسمو بها فوق وجودها الملموس، وتعيش في أفق نوراني رائع، في تلك اللحظات جاءت مولاة خديجة وقالت: يا مولاتي: إن حليمة بنت عبد الله بن الحارث السعدية تود الدخول.

ولما سمع رسول الله ﷺ بحليمة السعدية، خفق قلبه الشريف حنانًا، وراحت الذكريات الحبيبة، والحانية الدافئة، تطفو على سطح ذهنه، ذكريات حبيبة إلى نفسه، تذكر بيداء بني سعد، ورضاعته هناك، كانت لحظة مفعمة بالمشاعر الناعمة، لحظة أحيت في مثل لمح البصر أو أسرع، أيام طفولته ﷺ، وأيام نشأته بين ذراعي حليمة، وفي أحضانها.

قامت خديجة لتدخل حليمة رضي الله عنهما، فطالما حدثها عنها، حديثًا يقطر حبًا ورحمة ودفئًا وكرامة، وعندما وقع بصره الشريف عليها، مس سمع خديجة صوته اللطيف، وهو ينادي في لهفة وحنان أمي، أمي.

نظرت خديجة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ فألفته قد فرش لها رداءه، ومر يده عليها في حنان دافق، وقد ترقرقت في وجهه الشريف سعادة عارمة لا توصف، وتألق في عينيه فرح فياض، لكأنما كان يحتوي في أحضانه أمه آمنة بنت وهب، وقد بعثت من مرقدها.

وفي غمرة هذا اللقاء الحار بين رسول الله ﷺ وحليمة رضي الله عنها، سألها عن حالها، فراحت تشكو إليه قسوة الحياة، والجدب الذي ضرب بادية بني سعد، ثم ضيق العيش، ومرارة الفقر، فأفاض ﷺ عليها من كرمه.

وبعد ذلك حدث النبي ﷺ الوفية خديجة بنت خويلد في تأثر واضح بما ألم مرضعته حليمة من ضيق، وما حاق بها، وبقومها من كرب، فتدفقت كنوز فؤاد خديجة بالعطف والرحمة، وأعطتها عن طيب خاطر، أربعين رأسًا من الغنم، كما وهبتها بعيرًا يحمل الماء، وزودتها بما تحتاجه في رجوعها إلى باديتها، هدية من العروس الطاهرة لمرضعة زوجها الحبيب.

وكيف لا تكرمها العروس، وقد رأت زوجها العظيم يرحب بها حين وفدت إليه، ويقول: أمي، أمي، وبسط لها رداءه، فقعدت عليه، وهز ذلك العطف أحاسيس السيدة خديجة رضي الله عنها فذرفت عيناها الدموع، وأجزلت العطاء لأم الحبيب من الرضاع.

فقد كانت خديجة رضي الله عنها متأهبة على الدوام لتجود بكل أموالها، إرضاءً لزوجها محمد ﷺ، فشكر لها أريحيتها، ثم انطلق ليضع بين يدي مرضعته ما جادت به خديجة.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هكذا كان هذا البيت المبارك قائمًا على المودة والرحمة والحب، فلم تكن خديجة رضي الله عنها تدخر جهدًا في أن تدخل السعادة والسرور على قلب الحبيب ﷺ، فقد كانت رضي الله عنها زوجة مثالية علمت كيف تدخل السعادة على قلب زوجها ﷺ، وقلب من يحب زوجها أيضًا، وكانت رضي الله عنها تضحي بكل ما تملك من أجل إسعاد زوجها.

يا أيتها الأخوات الكريمات، من الوفاء المحمود أن يذكر الإنسان ماضيه الذاهب، لينتفع به في

حاضره ومستقبله، فإن كان معسرًا فأعانه الله، أو مريضًا فشفاه الله، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه بسوء غليظ، ثم يزعم أنه ما كان فقيرًا ولا مريضًا، ويبنى على غروره بحاضره مسلكًا، كله فظاظة وجحود.

ما يبكيك يا أم أيمن

أخذ الحبيب ﷺ يجهز جيشً كبيرًا لردع الروم، لإعادة الثقة إلى قلوب المسلمين الضاربين على حدود دولة الروم، وجعل أسامة بن زيد رضي الله عنهما أميرًا على هذا الجيش، وانتدب رسول الله الناس مع أسامة، وخرج الجيش حتى نزل منطقة الجرف على بعاد فرسخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث في التحرك، حتى يعرفوا ما يقَضي الله به على رسوله.

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: لما ثقل رسول الله هبطت الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ، وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبها عليَّ، فعرفت أنه يدعو لي، وما هي إلا ساعات حتى فاضت روح الحبيب ﷺ إلى ربه عز وجل، ومات رسول الله، فأظلمت المدينة بموته، وكادت قلوب أصحابه أن تتمزق حزنًا عليه ﷺ.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا.

ووقفت أم أيمن رضي الله عنها ودموعها على خدها، وشريط الذكريات يمر أمام عينيها منذ أن كان الحبيب المصطفي ﷺ طفلًا صغيرًا، ثم أصبح شابًا، ثم نبيًا لخير أمة، وها هي الآن تودعه الوداع الأخير، يا لها من لحظات تجعل القلوب تبكي الدماء بدل الدموع.

إن أشد الناس مصابًا في هذا الكون هم أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه، ورأوا صدقه وأمانته، وتعلموا الخير كله بين يديه، وتعلقت قلوبهم به، حتى نسوا أن النبي سيموت يومًا ما، وإذا بهم يذهبون ليدفنوا النبي ﷺ بأيديهم، إنها أصعب لحظة تمر على الناس في تاريخ الإنسانية كلها.

مات رسول الله ﷺ، ووقفت أم أيمن رضي الله عنها، والحزن يملأ قلبها، والدموع تفيض من عينيها، فجاشت عاطفتها البريئة، ورثته بقصيدة جميلة منها:

عين جودي فإن بذلك للدمع شفاء فأكثري من البكاء حين قالوا الرسول أمسي فقيدًا ميتًا كان ذاك كل البلاء وابكيا خير من رزئنا في الدنيا ومن خصه بوحي السماء بدموع غزيرة منك حتى يقضي الله فيك خير القضاء فلقد كان ما علمت وصول ولقد جاء رحمة بالضياء ولقد كان بعد ذلك نورًا وسراجًا يضيء في الظلماء طيب العود والضريبة والمعدن والختم خاتم الأنبياء

ومن المثير والممتع أن تنطلق أم أيمن بالشعر والحكمة وهي عثراء اللسان، ولكن هذا لم يؤثر على عقلها وقلبها وحكمتها، وفي هذا دليل على العلم النبوي، الذي تأثرت به من رسول الله ﷺ، ومما يدل على علمها وفضلها وعقلها الوافر، ما أخرجه الإمام مسلم عند أنس بن مالك رضي الله عنه فقد قال: قال: أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقد جال في صدرها أمر لم يخطر ببال أحد فبكت.

فقالا لها: ما يبكيك يا أم أيمن؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ. فقالت: ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.

ألم أقلكم إن لها إحساسًا إيمانيًا فريدًا، وشعور إسلاميًا وحيدًا.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، نقف هنا قليلًا عند بعض المعاني التي يحسن أن نستشعرها ونتأسى بها في وفاة رسول الله ﷺ، حادث الوفاة نفسها، وأثره الوجداني والشعوري على نفوس المسلمين، وأن يغيب عن الدنيا أكمل إنسان فيها، وأعظم إنسان فيها، وما فقدته البشرية ورزئت به من غياب شخصه صلوات ربي وسلامه عليه عنها هو أمر جلل لا يعدله مصيبة، لقد غاب عن هذه الأرض سيد ولد آدم، أعظم القادة، وأعظم المربين، وأعظم الدعاة، وأعظم الأخلاقيين، وأعظم الحكام، وأعظم العلماء، وأعظم المفكرين، وأعظم المشرعين، وأعظم البشر.

لقد كانت هذه السنوات القليلة في تاريخ البشرية هي أعظم سنواتها، وأبرك حياتها، ويكون أعظم جيل في هذا الوجود، وهو هذا الجيل الفريد من الرجال والنساء، خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ولابد أن يستشعر المسلم دائمًا وأبدًا هذا المعنى، وأن مصابه بالنبي ﷺ لا يعدله مصاب، وبذلك تبقى جذوة الحب متقدة، وشمعة الإيمان متقدة، ولذة الإيمان وحلاوته تعطر وجوده وحياته، فيبقي قلب المؤمن بهذا المدد العاطفي كما وصف الله تعالى قلوب المخلصين من عباده فيه مثل السراج يزهر.

روائع من كرم وبذل الصحابيات

أم المساكين

إن الإنسان الذي يحب الخير لأخيه المسلم، ويطيب نفسًا ببذل المال عند الحاجة، ويبذل الروح عند الضرورة، يضحي بمصلحته الخاصة في سبيل في الله، وفي سبيل دينه، ويرضى بالتقشف والشظف والحرمان، إذا كان فيه انتصار لحق أو خير، بل يستمرئ المر، ويستعذب العذاب، ويرحب بالموت في سبيل ما يؤمن به من الهدى والحق، فليت شعري أين يوجد هذا الإنسان في عالم البشر ومن أي مدرسة يتخرج؟!!.

لعمري أن المدرسة الفذة التي تخرج هذا الصنف من البشر هي مدرسة الإيمان، فالإيمان هو الذي يهوّن على الإنسان شهواته، ومطالب دنياه، فإذا هو يكتفي بما يسد الجوع من الطعام، وما يستر العورة من اللباس، وإذا هو يرضى بالقليل من المال، فإذا هو متواضع في المسكن، بل يهون على الإنسان ماله فينفقه، ومسكنه فيهجره، وأهله فيرحل عنهم، بل يهون عليه حياته نفسها.

إن كل جهد مادي أو أدبي أو نفسي يبذله المؤمن في سبيل الله مهما يبلغ من ضآلة حجمه فهو محسوب له في رصيد حسناته عند الله عز وجل، ولا يضيع منه مثقال ذرة حتى الخطوة التي تمشيها قدمه، وحتى القليل الذي ينفقه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو العتب.

فلا عجب أن نرى دينًا كالإسلام يقدم لنا في مرحلة قوته وازدهاره نماذج رائعة للتضحية والبذل، والكفاح، والجهاد، وبأعداد هائلة لا يتخلف بذلك النساء عن الرجال، تقدم ما تملك من نفس، ومال في سبيل الله، وهي قريرة العين.

وها نحن نحلَق في سماء تلكم الزهرة النقية التقية التي لم تكن أمًا للمساكين فحسب، بل كانت أمًا للمؤمنين، إنها الكريمة التي حبَب إليها الجود والإنفاق، فكانت لا يأتيها درهم ولا دينًار إلا أنفقته على الفقراء والمساكين، حتى لقبت بأم المساكين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

لقد أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة، وجاء رسول الله ﷺ بهذا الدين العظيم، كانت أم المساكين من السابقات إلى الدخول في الإسلام، وعاشت رضي الله عنها في رحاب الإسلام من مهده، ورأت كيف كان المسلمون يضحون بكل شيء من أجل أن يظفروا بنعمة التوحيد، فازدادت ثباتًا، واستمساكًا بدينها، فكانت صائمة قائمة عابدة لله، لا تفتر لحظة عن ذكر الله، ولا عن الإنفاق على الفقراء والمساكين.

ولما استشهد زوجها عبد الله بن جحش في غزوة أحد، ما كان منها إلا أن احتسبته عند الله، ورضيت بقضاء الله عز وجل، فهي صاحبة القلب الذي امتلأ إيمانًا وتوكلًا ويقينً وثقة في الله عز وجل، لقد كانت تشعر في قرارة نفسها بأن الله سيعوضها خيرًا وسيرزقها زوجًا هو خير من زوجها الأول، ولكن يا ترى من هو هذا الزوج الكريم؟.

إنها لم يخطر ببالها لحظة واحدة، أنها ستكون زوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ، ولكن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، فما إن أنقضت عدتها، إذا برسول الله ﷺ يتقدم لخطبتها، وإذا بها تتساءل مع نفسها: يا ترى من الرجل الذي يتولى أمر زواجي؟، وما هي إلا لحظات حتى قالت في نفسها: وهل هناك خيرٌ من رسول الله ﷺ، فجعلت أمرها إليه، فالرسول ﷺ هو خير من يتولى أمرها ويرعى شأنها، ولقد أصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم، وبني لها حجرة متواضعة، بجوار حجرة عائشة وحفصة رضي الله عنهما ، وهكذا أصبحت زينب رضي الله عنها

أمًا للمؤمنين، وزوجة لسيد الأولين والآخرين.

ولقد كانت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها رحيمة بالمساكين حتى قبل البعثة فلما أسلمت ازدادت رحمة ورأفة بهم، ولما أصبحت زوجة لسيد المرسلين محمد صلوات ربي وسلامه عليه ازدادت رأفة ورحمة بالمساكين، بل كانت ترى إحسانه وعطفه على فقراء المؤمنين، وكانت تسمع النبي ﷺ وهو يحض المسلمين على الإنفاق على الفقراء والمساكين، ويرتفع بقلوبهم وأرواحهم إلى درجة الإيثار، فكانت تسمع هذا الكلام عن الإنفاق من النبي ﷺ فتسمو نفسها، ويتطلع قلبها إلى النعيم الدائم في جنة الرحمن، التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فكانت رضي الله عنها لا تدخر درهمًا ولا دينارًا، فهي التي كانت تسمى في الجاهلية أم المساكين، فكيف بحالها وقد أصبحت أمًا للمؤمنين.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، أن أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني، لكن أعظم أعماره عمره الإيماني المفعم بالأعمال الصالحة، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، العمل الصالح الذي لا علاقة له بمصلحتك، ولا ببيتك، ولا بكسب مالك، ولا بمكانتك، هناك من يعمل عملًا خالصًا، لا يبتغي سمعة، ولا جاهًا، ولا مكانة، ولا خبرًا ينشر، فهذا هو الإخلاص، والإخلاص شيء عظيم، أعمال قليلة مع الإخلاص، أعظم من أعمال كثيرة من دون إخلاص، لقد أقامت عند النبي ﷺ ثمانية أشهر وتوفيت.

أنا أتمنى على كل إنسان أن يسأل هذا السؤال لنفسه: ماذا قدمت للآخرة؟ أما أكلنا، وشربنًا، وسكنًا، وتزوجنًا، وأنجبنا، وعملنًا، وكسبنا الأموال، ثم غادرنا الدنيا، فهذا شأن الناس كلهم، هذا شأن الناس جميعًا في كل بقاع الأرض، أما ماذا قدمت، هل تركت علمًا؟ هل تركت مشروعًا خيريًا؟ هل لك بصمات في الحياة الإسلامية؟ هل دعوت إلى الله؟ هل لك عمل طيب؟ هل لك حرفة أتقنتها، ونفعت بها المسلمين؟ هل ربيت أولادًا تربية صالحة؟ هل ربيت بناتك تربية إيمانية إسلامية؟ هل لك زوجة أخذت بيدها إلى الله عز وجل؟ ماذا فعلت؟ هذا السؤال يجب ألا يغيب عن أذهاننا جميعًا: ماذا قدمت للآخرة؟.

العابدة المتصدقة

قد يسبق الظن إلى أن السخاء ينقص الثروة، ويقرب من الفقر، ويسلب الإنسان نعمة الطمأنينةَ في ظل ماله الممدود، وخيره المشهود، والحق أن الكرم طريق السعةَ، وأن السخاء سبب الماء، وأن الذي يجعل يديه ممرًا لعطاء الله يظل مبسوط اليد بالنعمة، مكفول اليوم والغد بالغدق الدائم من رحمة الله وكرمه. وهكذا عرف الصحابة رضي الله عنهم هذا الأمر فكانوا يتسابقون إلى البذل والعطاء، لا فرق بين الرجال والنساء، وهذه قصة امرأة كانت ثملة بحب الجود والعطاء والبذل، إنها أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

كانت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها امرأة تحب الصدقة حبًا جمًا، وكانت تدبغ الجلود، وتخرز وتبيع ما تصنعه، وتتصدق بذلك كله في سبيل الله عز وجل، ولم تكن تحفل بالمال، أو بشيء من زخرف الدنيا، وكان بيتها رضي الله عنها ملجأ لليتامى والمساكين تأسو جراحهم، وتجبر كسرهمَ، تلبي حاجاتهم، لا تدخر في سبيل إسعادهم وسعًا، تجد في ذلك قربة لله تعالى، وذخرًا ليوم لا ينفع فيه مالٌ ولو بلغ عنان السماء.

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يبعث لأمهات المؤمنين بالعطاء، وكان عطاء زينب رضي الله عنها اثني عشر ألفًا درهمًا لم تأخذه إلا عامًا واحدًا، لنستمع من بررة بنت رافع رضي الله عنها تحدثنا عن هذا الموقف فتقول: لما خرج العطاء، بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى زينب بنت جحش بعطائها، فأتيت به، ونحن عندها فقالت: ما هذا؟

قالت: أرسل به عمر إليك يا أم المؤمنين. قالت: غفر الله لعمر، والله لغيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني. قالوا: يا أم المؤمنين، هذا كله لك. قالت: سبحان الله، فجعلت تستر بينها وبينه بجلبابها. ثم قالت: صبوه، واطرحوا عليه ثوبًا، فصبوه، وطرحوا عليه. وقالت لي: يا بررة، أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة، فاذهبي إلى آل فلان، وآل فلان، من أهل رحمها، وأيتامها، فقسمته حتى بقيت منه بقية. فقالت لها: غفر الله لك يا أم المؤمنين!!، والله لقد كان لنا من هذا حظٌ. قالت لي: يا بررة لكم ما تحت الثوب، فرفعنا الثوب، فوجدناه خمسة وثمانين درهمًا. ثم رفعت يدها وقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا أبدًا. - فماتت -.

فبلغ أمير المؤمنين عمر ما فعلت، فقال: هذه امرأة يراد بها خيرٌ، فوقف على بابها، وأرسل بالسلام إليها، وقال: قد بلغني ما فرقت يا أم المؤمنين، فأرسل إليها بألف درهم تستبقيها، فسلكت بها طريق ذلك المال هذا المسلك.

وظل حب الصدقات ملازمًا لأم المؤمنين رضي الله عنها طول حياتها لم ينقطع عنها لحظة واحدة، وكأنها كانت تفعل هذا تتهيأ بذلك لبشارة النبي ﷺ لها حين قال: أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا، فكانت هي زينب رضي الله عنها.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن الإنسان بحاجة إلى أن يتعلم من هذا المجتمع النبوي، هذا المستوى العالي الذي بلغه في التربية، فهذا الجيل الفريد منذ سنوات قليل فقط في عهد النبي ﷺ يجهز أعظم جيش، ويمول هذا الجيش الكبير في تبوك، بالتذكير والترغيب فقط، هنا لابد للإنسان أن يراجع نفسه في الواقع العلمي، لا في المد الشعوري والعاطفي حين تطرح المواجهة مع العدو.

إن سيرة زينب بنت جحش رضي الله عنها مليئة بالقيم الخلقية، والمبادئ الحنيفة السمحة، فقد مثَلت الإسلام في أرقى معانيه، وأسمى مظاهره، وأضحت مثلًا لكل مؤمنةَ تحب الله ورسوله، وتحذر الآخرة، وترجو رحمة ربها، فلقد كانت رضي الله عنها سباقة إلى الخير، صنّاعة للمعروف، لا تدخر لنفسها إلا بقدر حاجتها الملحة من الزاد، لهذا أحبها رسول الله ﷺ، فليس هناك صفة أعظم في الكون من الكرم، فالكريم قريب من الله عز وجل، قريب من قلوب الناس، قريب من الجنة.

صاحبة الإيثار

لقد اعتبر الله العطاء الجميل فرضًا حسنًا، لا يرده لصاحبه مثلًا أو مثلين بل يرده أضعافًا مضاعفة، وأغرى العبد بالإنفاق، فكشف له أن نفقته على غيره وسيلة جلَي ليتولّى الله الإغداق عليه من خزائنه التي لا يحلقها نفاد. وفي الحديث: (ثلاثة أقسم عليهن: ما نقصّ مال عبد من صدقةَ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها، إلا زاده الله بها عزًا، ولا فتح عبد باب مسألةَ إلا فتح الله عليه باب فقر). لهذا كانت أمهمات المؤمنين يتسابقون فيما بينهم إلى مسارعة إلى رضا رب العباد، وهذه قصة إحداهن.

لقد كانت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما من خيار المتصدقين، حتى لقد أثر عنها أنها كانت تنفق كل ما تجد على الفقراء والمساكين، ولا تدخر لنفسها ما هي في أشد الحاجة إليه، لقد كان هذا دأبها وديدنها منذ نعومة أظفارها، لأنها ولدت في الإسلام بين أبوين كريمين، فأبوها جاء بماله كله إلى رسول الله ﷺ ولم يبق منه شيئًا، فلما سأله صلوات ربي وسلامه عليه: ماذا تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله.

وكانت أم رومان رضي الله عنها ترضى بذلك وتعينه عليه، فورثت عائشة رضي الله عنها منهما هذا السخاء، فكانت من أسخي النساء في عصرها، فلما تزوجها رسول الله ﷺ سيد الزاهدين بلغت عنده درجة الكمال في الزهد، لأنها كانت ترى الزهد في حياة النبي الكريم ﷺ في كل لحظة، ورأت بعينيها كيف ترك رسول الله ﷺ زهرة الحياة الدنيا، واختار ما عند الله جل وعلا.

فلما تعايشت بقلبها وجوارحها مع زهد أبيها رضي الله عنه، وزهد زوجها الحبيب ﷺ، كانت حياتها صفحة ناصعة من الزهد في متاع الدنيا وزينتها، وأصبح قلبها لا يتطلع إلا رضوان الله وجنته.

فعن أم ذرة رضي الله عنها - وكانت تغشى أم المؤمنين رضي الله عنها - قالت: بعث إليها أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (وقيل عبد الله بن الزبير بن العوام) بمال في غرارتين، قالت: أراه ثمانين أو مائة ألف، فدعت بطبق يومئذ وهي صائمة، فجلست تقسم بين الناس، فأمست وما عنده من ذلك المال درهم، فلما أمست قالت: يا جارية هلمي فطوري فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم ذرة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا لحمًا بدرهم نفطر عليه يا أم المؤمنين، قالت: لا تعنفيني، لو كنت ذكرتيني لفعلت.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، إذا كان الزهد أن تكون أوثق بما في يد الله منك بما في يدك، فلقد كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مثالًا فذًا في هذه المسألة، فتراها توزع الآلاف من الدراهم في يوم واحد، ثم هي لا تتذكر أن تبقي من هذه الألوف درهمًا تشتري به لحمًا لفطرها، وهي صائمة.

فسبحان الله أي مستوى في التربية والزهد في الدنيا، والثقة بما عند الله عز وجل كان عند السيدة عائشة رضي الله عنها، كان شعورها، وأي شعور بآلام الفقراء، وضعف الضعفاء، وأي تقدير لزخارف الدنيا وبهرجها وزينتها كان تقديرها؟، وأين نجد مثالًا في تاريخ الأمم السابقة أو اللاحقة يقترب منها أو يدانيها؟ وأي مقياس للعظمة في دنيا النساء، إذا لم تكن هذه السيدة، وأخواتها المؤمنات من نساء النبي ﷺ هن مقياس العظمة، ونبراس النساء وقدوتهن، والله لقد

خابت وخسرت كل مسلمة، لا تتخذ نساء النبي ﷺ قدوة ونبراسًا.

إن كل ما يتعلق البشر به من حطام الدنيا، سوف يدعونه لوارث السموات والأرض، وسينقلبون إلى ربهم عراة، لا مال ولاجاه كما خلقوا أول مرة، وسيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، فلا غرور إذ نقم الملأ الأعلى على من ينسى هذه الحقائق، وينطلق في ربوع الأرض، لا هم له إلا جمع ما يضره، ونسيان ما يفيده.

روائع من إيمان الصحابيات

هكذا يكون الإيمان

الدعوة تغيير شامل للحياة، وصناعة ربانية للأفراد والجماعات، إنها لا تترك شخصًا لهواه، ولا تدع لأحد أن يفسد في الأرض، وتعمل على هزيمة إبليس وبنيه، وتزيل وساوسهم، وغواياتهم من القلوب والعقول، لهذا كان الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم يتسابقون إلى الدعوة إلى المنهج القويم، لا يختلف في ذلك بين رجل وامرأة، فتعالوا بنا لنرى كيف ساهمت أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها في إسلام أبيه زعيم مكة المطاع أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه.

جاء زعيم مكة صخر بن حرب أبا سفيان إلى المدينة، ليطالب بتجديد صلح الحديبية، وزيادة مدة الهدنة، كي يخفي آثار تواطؤ قريش مع بني بكر حلفائهم، ويبرئ قريش من الظنة أنها ساهمت في الحرب على خزاعة، لكن النبي ﷺ رفض مقابلته، فذهب إلى للقاء ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها.

وكان هذا اللقاء الأول له مع ابنته أم حبيبة رضي الله عنها، والتي مرَ على بعده عنها قرابة خمسة عشر عامًا منذ أن هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، وبقيت هناك صابرة محتسبة بعد ارتداد زوجها وقرة عينها عن الإسلام، حتى جاءتها سعادة الدنيا والآخرة بخطبة رسول الله ﷺ لها، وكان وكيل رسول الله ﷺ النجاشي ملك الحبشة الذي سلم المهر لابن عمها خالد بن سعيد رضي الله عنه، وأولم للمسلمين هناك.

ثم جاءت إلى المدينة حيث وصلت والمسلمون في خيبر، وها هي تعيش أمًا للمؤمنين بجوار رسول الله ﷺ قرابة سنة ونصف، وهذا أول لقاء لها مع أهلها ومع أبيها أبو سفيان بعد هذا الزمن الطويل، ولقد جاء أبو سفيان إلى بيت ابنته، ولعل مصاهرته لرسول الله ﷺ تشفع له في تحقيق المهمة التي جاء من أجلها، واستقبلت أباها بترحاب وود عظيمين، وهشت له وبشت، فهو أبوها الذي أمرها الإسلام ببرَه، ولو كان مشركًا.

وجاء ليجلس إلى الفراش الذي لا يوجد غيره في غرفتها، فأسرعت ورفعته، وانتظر فراشًا آخر يوضع له يتناسب ومقامه، فلم تضع له شيئًا، وعلى كل عقله الكبير لم يدرك لم فعلت ذلك، فسألها في لهفة مشوبة باستنكار: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فجاء الجواب كوقع الصاعقة على رأسه: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ نجس مشرك، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ.

وإذا كان تلقى هذا الجواب في أهون أمر وأصغره، فكيف يمكن أن يصل منها إلى سر من أسرار الإسلام السياسية أو العسكرية، ولعلها أكبر طعنة وجهت إليه في حياته من أقرب الناس إليه، واستحضر أبا سفيان كل حلمه حتى ضبط أعصابه التي كادت تنفجر، وقال لها: بتصنع واضح: يا بنية، لقد أصابك بعدي شر.

فقالت بقوة الواثق الحكيم: بل هداني الله للإسلام، ثم تحولت من الابنة المسلمة إلى الابنة الداعية، فكم هو حلم لا يقاربه حلم أن يدخل أبوها الإسلام، ويذوق حلاوته كما ذاقتها، وهو سيد وزعيم قريش الأول، ثم تابعت حديثها، يا أبت أنت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأن تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنك من الله شيء، نعم إنها الحجة التي يسوقها القرآن دائمًا ضد هؤلاء الذين تحجرت عقولهم كهذه الأحجار التي يعبدونها، رغم ذلك أجابها الإجابة التقليدية بعد أن كان لا يزال يلعق آثار جرحه الغائر: يا

عجباه وهذا منك أيضا؟!. أأترك ما يعبد آبائي، وأتبع دين محمدٌ يا بنية؟

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، نعم لقد غدت أم حبيبة رضي الله عنها إنسانًا آخر بعده ولا شك، فلقد غدت صياغة جديدة بهذا الدين العظيم، ولم تكتف بذلك، فهي لا تريد إيذاءه وهي تحبه، وتحرص على بره ومرضاته، لكن هذا الحرص وهذا الحب يدفعها إلى أن تختار له ما اختارته لنفسها من خير، وكذا يكون المؤمنين واثق بالله. والله ما هو بشر إنه الخير كل الخير أن تثبت المرأة على دينها كل هذا الثبات، وأن تتبرأ من الشرك وأهله، وإن كانوا أهلها، وذوى رحمها، بل أمس الناس بها صلة وهو أبوها.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد علم أبا سفيان رضي الله عنه أنه يطرق بابًا من حديد في محاولة الوصول إلى كلمة واحدة مع ابنته التي من صلبه، فقد غدت أم حبيبة رضي الله عنها ابنة الإسلام وحده، وزوج رسول الله ﷺ، وتخطط كي تقوده إلى الإسلام، فأي جدوى من وراء استدراجها لأخذ أسرار بيت النبوة، إن لم يستطع أن يمس فراش رسول الله ﷺ لأنه مشرك نجس، فكيف يمكن أن سرَا من أسرار هذا البيت، وأسرار هذه الدولة؟.

وإذا كان يفكر بغزوها في أعماقها ودغدغة عواطفها الأبوية واستدراجها، فهي تخطط كذلك لتغزوه في أعماقه، وتدخله في حظيرة الإسلام، وتعيد صياغته من جديد، وأنه لا لقاء إلا بالإسلام، فما له وهذه المتاهة؟!.

موقف لا ينسي

لأم أيوب رضي الله عنها موقف لا ينسى، وشهادة عطرة لا يزال أريجها يفوح على مر الزمن، إلا هو موقف أم أيوب رضي الله عنها في حديث الإفك الذي تولى كبره المنافقون والمرجفون، فقد كان لأم أيوب كلمات مباركات في امتداح أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، تكتب بماء الذهب. لنترك الآن الحديث لأبي أيوب رضي الله عنه ليروى لن هذا الموقف.

لما تكلم الناس من المنافقين، والمخدوعين بهم وبإعلامهم، وبهتانهم في عرض أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، كانت أم أيوب رضي الله عنها من المسلمات الصادقات المعترفات بفضل عائشة رضي الله عنها. فعن خالد بن زيد الأنصاري - أبو أيوب - أنه قال لأم أيوب رضي الله عنهما: ألا ترين ما يقال في عائشة يا أم أيوب.

فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لمحرم رسول الله ﷺ يا أبا أيوب؟ فقال: لا والله ما كنت فاعله. قالت: فصفوان خير منك، فهو والله لا يفعل. فقال أبو أيوب: يا أم أيوب لو كنت مكان عائشة، أكنت فاعلة هذا الكذب. فقالت: لا والله ما كنت فاعلة هذا الأمر. فقال: فوالله عائشة خير منك.

ثم قال أبو أيوب: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، فسبحانك ربي هذا بهتان عظيم، فأنزل الله عز وجل: {وَلَولَا إِذ سَمِعتموه قلتم مَّا يَكون لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سبحَانَكَ هَذَا بهتَانٌ عَظِيمٌ} (النور: ١٦).

عبرة

نرى من هذا الموقف أن أم أيوب وزوجها رضي الله عنهما، قد أحسنا الظن بالسيدة عائشة رضي الله عنها، وتأدبا بما ينبغي على المؤمنين والمؤمنات أن يتأدبوا به، وتشير هذه الحادثة إلى إيمان أم أيوب العميق، وتشير كذلك إلى سعة عقلها وسلامة تفكيرها رضي الله عنها.

من حقوق الأخوة بين المؤمنين في المجتمع الإسلامي أن يحسن كل مؤمن الظن بأخيه، وأن يضع نفسه مكان أخيه عندما يشاع منه ما يسيئه، وهذا ما حدث من أم أيوب وزوجها، فعندما أشيع عن السيدة عائشة رضي الله عنها ما أشيع من افتراء وكذب قالوا هذا بهتان عظيمٌ، واليوم نرى في المجتمع الإسلامي من يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

أجيبوا طلب رسول الله

في ذات يوم قال رسول الله ﷺ لجليبيب: ألا تتزوج يا جليبيب؟ فقال: ومن يزوجني يا رسول الله؟، فإنا شاب فقير لا نفقة عندي ولا صداق. فقال رسول الله: أنا أطلب لك الزوجة الصالحة، والله تعالى يغنيكما من فضله. فقال رسول الله لرجل من الأنصار: يا فلان زوجني ابنتك فلانة. فاستطار الرجل فرحًا بما سمع وقال: نعم يا رسول الله، ونعمة عين زوج رسول الله، وأكرم بك يا رسول الله من صهر. فقال رسول الله: إني لست أريدها لنفسي. قال الرجل: لمن تريدها يا رسول الله؟ قال رسول الله: لجليبيب.

فقال الرجل: أناظرني، يا رسول الله، حتى أستشير أمها، فأنا لا أريد أن أقطع في أمر كهذا دونها. فمضى الرجل إلى بيته كاسف البال حزين النفس، فقد كان يعلم بأن زوجته لا ترضى بفتى مثل جليبيب زوجًا لبنتها، وكان في نفس الوقت لا تطيب نفسه بأن يرد طلب لرسول الله، مهما كان مطلبه عزيزًا.

فلما بلغ البيت، نادي زوجته وقال: يا أم فلانة، فأقبلت عليه. فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. فقالت: ابنتي، رسول الله ﷺ يريد ابنتي يا لسعدها، نعم نزوج رسول الله ﷺ، وهل فوق ذلك الشرف من شرف؟ فقاطعها الرجل وقال: ولكنه لا يريدها لنفسه. فقالت: فلمن يريدها إذن؟

قال الرجل: لجليبيب. فقالت: لجليبيب؟ لا، ورب الكعبة، لا أزوجها من جليبيب. فقال الرجل: ماذا أقول لرسول الله ﷺ؟ فقالت: قل له ما تشاء، تقدم له ما يحضرك من عذر، فما أنا بالتي ترضى جليبيبًا زوجًا لبنتها ولا صهرًا لها.

حاول الرجل أن يسترضي امرأته ويستلينها حتى لا يرفض طلب رسول الله، والزوجة تشتد على زوجها، وتصر على الرفض، فلما يئس الرجل من إقناعها، وهم بالمضي إلى رسول الله ﷺ لإبلاغه القرار.

بادرت إليهما ابنتهما، وكانت قد سمعت بعض الحديث الذي بينهما، وقالت من خطبني منكم؟ فقالت الأم: خطبك النبي ﷺ لجليبيب، وقد رفضت أن أزوجك منه. فقالت الفتاة: ويحكم، أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ والله ما أنا بالتي ترفض طلب لرسول الله، أجيبوا طلب رسول الله ﷺ، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أعطوني لجليبيب، وثقوا بأن الله لن يضيعني أبدًا، فسكتت الأم على مضض.

ومضى الرجل إلى رسول الله وقال: أنت وما تريد يا رسول الله، زوج ابنتنا من جليبيب. فانبسطت أسارير رسول الله ﷺ، ودعا للبنت وقال: اللهم صب عليها الخير صبًا صبًا، ولا تجعل عيشها كدًا كدًا. وزوجها من جليبيب.

عبرة

لقد طلب رسول الله ﷺ الفتاة التي يريد جليبيب زواجها، فأرسل النبي ﷺ إلى والديها يعرض عليهما هذه الرغبة، وكأنهما لم يرغبا في ذلك، لدمامته وفقره كما ذكرنا، لكن الفتاة كانت مؤمنة فاضلة عاقلة، فساءها موقف أبويها ورغبت في الزواج منه، وتلت عليهما قول رب العزة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وهكذا يجب أن يكون المسلم.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن غايتنا تتحقق بمجرد السعي، ودون ارتباط بنتيجة تقع، أو هدف يتحقق طالما كان العمل خالصًا صوابًا، أي أن هذه الغاية تتحقق بمجرد السعي لها، دون ارتباط لذلك بتحقيق أي أهداف ظاهرة في الدنيا، فيكفى العامل لهذه الغاية أن يكون عمله خالصًا لله، ويبغى به رضاه سبحانه وحده، وأن يكون هذا العمل موافقًا للشرع، ومحددًا بحدوده، وإن لم يتحقق منه، أو يكون له أثر ونتيجة.

أكرم مهرًا

إن من سنن الله سبحانه وتعالى في الكون أن لا شيء فيه يستطيع أن يؤدي مهمته وحده، بل خلقه الله محتاجًا للاتصال بغيره من نوعه، ليكمل به ويكمّله، قال عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ (الذاريات: ٤٩). وإذا كان الفرد هو اللبنة الأساسية للأمّة، فإن البيت المسلم - الأسرة الصالحة - وهو الخلية الأولى للمجتمع الصالح، وهذه الخلية لا تتكون إلا من زواج، هذا وقد أودع الله سبحانه وتعالى في كل من الرجل والمرأة حاجة منهما للآخر، فلا يستقرا حتى يسكنا إلى بعضهما البعض. ولقد عرف الجيل الرباني هذا الأمر جيدًا، فكان اختيار من أجل الدين وبالدين، وبذلك كان المجتمع صالح، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد.

أسلمت الرميصاء بنت ملحان - أم سليم - رضي الله عنها ورسول الله ﷺ بمكة، وبايعته حين مقدمه المدينة، وكان إسلامها مراغمةً لزوجها مالك بن النضر والد أنس الذي كان غائبًا وقتذاك، ولما عاد عرف بأسلم زوجته، قال لها: أصبوت؟، فقالت: ما صبوت، ولكني آمنت، وكانت تلقن أنسًا وتقوله له: قل لا إله إلا الله، فجعل أنس ينطق بذلك فكان هذا التصرف من أم سليم يثير الغضب في نفس مالك فيقول لها: لا تفسدي علي ابني، فتقول: إني لا أفسده، بل أريد له الخير، ولما أيأسه أمرها خرج عنها إلى بلاد الشام فلقيه عدو له فقتله.

شاع في المدينة خبر ترمل الرميصاء بنت ملحان رضي الله عنها، حتى تشوق كثير من الرجال إلى الاقتران بها، بما تتحلي به من رجاحة العقل، وبعد النظر، لولا أنهم كانوا يخشون أن تردهم بسبب الاختلاف في الدين، غير أن زيد بن سهل - أبو طلحة - أطمعه في رضاها به ما كان بينهما من روابط القربى، فكلاهما من بني النجار، فمضي أبو طلحة إلى دار أم سليم وخاطبها قائلًا: يا أم سليم، لقد جئتك خاطبًا، فأرجو ألا أرد خائبًا.

فقالت أم سليم له: والله ما مثلك يرد يا أبا طلحة، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، ولما عاودها مرة أخرى تفرست في وجهه، وتوسمت فيه الخير، فقالت: إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركًا، أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان من الشجر، ولو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت، هل تنفعك هذه الآلهة؟.

فقال لها باستغراب: ماذا دهاك يا رميصاء؟ أين أنت من الذهب والفضة؟ قالت في ثقة ويقين: لا أريد صفراء، ولا بيضاء، إن تسلم فذاك مهري، ولا أريد منك صداقًا غير الإسلام. فقال لها: دعيني حتى أنظر في أمري ثم مضي.

فانصرف أبو طلحة ووقع في قلبه كلامها، ولما كان الغد عاد إليها، وقال: لقد وقع الكلام في قلبي، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فقالت: أما وإنك قد أسلمت، فقد راضيتك زوجًا، فكان الناس يقولون: ما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم، إذ كان مهرها الإسلام.

ثم قالت لأبنها أنس بن مالك: يا أنس قم، فانطلق مع عمك إلى رسول الله ﷺ. فقال أنس: يا رسول الله هذا أبو طلحة بين عينيه عزة الإسلام، فسلم على رسول الله، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، المرأة الصالحة حسنة من حسنَات الدنيا، لزوجها ولأبويها وسائر أهلها، يجدون فيها مثلهم الأعلى في الخلق الفاضل، وحسن العشرة، وإسعاد من حولها بالنظر إليها، وتتبع آثارها الحميدة، وأحوالها مع الله تبارك وتعالى، إذا تعرض واحد منهم إلى ما يحتاج فيه إلى التأسَي والتصبر، وصلاح المرأة في صلاح دينها، ورجاحة عقلها، وغزارة علمها وسداد رأيها، وحسن تصرفها في الأمور التي تعرض لها، إلى غير ذلك مما يحسب لها، وتحمد عليه.

الإيمان وأثره في القلوب

أسلمَت هند بنت عتبةَ رضي الله عنها عامَ الفتح، بعدَ عشرين عامًا مِن عَداوة مشتعلة، ومِن تآمر، ومِن هِجاءٍ، ومِن حِقدٍ، ومِن بغضٍ لا حدود له لِرَسول الله ﷺ، أسلمَت بَعد إسلام زوجِها أبي سفيان رضي الله عنه هذه المرأة التي كانت مِن أشدِّ النِّساء عَدَاوَةً لِرَسول الله ﷺ، وهي التي حرضت قريش لثبت في مواجهة المسلمين يوم أحد، وليسَ في تاريخ المسلمين امرأةٌ أشدّ عَداوةً للنبي ﷺ مِن هذه المرأة، هي بنا نسمع القصة كما ذكرت في كتب السير.

قال عبد الله بن الزبَير: لمَّا كان يوم الفَتح، أسلَمَت هند بنت عتبة، ونِساءٌ معها، فأَتينَ النبي ﷺ، وهو بالأبطَح، فَبايَعنَه، فتكلَّمَت هند، قالَت له: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدِّين الذي اختاره لِنَفسِهِ، لِتَنفعني رحمتكَ، يا محمد، إنَّني امرأة مؤمنة بالله تعالى، مصدِّقةٌ برَسولِهِ، فقال رسول الله: من أنتِ، قالت: أنا هند بنت عتبة، وما عرفَ رسول الله ﷺ مَن هِيَ حتى فرِحَ بها فرحًا شديدًا.

أن فرَح المؤمن بِهداية كافر لا يصوَّر، إنسانٌ ينتقل فجأةً مِن صفّ أعداء الدِّين إلى المؤمنين، فهذا يومًا عظيم.

لذا هذه المرأة الذكِيَّة العاقلة والخطيرة، هي الآن تعلن إسلامها

فقال النبي ﷺ: مرحبًا بِكِ، هذه هي المرأة التي حرضت على قتله أكثر من عشرين عامًا، لا حقد، وصفاء المؤمن لا حدود له، ثم قالت: والله يا رسول الله، ما كان على الأرض أهل خِباءٍ أحبّ إليَّ من أن يذِلّوا مِن خِبائكَ، -أي أتمنَّى أن تذِلّوا، وأن تقهروا- ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خِباءٍ أحبّ إليّ أن يَعِزّوا مِن خبائِكَ.

ما هذه النَّقمة؟ أي لا يوجد على وجه الأرض جماعة، أتمنى إذلالهم، وقهرهم، وقتلهم، وتحطيمهم كَقَومِك، والآن ليس على وجه الأرض جماعة، أتمنى أن يعِزّوا، وأن يرتفعوا مثل قومك.

الآن تقف هند أمام رسول الله، عندما بايَعَ النِّساء آمنةً مطمئنَّةً، وتستوضِحه في أمور البيعة، ولا تخشى إلا الله تعالى، لمَّا فرغ النبي ﷺ مِن بَيعة الرِّجال، بايَعَ النِّساء، واجتمَعَ إليه نساءٌ من نساء قريش فيهنّ هند بنت عتبة كما ذكرنا، فلمَّا دَنَونَ منه لِيبايِعنه، قال رسول الله ﷺ: تبايِعنني على ألاّ تشركن بالله شيئًا.

قالت هند: والله إنَّك تأخذ علينا أمرًا لا تأخذه على الرّجال، فقال ﷺ: ولا تسرِقن، قالت هند: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنَكَ والهنكَ - أي الدّريهمات-، ولا أدري أكان ذلك حِلًا لي أم لا؟.

فقال أبو سفيان - وكان شاهدًا معها-: أما ما أصبتِ فيما مضى، فأنت منه في حِلّ، فاعف عما سلف، عفا الله عنك، -أي سامِحها. فقال ﷺ: ولا تزنين. فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرَّة؟. فقال ﷺ: ولا تقتلن أولادكنّ. فقالت هند: قد ربَّيناهم صِغارًا، وقتلتَهم يومَ بدرٍ كِبارًا، فضَحِكَ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مِن قولها، حتَّى استغربَ! -أي بالغَ في الضَّحك-. فقال ﷺ: ولا تأتين بِبهتانٍ تفترينَه بين أيديكنّ وأرجلكنّ. فقالت: والله إنَّ إتيان البهتانِ لَقَبيح. فقال ﷺ: ولا تعصين في معروف. فقالت: ما جلسنا هذا المجلس، ونحن نريد أن نعصيك في

معروف، -وكلمة لا يَعصينكَ في معروف دقيقة جدًّا -، هل في الأرض كلّها إنسان تتوجَّب طاعته كرسول الله؟.

عبرة

أيتها الأخوات الكريمات، ما ذكرت هذا القصَّة إلا لأبيِّنَ لكم عظمة هذا الدِّين، وإن إنسان ممكن أن يتحول مِن أشدِّ حالات الكراهِيَّة، والحِقد، والعداوةِ، حتَّى الجريمة، إلى أشدِّ حالات الولاء، والحبّ، والتَّقدير، والتَّعظيم، هذا هو الإسلام، الإسلام يجبّ ما قبله، ويهدم ما كان قبله، والمسلم فتَحَ مع الله صفحةً جديدة، لو جئتني بملء السموات والأرض خطايا، غفرتها لك ولا أبالي.

قصَّة هند بنت عتبة، قصَّة مؤثِّرة، تعني أنَّه لا حِقد ولا عداوة مستمرَّة في الإسلام، وحينما يؤمن الإنسان، انتهى كلّ شيءٍ مضى، وطوِيَ مِلَفّه السابق، وفتِحَ له مِلَفٌّ جديد بعد الاصطلاح مع الله تعالى، فإذا كان هناك أشخاص تسببوا في قتل عم النبي ﷺ، وقد عفا الله عنهم، فإذا كان الواحد له ذنبٌ، وجاهليّة، وتاب إلى الله توبةً نصوحًا، يجب أن يتفاءل، وهو أنَّ الله تعالى لن يضَيِّعَه.

لقاء تحت الشجرة

وقفت امرأة مسكينة بالقرب من شجرة، وراحت تفحص وجوه الحاضرين، وقد أرادت أن تختار واحدًا منهم كي تستعين به في قضاء حاجة لها، اتجهت المرأة نحو رجل كان نائمًا في ظل الشجرة وقالت له: إني امرأة مسكينة أعول عددًا من الأبناء، وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كان قد بعث لنَا رجلًا اسمه محمد بن مسلمة بأموال الزكاة، لكنه لم يعطنا شيئًا، وأرجو أن تشفع لنَا، وتحدثه في أمرنا لعله يعطينا ما يخصنا.

فوجئت المرأة بذلك الرجل يصيح بغلامه قائلًا: ادع لي محمد بن مسلمة، قل له: يحْضر حالًا إلى هنا، قالت المرأة بصوت يغلب عليه الرجاء: هل سيحضر الرجل إلى هنا بنفسه؟!

أليس من الأفضل أن تنهض، وتذهب معي إليه؟

قال لها: سيأتي حالًا، ويقضي حاجتك بإذن اللَه.

جلست المرأة حزينة تنتظر إقبال محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وبعد قليل أقبل محمد بن مسلمة عند الشجرة، وقال للرجل الجالس في ظلها: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، فأدركت المرأة أنها كانت تتحدث إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستحيت وشعرت بالخجل منه.

فقال عمر بن الخطاب لمحمد بن مسلمة: ماذا تقول حينما يسألك الله عن هذه المرأة المسكينة يوم القيامة يا محمد؟

دمعت عينا محمد بن مسلمة رضي الله عنه، ثم واصل أمير المؤمنين حديثه معه، وراح يذكره بحق الفقراء والمساكين، ثم أمره أن يعطيها صدقة عامرة، وأمر لها بحمل من الزيت والدقيق وقال لها: خذي هذه حتى تحلقي بخيبر، فإننا ننوى التوجه إليها بإذن اللَه، فلحقت بهم المرأة بخيبر، وأعطاها أمير المؤمنين حملين آخرين من الزيت والدقيق.

عبرة

أيتها الأخوات الكريمات أحيانًا الإنسان يفعل مثلَ هذا، يفعل هذا استعراضًا، يفعل هذا تمثيلًا، يفعل هذا لينتزع إعجاب الناس، لكن هذا الخليفة العظيم حينما فعل هذه الموقف المتواضعة كان يحرص فيه على طاعة الله عزَّ وجل، وعلى خدمة الخلق، فقد كان رضي الله عنه يرى أنه مسئول عن ما يصيب الإنسان، أو الحيوان داخل الدولة الإسلامية.

جراح وأفراح

يا أيتها الأخوات الكريمات، تعلمن قصة هذه السيدة، سيدة أبوها عظيم، وهي عظيمة في مواهبها، ومواقفها عظيمة في نفسها، وفي أعمالها، سيدة ذات مبدأ وفت له، وثبت عليه، وقد شاركت في أجل الأحداث، في السلم، وفي الحرب، وفي الهجرة، سيدة كانت ربة بيت صبرت على مره، ولم تبطر بحلوه، سيدة كان لها من نبل القلب، وكبر العقل، وثبات الأعصاب، ما لم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال.

أبوها أول مسلم بعد رسول الله ﷺ، وهو شيخ الإسلام أبو بكر، وزوجها حواري رسول الله، وأول من سل سيفًا في سبيل الله الزبير بن العوام، وابنها الفارس البطل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، وهي أسماء ذات النطاقين، أسماء العظيمة، العجوز التي وقفت يوم مقتل ابنها موقفًا لا يقوى عليه الصناديد من الرجال، وهي أخت أم المؤمنين عائشة.

أسلمت بعد سبعة عشر إنسانًا، فكانت في طليعة جيش الحق والهدى، جيش الإسلام، الذي ملأ الأرض نورًا، وبايعت الرسول على الوفاء لشرعة السماء، والثبات عليها، وبلغ من عمق الإيمان في نفسها، أنها لما رأت الإيمان قد تعارض مع أقوى عواطف النفس البشرية، مع حب الأم غلبت إيمانها على عاطفتها.

فقد جاء أمها تزورها، وكانت مشركة لم تدخل بعد في الإسلام، فهشت للقائها بعد طول الفراق، وتفتح لها قلبها، وقفز ليكون بريقًا في عينيها، وابتسامًا في شفتيها، وتحية حلوة على لسانها، وضمة دافئة في ذراعيها. ثم ذكرت أن أمها مشركة، وأن رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، وأن الله يقول: ﴿لَّا تَجِد قَومًا يؤمِنونَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ يوَادّونَ مَن حَادَّ اللَّهَ وَرَسولَه﴾ (المجادلة: ٢٢).

فتراخت الذراعان، وأغضت العينان، وجمدت التحية على اللسان، وأرسلت إلى عائشة أن اسألي رسول الله: أأصل أمي وهي مشركة وأستقبلها؟، فقال رسول الله ﷺ: نعم صلي أمك واستقبليها، وعلَمها أن الإسلام لا يحول أبدًا دون عواطف الخير والشر، ولا يقتل أبدًا دوافع النبل في النفوس.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لم تكن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بدعًا من المرأة التي ارتفع بها الإسلام إلى أبعد غاية من كمال النفس، وسمو الأخلاق، وعظمة المكانة، وكانت عضد قوى في نشر الإسلام، وعرفت أيضًا برباطة الجأش، والدفع بالحجة القوية، ورجاحة التفكير في المواقف الصعبة التي تتزعزع فيها إرادة الإنسان، ويفلت من يده زمام تفكيره، وهذا ما يجب أن تكون كل مؤمنة بالله وباليوم الآخر.

امرأة من أهل الجنة

للمرأة المسلمة أن تقرأ سيرة هذه العجوز الصابرة الوفية لدينها، فتأخذ منها العظة والعبرة، فتصبر على ما أصابها، ثقة بالله، وطمعًا في ثوابه، محتسبة أجرها عليه في جميع ما تقوم به من عمل صالح، وجهد مشكور، إنها امرأة من أهل الجنة، أنها صحابية جليلة صابرة محتسبة، إنها صاحبة جلباب العفة والطهارة، أبت أن تكشف شيئًا من عورتها أو جسدها مع أنها كانت مريضة بالصرع، ومجبرة على كشف سوأتها.

إنني أزف هذه البطلة النجمة لنساء العصر الحديث اللاتي كشفن مفاتنهن، وأظهرن عوراتهن، وتفنن في العرى والسفور بكافة السبل، وبسائر الأساليب، وجمعن مع التبرج والسفور، وتغيير خلق الله تعالى، فظفرت بلعنات ولعنات من رب الأرض والسماوات، فيا من تخافين عذاب الله كوني كهذه الصحابية الجليلة.

يقول عطاء بن أبي رباح رحمه الله: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة يا عطاء؟، فقلت له: بلي يا عبد الله، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت: بل أصبر يا رسول الله، ثم قالت: يا رسول الله إني أتكشف أمام الناس، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

نعم صبرت على الصرع من أجل الجنة، ولكنها تطلب الدعاء حتى لا تظهر مفاتنها، فقالت: أن صابرة، لكن السفور ولو مع المرض، لا أرضاه ولا أهواه، وأخشى ما أخشاه، وهل المرأة السوداء يمكن أن تقول: ومن ينظر إلى وأنا سوداء، أو أنني في مجتمع طاهر بيئة صالحة، وحكومة تقية مؤمنة، وصحابيات تائبات عابدات طاهرات مطهرات، ولكنه الإيمان العميق يا أخوات.

عبرة

أيتها الأخوات المؤمنات إن هذا الموقف لهذه المرأة لقصة عظيمة تروى في مكارم الأخلاق وجميل الصفات، ومحاسن القيَم، وجمال الحياء، ونقاء القلب وصفاءه، نعم!! قالت: يا رسول الله إِنِّي أَتَكَشَّف فَادع اللَّهَ لِي أَن لَا أَتَكَشَّفَ، فكان هذا التكشف الذي يقع عن غير طوع واختيار، وعلى وضع لا ملامة عليه فيه، كان تكشفا يؤرقها ويقلقها، إذا كانت هذه حالها - وما أكرمها من حال وما أعظمه من وصف - فكيف الحال بامرأة تتكشف مبديةً محاسنها مظهرةً مفاتنها مبرزة جمالها مع طوعها واختيارها غير مبالية ولا مكترثة لا بحياء ولا إيمان!! تسمع آيات الله وتسمع أحاديث رسول الله، وتسمع ما في التبرج والسفور من وعيدٍ وتهديد فلا تبالي بشيء من ذلك، ولا تكترث بهذا الأمر.

أيتها الأخوات المؤمنات هذه المرأة التي هي من أهل الجنة كان تكشفها بسبب الصرع، وكانت تكره ذلك التكشف أشد الكراهة، لكن ما يقع في عدد من النساء من تكشف وتبرج وسفور سببه، صرع أصيب به هؤلاء النساء، ولكنه من نوع آخر، صرعٌ شديد على من يصاب به وسببه ضعف الإيمان، وقلة الدين، وذهاب الحياء، إنه صرع الشهوات؛ أن يكون الإنسان صريع شهواته، وصريع تتبع ملذاته، فيكون بهذا الصرع ليس مباليًا ولا مكترثًا بما يفعله، أهو آمن من سخطه عز وجل أما لا؟ وبسبب كثرة الفتن، وكثرة دواعي الشهوات، وبروز أصناف رضا الله المغريات في حياة الناس في هذا الزمن، وما استجدَّ فيه من وسائل حديثة كثير منها تؤجِّج

الفتن، وتثير في النفوس الشهوات.

مهرها آيات من القرآن

لما كان الزواج في عصر الصحابة يقصد به بناء أسرة، وإعداد جيل، وصلاح أمة، ونشر دين، وهداية البشرية، وعفاف شباب، وتكثير نسل، وتحصين فرج، لما كان ذلك كان المهر عندهم يسيرًا للغاية، لذلك كان بعضهم يتزوج بدراهم معدودة، وبعضهم نكح على نعلين لا يبلغ ثمنها درهمين، بعضهم تزوج بمهر معنوي كما تزوجت أم سليم أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنهما بإسلامه - وقد ذكرنا قصتهم في هذا الكتاب - وبعضهم تزوج بتعليم آيات من القرآن كقصة صاحبنا هذا.

فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله جئت أهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست.

فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله، إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: فهل عندك شيء؟، فقال الرجل: لا، والله يا رسول الله، فقال: اذهب إلى أهلك، فانظر هل تجد شيئًا؟، فذهب الرجل ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: انظر ولو خاتمًا من حديد، فذهب ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله، ولا خاتمًا من حديد.

ولكن هذا إزاري، قال سهل: ما له رداء، فلها نصفه، فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك؟ إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه رسول الله ﷺ موليًا، فأمر به فدعي له، فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟، قال الرجل: معي سورة كذا، وسورة كذا وعددهن، فقال: تقرؤهن عن ظهر قلبك؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: اذهب فقد زوجتكما، فعلمها من القرآن.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، لم تكن أهداف الجيل الرباني جيل الصحابة رضي الله عنهم من النكاح، المال، والجمال، والحسب، والدين فحسب في ظاهر الكلمة، وإنما نظروا لمعان أخرى تجرها كلمة الدين، فكان منهم من يتزوج الصلة بالنبي ﷺ، وهذا صحابي آخر يتزوج ليزداد إيمانًا، وهذا صحابي يتزوج زوجة صاحبه بعد موته ليعلم كيف كان يقوم الليل.

هذه هي البيوت الإسلاميةَ، وهذه هي منازل النور، المنازل التي ينزل النور عليها، والبيوت التي يسكن نور الوحي فيها ويشع منها، والإسهام العملي في تحقيق ذلك قد يكون بتدقيق الرجل، وتدقيق المرأة عند اختيار الزوج، فيختار على أساس حسن الالتزام بالإسلام، وقد يكون بتشجيع المقبلين على الزوج من معارفنا على التقيد بهذا الميزان، وقد يكون بنشر المعاني التي عايشناها توَا بين الأصدقاء والزملاء أو الأقارب والجيران.

سقاية من السماء

إن عمر الإنسان لا يقاس بأيامه، وإنما يقاس بأعماله فكم من أناس طالت آمادهم، وقلت أمدادهم، وكم من أناس قلَت آمادهم، وكثرت أمدادهم، فقد يعيش الإنسان مائة عام، ولا يهدي الله على يديه رجلًا واحدًا، وقد يعيش إنسان سنوات قليلة يحمل أمانة هذا الدين في قلبه فيجعله الله سببًا في إسلام المئات من البشر، وهذا هو الذي حدث مع هذا الصحابية الجليلة، صاحبة العمر المبارك، والدعوة المباركة.

تعالوا بنا نتعايش مع هذا الموقف بقلوبنا مع تلكم الداعية اللبيبة التي حملت أمانة الدعوة في قلبها، وخرجت من دنياها لتدعو الناس إلى عبادة رب السماوات والأرض ففتح الله لها القلوب، وجعلها سببًا في إسلام عدد كبير من المشركين، إنها أمَ شريك رضي الله عنها، واسمها غزية بنت جابر بن حكيم.

لقد وقع في قلب أم شريك رضي الله عنها الإسلام وهي بمكة، وما إن تمكن الإيمان من قلبها، وفهمت ما يتوجب عليها تجاه هذا الدين العظيم، حتى أوقفت حياتها لنشر دعوة التوحيد بين الناس، وإعلاء كلمة الله ورفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فبدأت أم شريك تتحرك في دعوتها وتدخل على نساء قريش سرًا فتدعوهن وترغبهن في الإسلام دون كلل أو ملل، وهي تدرك ما ينتظرها من تضحيات وآلالم، وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال، فالإيمان ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وشاءت قدرة الله لها بعد فترة من الدعوة، أن تبدأ فترة الامتحان، والتعرض للفتنة.

لنترك هنا الحديث لصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ليروى لأن قصة أمَ شريك رضي الله عنها، فيقول: وقع في قلب أمَ شريك الإسلام وهي بمكة، فأسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرًا، فتدعوهن وترغبهن في الإسلام، حتى ظهر أمرها لأهل مكة، فأخذوها وقالوا لها: لولا قومك، لفعلنا بك وفعلنا، ولكنا سنردك إليهم.

قالت: فحملوني على بعير ليس تحتي شيء موطأ ولا غيره، ثم تركوني ثلاثًا لا يطعموني، ولا يسقوني، فنزلوا منزلًا، وكانوا إذا نزلوا وقفوني في الشمس واستظلوا، وحبسوا عني الطعام والشراب حتى يرتحلوا، فبينما أنا كذلك إذا بأثر شيء بارد وقع علي منه، ثم عاد فتناولته، فإذا هو دلو ماء، فشربت منه قليلًا، ثم نزع مني، ثم عاد فتناولته، فشربت منه قليلًا، ثم رفع، ثم عاد أيضًا، فصنع ذلك مرارًا حتى رويت، ثم أفضت سائرة على جسدي وثيابي.

فلما استيقظوا إذا هم بأثر الماء، ورأوني حسنة الهيئة، فقالوا لي: انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه يا أم شريك؟ فقلت: لا والله ما فعلت ذلك، كان من الأمر كذا وكذا، فقالوا: لئن كنت صادقة، فدينك خيرٌ من ديننا، فنظروا إلى الأسقية فوجدوها كما تركوها، فأسلموا لساعتهم.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هكذا يكرم الله أولياءه الصادقين، فلقد ضربت أم شريك رضي الله عنها أروع الأمثلة في الدعوة إلى الله، وفي الثبات على الإيمان والعقيدة، وهي صابرة راضية

محتسبة في سبيل نجاح دعوتها المباركة، فلم يخطر على بالها أبدًا أن تلين أو تضعف فتتنازل عن بعض الأشياء من أجل أن تنقذ نفسها من الموت والهلاك، فكانت النتيجة أن الله سبحانه وتعالى أكرمها أيما إكرام، وأقر عينها بإسلام قومها ليكونوا جميعًا في ميزان حسناتها يوم القيامة.

صلابة أم سليم

كانت الرميصاء بنت ملحان أم سليم رضي الله عنها حين أهلَ الإسلام بنوره على الأرض تخطو نحو الأربعين من عمرها، وكان زوجها مالك بن النضر يسبغ عليها من وارف حبه، وظليل وداده ما ملأ حياتها نضرة ورغدًا، وكان أهل يثرب يغبطون الزوج السعيد على ما تتحلى به عقيلته من رجاحة العقل، وبعد النظر، وحسن أداء حق الزوج بالطاعة والإحسان.

وفي ذات يوم من أيام الله الخالدة على أهل يثرب، نفذ إليهم مع الداعية المكي مصعب بن عمير رضي الله عنه أول شعاع من أشعة الهدية المحمدية، فتفتح له قلب أم سليم كَما تتفتح أزاهير الرياض لتباشير الصباح، فما لبثت أن أعلنت إسلامها يوم كان المسلمون في المدينة يعدون على الأصابع.

طمعت أم سليم رضي الله عنها في إسلام زوجها مالك بن النضر، وكان غائبًا عن المدينة في بعض شأنه، وقد حان موعد مجيئه، وسألت الله تبارك وتعالى أن يتم عليها نعمته، ويشرح قلب زوجها الحبيب إلى الإسلام، لينعم البيت بالأمن والأمان، ثم ذهبت إلى بيتها، وهي تمني نفسها الأماني العظام.

ثمَ دعت الزوجة الوفية زوجها الأثير لينهل معها من هذا المنهل الإلهي العذب الطهور، ويحظى بما حظيت به من سعادة الإيمان، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فلقد أتت الريح بما لا تشتهي السفن، إذا أبي زوجها أن يشرح للدين الجديد صدرًا، ولا طاب به نفسًا، بل إنه دعا زوجته بالمقابل إلى الرجوع عن الإسلام، والعودة إلى دين الآباء والأجداد، وتشبث كل من الزوجين بموقفه.

فالرميصاء تكره أن تعود إلى الكفر بعد الإيمان كما يكره المرء أن يقذف في النار، ومالكٌ يتعصب لدين الآباء والأجداد في عناد، وكانت الرميصاء تملك من قوة الحجة ما تفحم به زوجها، وكان في دعوتها من نور الحق ما يفضح باطله الواهي المتهافت.

وكان لملك صنمٌ من خشب يعبده من دون الله عز وجل، فكانت تحاجه في أمره قائلة: أتعبد جذع شجرة نبت في الأرض التي تطؤها بقدميك، وترمي فيها فضلاتك؟!. أتدعو من دون الله خشبة نجرها لك حبشيٌ من صناع المدينة؟!.

ولما ضاق الزوج ذرعًا بحجج زوجته الدامغة غادر المدينة، ومضى هائمًا على وجهه متجهًا نحو بلاد الشام، فلقيه عدو له فقتله، فصبرت، وأخذت على نفسها أن تفرغ جهدها لدينها ولتربية ولدها.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، كانت أم سليم رضي الله عنها امرأة جمعت بين العلم والحكمة، وحسن التدبير، والسياسة، ودماثة الخلق، وصدق المقال، وسلامة الفطرة، فقدرت الأمور قدرها، والتمست لزوجها السلامة بكل سبيل، وساقته بالحكمة إلى الدين الحق، وذللت له طريق الهدية، لكنه أصر على الكفر، ومات على ذلك فكان من الخاسرين.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لا شك في أن المرأة قسيم الرجل في عمارة الأرض، وإصلاحها، وإقامة حدود الله فيها، وأن لها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات، وفق ميزان العدل الذي أنزله

الله من فوق سبع سماوات، فالمرأة تعين الرجل في تحمل المسؤولية، بقدر طاقتها إن أرادت ذلك من غير إكراه، وهما معًا في الحياة شريكان، يسعد كل منهما بسعادة الآخر، ويشقى كل منهما بشقائه، مع التفاوت في شعور كل منهما بمقدار مسؤوليته تجاه الآخر.

موعد مع السعادة

ظلت أم أيمن رضي الله عنها في بيت النبي ﷺ طائعة مطيعة، فكانت تخدمه وترعاه، وتقوم بشئونه، فأنسته اليتم، وفقد الأم، إذ أنها كانت أمًا له بعد أمه، وما فتأت رضي الله عنها ترعى سيد العالمين، حتى أنبته الله نباتًا حسنًا، وجعله رسولًا نبيًا، فلمَا أشرق نور الدعوة الإسلامية في الأفق، وطلعت شمس الأنوار المحمدية في سماء الجزيرة العربية.

تعلقت أم أيمن رضي الله عنها بشعاع من أشعة النور، فكانت من المهاجرات السابقات إلى الإسلام، فلم تتأخر ولو لحظة واحد عن الاستجابة لأمر الله عز وجل، بل أسلمت بقلبها، وجوارحها لله رب العالمين، وكانت في مقدمة أول قافلة تسلم لله في هذا الكون، ولكن زوجها عبيد أبي أن يسلم ففرق الإسلام بينهما.

وعاشت أم أيمن في رحاب هذا النور تنهل من النبع الصافي من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، فكانت في سعادة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاع زائل، وكغيرها من أوائل المؤمنين والمؤمنات رضي الله عنهم لاقت العذاب والأذى من قريش بسبب إسلامها، ولما اشتد إيذاء المشركين لأصحاب النبي ﷺ أذن لهم بالهجرة إلى المدينة، فخرج المهاجرون إلى المدينة فرارًا بدينهم من بطش قريش، وكانت أم أيمن من بين المهاجرات.

وفي الطريق إلى المدينة حدث لها شيء يعجز القلم عن وصفه، فعن عثمان بن القاسم قال: لما هاجرت أم أيمن رضي الله عنها أمست بالمنصرف دون الروحاء، فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة، وجهدت من قلة الماء، فدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فشربت حتى رويت، فكانت رضي الله عنها تقول: والله ما أصابني بعد ذلك عطش قط، وكنت أصوم في اليوم الحار ثم أطوف في الشمس كي أعطش فما عطشت بعد.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد كان لأم أيمن رضي الله عنها حال عظيم مع الرب الكريم، فقد أذهب الله عنها العطش طوال عمرها، وأذهب الله عنها الجوع طيلة حياتها، حيث أنها أسلمت فحسن إسلامها، وأبلت بلاء حسنًا، وصبرت مع الصابرات، ورابطت مع المرابطات، فكانت من أهل الفضائل، فقد غضت بصرها عما حرم الله عليها، وصفت رضي الله عنها قدمها في الليل، وتعطلت نفسها لمالك الملك، وملك الملوك، متفكرة متذكرة.

حبًا يفوق حدّ الخيال

كان الرسول الكريم ﷺ يدخل المدينة مختتمًا بمدخله هذا رحلة هجرته الظافرة، ومستهلًا أيامه المباركة في دار الهجرة التي ادَخر القدر لها ما لم يدخره لمثلها في دنيا الناس، وسار رسول الله ﷺ وسط الجموع التي اضطرمت صفوفها وأفئدتها حماسةً ومحبة، وتطلَعت إليه عيونهم تبثه شوق الحبيب إلى حبيبه، وفتحوا له قلوبهم ليحل منها في السويداء من القلب، لقد كان يومًا تاريخيًا أغر، ذلك اليوم الذي قدم فيه النبي الحبيب ﷺ المدينة، فقد كانت البيوت والطرق ترتج بأصوات التحميد والتهليل، وكان الخدم والغلمان يقولون: الله أكبر جاء رسول الله ﷺ.

بهذه الصورة الوضيئة الجميلة استقبل الأنصار النبي ﷺ وقد التفوا حوله، كل يمسك زمام ناقته القصواء يرجوه النزول عنده، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فلم تزل سائرة حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم، فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول فنزل عنها، وذلك في بني النجار أخواله أمام دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

كان منزل أبي أيوب مؤلفًا من غرفتين، واحدة فوق الأخرى، فأخلى العلية من متاعه ومتاع أهله، لينزل فيها رسول الله ﷺ، لكن النبي ﷺ آثر عليها الطبقة السفلى، فامتثل أبو أيوب لأمره، وأنزله حيث أحبَ.

ولمَا أقبل الليل، وأوى الرسول صلوات ربي وسلامه عليه إلى فراشه، صعد أبو أيوب وزوجه إلى العلَية، وما إن أغلقا عليهما بابها حتى التفت أبو أيوب إلى زوجته وقال: ويحك يا أم أيوب، ماذا صنعنا؟، أيكون رسول الله ﷺ في أسفل الدار، ونحن أعلى منه، أنمشي فوق رسول الله ﷺ؟، أنصير بين النبي والوحي؟، إنا إذن لهالكون، وسقط في أيدي الزوجين، وهما لا يدريان ما يفعلان.

ولم تسكن نفساهما بعض السكون إلا حين انحاز إلى جانب العلية الذي لا يقع فوق رسول الله ﷺ، والتزماه لا يبرحانه إلا ماشيين على الأطراف متباعدين عن الوسط، فلما أصبح أبو أيوب قال للنبي ﷺ: والله ما أغمض لنا جفنٌ في هذه الليلة يا رسول الله، لا أنا ولا أم أيوب، قال ﷺ: ومم ذلك يا أبا أيوب؟، قال: ذكرت أنَي على ظهر بيت أنت تحته، وإني تحركت تناثر عليك الغبار فآذاك، ثم أني غدوت بينك وبين الوحي، فقال: هون عليك يا أبو أيوب، وأرفق بنا، وبمن يغشانا من الناس أن نكون في أسفل الدار.

قال أبو أيوب: فامتثلت لأمر رسول الله ﷺ إلى أن كانت ليلةٌ باردةٌ، فانكسرت لنا جرةٌ وأريق ماؤها في العلية، فقمت إلى الماء أنا وأم أيوب، وليس لدينا إلا قطيفةٌ كنا نتخذها لحافًا، فجعلنا ننشف بها الماء خوفًا من أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فلما كان الصباح غدوت على رسول الله ﷺ، وقلت: بأبي أنت وأمي، إني أكره أن أكون فوقك، وأن تكون أسفل مني، ثم قصصت عليه خبر الجرة، فاستجاب لي، وصعد إلى العلية، ونزلت أنا وأم أيوب إلى أسفل الدار، عندها قرت عينا الزوجين بذلك، وحظيا بمرضاة رسول الله ﷺ.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، أنظروا إلى هذا الموقف من أم أيوب وزوجها رضي الله عنهما لم تسكن نفسهما بعض السكون إلا حينما انحاز إلى جانب العلية، الذي لا يقع فوق رسول الله،

والتزاماه لا يبرحانه إلا ماشيين على الأطراف متباعدين عن الوسط، نام هو على طرف الحائط، وزوجته على الطرف الآخر، يعني ابتعدا عن مكان نوم النبي ﷺ.

الإنسان قلب وقالب، الأقوياء يملكون القالب، لكن الأنبياء ملكوا القلوب، هذه هي البطولة. فالبطولة أن يحبك الناس حبًا حقيقيًا، البطولة أن تهفو قلوب الناس إليك، البطولة أن تشعر أنهم يؤثرونك على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، البطولة أن يميل القلب ميلًا حقيقيًا، لذلك النبي صلوات ربي وسلامه عليه أحبه أصحابه حبًا يفوق حدّ الخيال.

الطاهرة النجيبة

فاطمة بنت أسد بن هاشم رضي الله عنها غصن من أفنان شجرة باسقة مباركة، ارتوى من نبع صفا ماؤه، يفيض بالخير على من حوله، إنها إحدى فتيات بني هاشم، وهبها الله عز وجل ملاحة الوجه، ووداعة اللقاء، وجمال الصورة، وزودها بحسن الخلق، وطيبة القلب، ونقاء السريرة، تشرق نفسها بالأماني العذبة الصافية لها ولمن حولها، وهي التي فازت بتربية سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه بعد وفاة جده عبد المطلب، وكفله عمه أبو طالب له، فكانت له من بعد أمه أمًا تقوم على شؤونه، وترعى أموره ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، وقد قضى النبي ﷺ قرابة عقدين من حياته في كنفها.

وهي رضي الله عنها أم الفارس المغوار علي بن أبي طالب رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين، وهي جدة سيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضي الله عنهما، وهي أم الشهيد الطيار الذي رآه النبي ﷺ يطير بجناحيه في الجنة مع الملائكة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي أيضًا حماة سيدة نساء العالمين في زمانها بنت رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها، فتعالوا بنا نتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع موقف أسلم تلك الصحابية الكريمة.

عندما جاءت اللحظة التي ينتظرها الكون كله، وذلك بإشراق نور الإسلام على صحراء مكة حينما بعث رسول الله ﷺ ليحمل الخير والنور للدنيا كلها، وقد جاء ليأخذ بأيدي الناس من أدران الشرك والجاهلية والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان، وعندما أمر الله عز وجل رسول الله ﷺ بإظهار دينه، وإنذار عشيرته الأقربين، حيث قال ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ (الشعراء: ٢١٣، ٢١٥). وقال تعالى أيضًا ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ (الحجر: ٩٤).

قام الحبيب ﷺ يدعو قومه وعشيرته وأقاربه إلى خيري الدنيا والآخرة، فاستجابت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها وأسلمت، فحظيت بشرف الصحبة النبوية، ومنَ الله عليها بإسلام أولادها جميعهم عقيل، وجعفر، وعلي، وأم هاني، وطالب. بينما عظم علي زوجها أبي طالب فراق قومه، وعداوتهم فاعتذر اعتذارًا لطيفًا، ولم يدخل في دين الله، وقال للنبي ﷺ: لا تحملني يا ابن أخي أمرَ ما لا أطيق.

غير أن هذا الاعتذار لم يمنع عمه من أن يحدب ويحنو عليه، وأن يشير إلى الفضائل والمكارم، التي يحبها في شخص ابن أخيه، ولقد ترجم عن عواطفه بقوله يمتدح ويصف الحبيب ﷺ:

أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلهًا ليس عنه بغافل

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن في تحمل الداعية آلام اليتم وهو في صغره، ما يجعله أكثر إحساسًا بالمعاني الإنسانية النبيلة، وامتلاءَ بالعواطف الرحيمة نحو اليتامى أو الفقراء أو المعذَبين، وأكثر عملًا لإنصاف هذه الفئات البر بها والرحمة لها، وكل داعية يحتاج إلى أن يكون لديه رصيد كبير من العواطف الإنسانية النبيلة التي تجعله يشعر بآلام الضعفاء والبائسين، ولا يوفر له هذا الرصيد شيئًا، مثل أن يعاني في حياته بعض ما يعانيه أولئك المستضعفون كاليتامى، والفقراء والمساكين.

روائع من صبر الصحابيات

احتسب ولدك عند الله

الإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل ، وإذا كانت صلات الصداقة بين الناس لا يعتد بها، ولاينَوه بشأنها إلا إذا أكدها مر الأيام، وتقلب الليالي، واختلاف الحوادث، فكذلك الإيمان، لابد أن تخضع صلته للابتلاء الذي يحمصها، فإما كشف عن طيبها، وإما كشف عن زيفها، والصبر من عناصر الإنسانية الناضجةَ، والبطولةَ الفارعة، فإن أثقال الحياة لا يطيقها الضعفاء من البشر، فالمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله، لم يستأجر أطفالًا أو مرضى أو خوارين، إنما ينتقى له ذوى الكواهل الصلبة، والمناكب الشداد، كذلك الحياة، لا ينهض برسالتها الكبرى، ولا ينقلها من طورٍ إلى طورٍ إلا رجال ونساء عمالقة، أبطال صابرون، ولقد نجح الصحابة والصحابيات في امتحان البلاء الصعب، وهذه قصة إحداهن.

بلغت أم سليم رضي الله عنها مبلغًا عظيمًا في حسن الصبر، وقوة الإيمان، وكمال اليقين، وحسن التوكل على الله حق التوكل، من ذلك ما حدث به أنس بن مالك رضي الله عنه، عن أمه قال: كان أخ لي يكنى أبا عمير فكان النبي ﷺ يستقبله فيقول: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ (طائر صغير له).

وقد غدا هذا الغلام قرة عين أبيه، وفرحة قلبه، لكنه بينما يتأهب لسفر من أسفاره، اشتكى الطفل الصغير من علة ألمت به، فجزع أبوه جزعًا شديدًا، كاد يصرفه عن السفر، ولكن أم سليم طلبت منه السفر، ثم بعد أيام من سفر أبا طلحة، قبض الله تبارك وتعالى ابنه، فهيأت أم سليم أمره، وقالت: لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه، فجاء أبو طلحة، وقد تطيبت له وتصنعت.

فقال: ما فعل أبا عمير، يا أم سليم؟ قالت: هو بخير يا أبو طلحة، وهو الآن أسكن ما عرفته. ثم قالت: ألا تأكل يا أبا طلحة قد أخرت غداءك اليوم؟ ثم قدمت إليه غداءه. ثم قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا استرجعوا عارية - أي الشيء المستعار - أعاروها لآخرين أفمن حقهم أن يسخطوا عليهم، وأن يمنعوها منهم. فقال أبو طلحة: لا يحق لهم. قالت: إن الله استرد منك ما وهب، فاحتسب ولدك عنده، فتلقى أبو طلحة قضاء الله بالرضا والتسليم.

ولما أصبح مضي إلى رسول الله ﷺ وحدثه بما كان من أم سليم، فدعا له ولها بأن يعوضهما الله خيرًا مما فقداه، وأن يبارك لهما في العوض، فاستجاب الله عز وجل دعاء نبيه ﷺ، وحملت أم سليم بعبد الله بن أبي طلحة، ولما وضعته حنكه رسول الله ﷺ، وسماه عبد الله.

وعاد ذلك الخير على الزوجين المؤمنين الصابرين، وعاد على الغلام عبد الله بن أبي طلحة بخيري الدارين فلم يكن في الأنصار ناشئٌ أفضل منه، وظهرت آثار البركة في هذا الغلام بتكثير أولاده الصالحين.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هذا الموقف النبيل الذي يعجز عنه كثير من الرجال، فكيف بأم سليم رضي الله عنها ؟، فلقد اجتهدت في مرضاة الله عز وجل، وعملت على مراعاة زوجها، وبالغت في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، فلما علم الله تعالى صدق نيتها بلغها مناها، وأصلح لها ذريتها، وتحققت بذلك دعوة النبي ﷺ (بارك الله لكما في ليلتكما)، وقد تركت ابنها أبا عمير لله فعوضها الله خيرًا منه.

إن امتحان الحياة ليس كلامًا يكتب أو أقوالًا توجه، إنها الآلام التي تقتحم النفس، وتفتح إليها طريقًا. والابتلاء بالأحزان مبهم الأسباب، ويحسن أنفهم أن أوضاع الناس في الحياة كجيش عبَئ للقتال، وقد تكلف بعض فرقه بالقتال حتى الموت، لإنقاذ فرق أخرى، وإنقاذ الفرق الباقية يكون للقذف بها في معارك جديدة، ترسمها القيادة حسبما توحي به المصلحة الكبرى، فتقدر ما في هذه الغمار المائجة لا ينظر إليه، لأن الأمر أوسع مدى من أن يرتبط بكيان فرد معين.

المجاهدة المحدثة

في الأيام الأولى لشروق شمس الإسلام في المدينة، كانت هناك نسوة قد لامست نسمات الإسلام قلوبهن، فأشرقت نفوسهن بالإيمان، وسارعن إلى إعلان إيمانهن بالله عز وجل، وتصديق رسوله محمد ﷺ، منْ هؤلاء المؤمنات امرأة جليلة القدر منْ أسرة كريمة آمنت بربها مع السابقين الأولين، هي الفريعة بنْتُ مالك بْنِ سنان الخدري أختُ الصحابي الفقيه أبي سعيد الخدري، وأبوها الصحابي المجاهد الشهيد مالك بْنُ سنان الذي استشهد يوم أُحُد.

أسلمت الفريعة بنْتُ مالك رضي الله عنها وبايعت رسول الله ﷺ عندما أقبل إلى المدينة مهاجرًا، فسارع مالك بْنُ سنان رضي الله عنه وأهلُ بيته، ومنهم الفريعة فبايعوا رسول الله ﷺ.

وفي غزوة أُحُد كان أفراد أسرة مالك بْنِ سنان قد تسابقوا إلى الجهاد في سبيل الله، فخرج مالك وابنه أبُو سعيد، وقتادة بْنُ النعمان أخو أبي سعيد لأمه، وعند أُحُد كان مالك يعرض أبَا سعيد على رسول الله ﷺ ليسمح له بدخول المعركة، فجعل النبي ﷺ يُصعِّدُ فيه النظر ويصوبه، ثم قال لوالده: «يا مالك رده»، فرده إلى المدينة، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، وكان رسول الله ﷺ قد استصغره يوم أُحُد مع ثلة منْ الفتيان في عمر الورود.

وفي المعركة أبلى مالك بلاء محمودًا عندما انهزم المسلمون، وجُرح وجه النبي ﷺ الشريف، فأسرع مالك وامتص الدم الشريف منْ وجنة رسول الله ﷺ، وظل يقاتل ويجندل الرجال منْ حول رسول الله حتى ظفر بالشهادة، فقال رسول الله ﷺ في حقه: «منْ أراد أنْ ينظر إلى رجل منْ أهل الجنة فلينظر إلى هذا»، وأشار إلى مالك بن سنان رضي الله عنه.

ولمْ يكن قتادة أقل بلاء منْ عمه مالك بْنِ سنان، فقد كان أحد الذين ثبتوا حول النبي ﷺ ساعة العسرة، وقاتل قتال الأبطال، حتى قُلعت عينه يومئذ فردها النبي ﷺ وكانت أحسن عينيه.

ولقد انتهت غزوة أُحُد والكل يستقبل رسول الله ﷺ ومن معه ليطمئنوا على أهليهم، فكان فيمن خرج أبُو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال: دنوت منْ رسول الله ﷺ فقبلت ركبتيه، فقال: «آجرك الله في أبيك، لقد ترافقوا في الجنة»، فعاد أبُو سعيد وهو راضٍ بقضاء الله تعالى، وعاد لأخته الفريعة وأمها وطمأن قلبيهما بسلامة رسول الله ﷺ، فقالت أمه: «ماذا فعل مالك؟» فقال: «لقد استشهد»، فحمدتا الله تعالى على سلامة رسول الله ﷺ، واحتسبتا مالكًا عند الله عز وجل، وصبرتا أحسن الصبر، فنالتا بذلك أفضل الجزاء، وأعظم المثوبة.

عبرة

في هذا الموقف يبان ما كان عليه غلمان الصحابة من حب عظيم لرسول الله ﷺ، وارتفاع في مستوى التفكير والاهتمامات، حيث يشعرون بشعور الكبار فيسرهم ما يسرهم ويسوؤهم ما يسوؤهم، وهذا دليل على نجاح النبي ﷺ في تربية الصحابة ونجاحهم في تربية أبنائهم.

فمعلمنا الأول ﷺ كان يعطى لأمته القدوة الصالحة في حسن رعايته لأصحابه وتفقده لهم، وسؤاله عنهم، ومراقبة أحوالهم، ومحاذرة مقصريهم، وتشجيع محسنيهم، والعطف على فقرائهم ومساكينهم، وتأديب الصغار منهم، وتعليم الجهلة فيهم. ويستطيع المربي ذلك من خلال متابعة محافظة أبنائه على الصلاة والصيام وغيرها من العبادات، ومتابعة الالتزام بالآداب، ومتابعة الالتزام بأخلاق الإسلام من صدق وأمانة وتعاون وغيرها، ومتابعة حفظ اللسان

والجوارح من عدم سب وشتم.

وفي هذا الموقف أيضًا ما يدل على قوة الإيمان ورسوخه عند نساء الصحابة • جميعًا، فهذه الفريعة بنْتُ مالك قد نُعي لها أبوها فلم تتأثر بذلك، وسألت عن سلامة رسول الله ﷺ، فلقد كانت رضي الله عنها قوية الإيمان، راسخة اليقين حينما قالت: «ومن يبكي عليهم بعد هذا»، وذلك حينما بشرهما رسول الله ﷺ بأن شهداء المسلمين قد ترافقوا في الجنة، وهذا دليل على قوة استشعار الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة، واهتمامهم بتنظيم سلوكهم بناء على ذلك.

قتلاهم ترافقوا بالجنة

لله در سعد بْنِ معاذ رضي الله عنه كان إسلامه فتحًا على الأوس والأنصار، فلقد دخل بنو عبد الأشهل - قوم سعد - جميعًا الإسلام حبًّا له، وفي هذا اليوم أسلمت كبشة بنْتُ رافع رضي الله عنها - أمُّ سعد بن معاذ - وقد لامس الإيمان شغاف قلبها، وأحست بأن السعادة تغمر قلبها وجوارحها، بل وازدادت سعادة عندما أصبحت دارها مقرًّا للدعوة الإسلامية في المدينة، فكانت تنشر عبير الإسلام، ونسمات الإيمان لتعطر أرجُاء المدينة، بل والدنيا كلها.

ولما اشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب المصطفى ﷺ، أذِن لهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة؛ خوفًا عليهم منْ أنْ يُفتنوا في دينهم، فهاجروا إلى المدينة، ونزلوا في رحاب الأنصار، الذين وضعوهم في عيونهم وأغلقوا الجفون خوفًا عليهم منْ نسيم الهواء. وكان الأنصار رضوان ربي عليهم في أشد الشوق واللهفة لقدوم الحبيب ﷺ، فلما علم الأنصار أن الله عز وجل أذن لحبيبه ﷺ بالهجرة إلى المدينة، كادت أرواحهم أنْ تفارق أجسادهم منْ شدة الفرح.

وفي اليوم الموعود وصل إلى مسامعهم بأن الحبيب ﷺ على مشارف المدينة، فامتلأت شوارع المدينة كلها بالرجال والنساء والأطفال، الكل يريد أن يرى خير مخلوق عرفته البشرية كلها ﷺ، فلو اجتمعت أعياد الكون كله في تلك اللحظة، ما كانت تساوي جزءًا منْ ألف جزء منْ فرحة الأنصار بقدوم النبي ﷺ إلى المدينة. وكانت أمُّ سعد رضي الله عنهما تتمنى منْ أعماق قلبها أن ينزل النبي ﷺ في بيتها لتسعد سعادة الدنيا والآخرة، ولكن الله اختار لحبيبه ﷺ دار بني النجار فنزل في بيت أبي أيُوب الأنصاري رضي الله عنه.

سجلت كبشة رضي الله عنها منذ أنْ أسلمت سبقًا مشكورًا في مضمار الفضائل، صحيح أننا لا نجد اسمها في لائحة الشهيرات، ولكنها لمْ تكن بمعزل عنْهن، وعن الأوليات منْهن، ومن أثرين التاريخ بمواقفهن العظيمة، وأثرن الإعجاب بأعمالهن الجليلة: فقد كانت رضي الله عنها مفتاح خير لنسوة الأنصار في بيعة النساء، وكانت تتسابق إلى خدمة الحبيب ﷺ وأصحابه من المهاجرين، وكانت لا تريد أنْ تفوتها فرصة تستطيع منْ خلالها أنْ تُقدم أي شيء لخدمة هذا الدين العظيم، ولخدمة سيد المرسلين. ووقف النبي ﷺ أمام تلك التضحيات الخالدة ليُعبر عنْ سعادته وتقديره للأنصار، فقال ﷺ: «خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خيرٌ.» وكم كان سرور أمِّ سعد عظيمًا حينما ترامى إلى سمعها هذا القول.

كان لأمِّ سعد رضي الله عنهما مواقف لا ينساها التاريخ أبدًا، فهي التي كانت تحمل أمانة الدين على كتفيها، وتتمنى أنْ تُقدم أي شيء لخدمة هذا الدين ولو ضحت منْ أجل ذلك بمالها وأولادها ونفسها وكل ما تملك، فقد كانت رضي الله عنها حريصة على أن تكون سابقة إلى الخير كله. وفي غزوة بدر، خرج ولداها سعد وعمرو ابنا معاذ رضي الله عنهما ليجاهدا في سبيل الله ففرحت بهما فرحًا عظيمًا، وكانت تتمنى أن يرزقهما الله الشهادة في سبيله، فقاتلا قتال منْ يبحث عن الشهادة، وأبلى كل واحد منهما بلاءً حسنًا، وكان لسعد يوم بدر موقف يفوح بالبطولة والروعة والإيثار، تألق له وجه النبي ﷺ رضا وسعادة، وكانت النُصرة لجند المسلمين، فعادا إلى المدينة مرة أخرى يحملان بشائر النصر ففرحت تلك الأم المؤمُنْة فرحًا شديدًا بهذا النصر.

وفي غزوة أُحُد كان سعد وعمرو منْ أوائل المجاهدين في سبيل الله عز وجل، ونال عمرو الشهادة مع نفر منْ بنْي عبد الأشهل، ووصل الخبر إلى المدينة، فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله ﷺ بعد أن وردت الأخبار إليهن باستشهاد رسول الله ﷺ في المعركة، خرجت أمُّ سعد رضي الله عنها تعدو نحو النبي ﷺ والنبي واقف على فرسه وسعد آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: «يا رسول الله، أُمي»، فقال ﷺ: «مرحبًا بك يا أمَّ سعد»، فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ فقالت: «أما إذ رأيتك سالمًا فقد هانت المصيبة.»

فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها ثم قال: «يا أم سعد، أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا وقد شُفعُوا في أهليهم»، فقالت: «رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا»، ثم قالت: «ادعُ يا رسول الله لمن خلفوا منهم»، فقال: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا.»

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لقد كانت كلمة أمِّ سعد رضي الله عنها لرسول ﷺ بعد أُحُد: «أما إذ رأيتك سالمًا فقد هانت المصيبة»، تفيض منْ قلب سليم مفعم بالإيمان، وتدل على حسن توكلها على الله تعالى، وعظيم ثقتها في فضل خالقها ومولاها، وتنبئ عنْ مدى علمها بسنة الله في خلقه، وديدنه مع المقربين منْ عباده، فهو جل شأنه لا يضيع أجر المحسنين، ولا يقطع رجاء السائلين.

لقد جمعت أمُّ سعد رضي الله عنها في هذا الموقف الرائع بين جلال الصبر، وبين مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسول الله ﷺ، فحظيت بدعوة نبوية مستجابة، ونالت بذلك الفوز بالرضوان والرحمة والجنان.

المخلصة الوفية

لقد أنجبت أمُّ المؤمنين خديجة بنْتُ خُويلد رضي الله عنها لرسول الله ﷺ البنين والبنات، فكانت بهم أحظى عنْد زوْجها الحبيب ﷺ، وكان بهم أسعد لأنهم منها. يا له منْ حبٍّ غمر قلبيهما وملأ كيان كل منهما! ونحن هنا نتكلم عنْ أول كوكبة منْ كواكب بيْت النبوة، نلتقي مع رمز الطُهر والعفاف والتُقى، مع الزهرة التي فاح أريُجها وعبيرها في بيت النبوة ثم ملأ أرجاء الكون كله بعبير الإيمان والتضحية والبذل والفداء.

فكل حديث عنْ بنت منْ بنات النبي ﷺ هو حديث عن واحدة منهن، وهو أيضًا حديث عن الأخريات مع شيء منْ الفروق في الأحوال والملابسات، فكلهُنْ نشَأْن في بيت طيب، انبثق منه نور الإيمان، وصدق اليقين، ونبعت منْ جوانبه الفضائل كلها، فهو أعظم بيت في هذه الأمة، بل لا نبالغ إنْ قلنا إنه أعظم بيت في هذه الدنيا، والحديث هنا عنْ كبرى بناته ﷺ زينب رضي الله عنها.

لقد تزوْجهُا ابنُ خالتها أبو العاص بنْ الربيع قبل البعثة المحمدية، وكانت أول منْ تزوْج منْ بنات النبي ﷺ، وكان أبو العاص منْ أكثر أهل مكة مالًا، ومنْ أشهرهم أمانة ووفاء، وكانت خديجة رضي الله عنها تحبه لوفائه وصدقه وأمانته، فضلًا عنْ كونه ابن أختها، وكان رسول الله ﷺ يحبه أيضًا، ويثني عليه خيرًا، وقد عاشت زينب في بيت زوجها الكريم النبيل عيشة هنيئة، تبادله حبًّا بحب، وفاء بوفاء، غير أن أبا العاص لمْ يعتنق الإسلام إلا بعْد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

لما نزل الوحي على رسول الله ﷺ وهو يتعبد بغار حراء، كان أبو العاص في تجارة له خارج مكة، ولما عاد منْ السفر ملأ سمعه شائعات المشركين، قد تناقلتها الركبان، عن ظهور محمد بن عبد الله بدين جديد، فسمع بالنبوة والوحي، فاستقبلته زينب رضي الله عنها وأخبرته بالنبأ اليقين، ولكنه خيب أملها، حين ردد مزاعم المشركين، فوقفت أمامه قبل أن يتم كلامه، وقالت: «والله ما كنت لأكذب أبي، وإنه والله لكما عرفت أنت وقومك، إنه صادق أمين»، ثم قالت: «والله إني قد آمنت بما جاء وأسلمت، وكذلك آمنت أمي وأخواتي.»

ظلت زينب رضي الله عنها تدعوه إلى هذا الدين القويم ليلَ نهارَ، وكان مؤهلًا لاعتناقه منْ أعُماق قلبه لولا تلك النعرة العربية التي تعوق الكثير منْ أمثاله عنْ هداية السماء، وكان يقول لها معتذرًا: «إني خائف لو تبعته لقال الناس: فارق دين آبائه إرضاءً لزوْجه وحميه»، فعقبت قائلة: «لكنك لنْ تدع كلام الناس يثنيك عن الحق»، فسألها: «وهل فكرت يا زينب حين تبعتِ دين أبيك فيما يحدث لو أني بقيت على دين آبائي؟»

فأجابت: «كلا يا ابن الخالة، بل رجوت أنْ تسبق إلى الإسلام، كما سبق إليه علي بن عم أبي، وأبو بكر، وأسلم من قومك ابن عمك عثمان، وابن خالك الزبير بن العوام، فليس لك إلا أن تؤمن وتسلم»، فلم يجبها بشيء، ثم خرج من بيتها، وتوجه إلى الكعبة، ثم عاد إليها في غسق الليل، وقال لها: «لقيت أباك اليوم في الكعبة يا زينب، ودعاني إلى الإسلام»، ثم لم يزد، وكانت ملامح وجهه من الوجوم، وترنح صوته ما يغني زينب عن سؤاله: بمَ أجبته؟

ففهمت زينب رضي الله عنها أنه لم يقبل الإسلام فأشفقت عليه، ولم يخْفَ عليه ما تُكابده منْ ألم، فأراد أنْ يبثها عذره فقال لها: «والله ما أبوك عندي بمتهم، وليس أحب إليَّ منْ أن أسلك

معك يا حبيبة في شِعب واحد، لكني أكره أن يقال: إن زوْجُك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاءً لامرأته، فهلا قدرت وعذرت؟» فاستشفت من كلامه هذا أنه غير مُصر على الكفر، وأنه مهيأ للإسلام بثقته في أبيها، فصبرت وتعللت بأمل خفف عنْ نفسها مرارة الألم والإشفاق.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، نتعلم منْ هذا الموقف لزينب رضي الله عنها كيف تصبر المرأة المسلمة على زوْجها، فإنها إنْ كرهت منه خُلقًا رضيت منه آخر، فزينب رضي الله عنها صبرت على زوْجها صبر أيوب إذ دعته إلى الإسلام فأبى، وظل على شركه، وهي تعاني ما تعاني منْ ذلك أكثر من خمسة عشر عامًا، ولقد كانت تحسن إليه كل الإحسان، ولا تيأس من دعوته إلى الإسلام، وتتحمله على مضض وهو يسجد للأصنام، وتحزن كل الحزن عندما تراه غارقًا في أوهام الشرك، واقعًا في براثن الباطل، وهو ما هو عقلا ونبلًا.

إنها كانت تواسي نفسها بالأمل في إسلامه، وتسلم الأمر لخالقها ومولاها، فما أحرى بالمرأة المسلمة أن تتسلح بالصبر في معاملتها لزوْجُها، والرضا بقضاء الله وقدره فيما تكره منه، حتى تلقى الله وهو راضٍ عنها.

نقية السريرة

ما زلنا نُعيش بقلوبنْا في بستُان الخير، والبركة، والعفاف، والتُقى، ففي كل موقف لنا في هذا الكتاب، نرى زهرة جديدة فاح عبيرها على الكون كله، نحن على موعد مع صحابية كانت تبذل كل ما تستطيع لتُدخل السعادة والسرور والبهجة على قلب سيد البشر الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، إنها امرأة من السابقات إلى الإسلام، فقد أسلمت مع زوْجها السكران بْنِ عمرو رضي الله عنه أخي الصحابي الجليل خطيب قريش في الجاهلية والإسلام سُهيل بن عمرو رضي الله عنه، وهاجرت الهجرتين: إلى الحبشة، وإلى المدينة. هي امرأة آثرت رضى رسول الله ﷺ على حظوظ نفسها، وهي الحريصة على صحبة رسول الله ﷺ في الجنة. هي امرأة ذات حلم وفطنة. هي أمٌّ للمؤمنين، وكفى بها نعمة. إنها الصحابية الجليلة أمُّ المؤمنين سودة بنْتُ زمعة بن قيس رضي الله عنها. فتعالوا بْا لنْتُعايش بقلوبُنْا مع هذه السطور الرائع منَ سيرتهُا العطرة.

لقد كانت البشرية تعيش في جاهلية وشر إلى أنْ جاء الحبيب المصطفى ﷺ بهذا الدين العظيم، لينقل البشرية منْ أوحال الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان، فاستجاب لدعوته أصحاب الفطر والقلوب النقية التقية، فخلعوا ثوب الجاهلية على عتبة دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، ولبسوا ثوب التقوى والإيمان، فانقادت قلوبُـهم وجوارحُهم لطاعة الله، ولخدمة دين الله عز وجل.

إنْ هؤلاء الصحب الكرام الذين استجابوا لهذه الدعوة المحمدية المباركة في مهدها، هُم الذين حملوا هَمَّ هذا الدين العظيم، ونشروا رسالته إلى أرجاء الكون على أشلائهم، ولحومهم، ودمائهم، وكان أول منْ أسلم من النساء خديجة رضي الله عنها التي كانت تؤازر رسول الله ﷺ في أعتى المواقف، وتعينه على أمر الدعوة.

وكان أول منْ أسلم من الرجال أبُو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لمْ يتردد لحظة واحدة عنْ قبُول الدعوة بعْد أنْ عرض عليه النبي ﷺ دعوته حتى وجده يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.» وما إنْ أسلم أبُو بكر الصديق رضي الله عنه حتى حمل أمانة الدين على أعُناقه، وخرج يدعو الناس إلى دين الله عز وجل، فأسلم على يديه ستة من العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة فيما بعد.

فيأتي الصديق رضي الله عنه يوم القيامة وهم في ميزان حسناته، بل وأسلم على يديه خلقٌ كثير غير هؤلاء الأطهار الأبرار، وهكذا يجب أنْ يكون الداعية يحمل همَّ الناس منْ حولهُ، ويخشى عليهم منْ عذاب الله، ويأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وجنته.

وكان منْ بيْن السابقين الذين استجابوا لدعوة أبي بكر للحق منْ أول وهلة السكران بن عمرو رضي الله عنه، ولقد أسلم السكران ولامس الإيمان شغاف قلبه، بل وأسلمت زوْجه وابنة عمه سودة بنْتُ زمعة رضي الله عنها، وعاشا سويًّا في رحاب التوحيد والإيمان أجمل لحظات العمر، وهكذا كان الزوْجان من السابقين الذين أسلمت قلوبهم وجوارحهم لله، ونَعِما بالحياة في ظل الإيمان، فكانا رضي الله عنهما من الذين كتب الله لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

وما هي إلا ساعات معدودة حتى شاع خبرُ إسلامه رضي الله عنه، فإذا بهؤلاء الذين نفخ الشيطان في عُقولهم، فظنوا أنهم هم السادة مع أنهم عبيدٌ لشهوات بطونهم وعقولهم، يعرفون خبر إسلام السكران بن عمرو رضي الله عنه فيصبون عليه العذاب صبًّا، وهم لا يرقبون فيه إلًّا

ولا ذمة.

فعن ابن إسحاق رحمه الله: ثم إنهم عدوْا على منْ أسلم واتبع رسول الله ﷺ منْ أصحابه، فوثبت كل قبيلة على منْ فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب، والجوع، والعطش، وبرمضاء صحراء مكة إذا اشتد الحر على من استضعفوا منهم، يفتنونهم عنْ دينهم، فثبت الصحابة على رغم من شدة البلاء عليهم، فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ»، فخرج عنْد ذلك المسلمون منْ أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت الحبشة أول هجرة في الإسلام.

هاجرت سودة مع زوْجها رضي الله عنهما فرارًا بدينها منْ بطش جبابرة قريش آنذاك، وعاشا في رحاب النجاشي - ذلك الملك العادل - أطيب حياة في ظل الإيمان والتوحيد. ثم جاءهما الخبر في الحبشة أن قريشًا قد أسلمت - وكان الخبر كذبًا، وعادا إلى مكة لينعما بصُحبة الحبيب ﷺ، فإن المؤمن يستعذب العذاب في جوار رسول الله ﷺ عن الراحة والنعيم بعيدًا عن الحبيب ﷺ. فلما عادا إلى مكة، وجدا أن قريشًا ما زالت تعلن العداء لدعوة النبي ﷺ، وتسلط على أصحابه من العذاب ألوانًا، ولكن النبي ﷺ كان يُطمئن قلوبهم بأن نصر الله قريب، وأن العزة ستكون لأوليائه، والخزي سيكون لأعدائه.

تمر الأيام وما زال الزوْجان يتعايشان في كل لحظة مع كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ إلى أنْ جاءت اللحظة التي نام فيها السكران رضي الله عنه على فراش الموت، وفاضت روحُه إلى بارئها، فمات في مكة فحزنت عليه سودة حُزنًا شديدًا، وأصبحت سودة رضي الله عنها وحيدة في هذه الدنيا، ولكنها صبرت صبرًا جميلًا، ورضيت بقضاء الله لأنها تعلم يقينًا أن الله أرحُم بعباده منْ رحمة الأم بطفلها الرضيع، وأن العبد إذا صبر واحتسب فإن الله يعوضه خيرًا، ولكنها لمْ يخطر ببالها أبدًا أنها ستكون في يوم من الأيام أمًّا للمؤمنين، وزوْجة لسيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ونيلهم منْ غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعي الله، وظنوا أن رسائل السخرية والتهكم التي جنحوا إليها، ستهد قوى المسلمين المعنوية، فيتواروا خجلًا منْ دينهم، ويعودوا كما كانوا إلى دين آبائهم، وإلى الضلال والكفر من جديد؛ غير أنْ ظُنونهم سقطت جميعًا، فإن أحدًا من المسلمين لمْ يرتد عن الحق الذي شرَّفه الله عز وجل به، بل كان المسلمون يتزايدون، ولم تفلح طرق الاستهزاء في الصد عنْ سبيل الله وتشويه معُالمها، إنها زادت شُعور المسلمين بما تزخر به الوثنية منْ معرَّات ومخازٍ تُستْحق الفضيحة والاستئصال.

الشوق إلى البيت العتيق

كانت سهلة بنْتُ سهيل بن عمرو رضي الله عنهما امرأة طيبة الأعراق، نُعمت بالإسلام مع الثُّلة الأولى من الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى وربط على قلوبهم وثبتهم. أسلمت سهلة بمكة قديمًا، وبايعت رسول الله ﷺ قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجرت إلى أرض الحبشة الهجرتين مع زوْجها السيد الكبير أبي حذيفة بن عتبة بْنِ ربيعة رضي الله عنه وهو ابن رأس المجرمين عتبة بن ربيعة شيخ الجاهلية؛ فرارًا منْ أذى المشركين، واستقر بها المقام هناك بعيدًا عمنْ يريد أنْ يصدها عنْ دينها.

ولقد طابت الإقامة للمسلمين المهاجرين بأرض الحبشة، ووجُدوا منْ ملكها النجاشي كل رعاية وعناية، ولكن سهلة رضي الله عنها كانت تشعر بلوعة الغربة، وظلت متعلقة القلب بمسقط رأسها مكة البلد الأمين، وتحن إلى هذا الوطن الغالي ورؤية أهلها، وشعرت بالحنين إلى البيت العتيق، وكانت تتمنى من أعماق قلبها أن يهدي الله أباها خطيب قريش وفصيحهم سهيل بْنَ عمرو، وأنْ يهدي سائر أهل مكة، وهو على كل شيء قدير.

وتمضي الحياة على المسلمين في الحبشة بحلوها ومرها، حتى تناثرت أخبار خاوية بأن أهل مكة جميعًا أسلموا، فتحركت أشواق المهاجرين نحو مكة، وقدموا إليها، لكن ما سمعوه كان باطلًا، فلمْ يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفيًا، فكان ممن قدم منهم مكة فأقام حتى هاجر إلى المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل رضي الله عنهما، وجماعة أخرى معهم عددهم ثلاثة وثلاثون رجلا.

هاجرت سهلة بنت سهيل رضي الله عنهما مرة أخرى إلى المدينة المنورة حيث عاشت الأحداث الإسلامية في العهد المدني للدولة الإسلامية في مدينة رسول الله ﷺ منْ ألفها إلى يائها، فقد آخى رسول الله ﷺ بيْن زوْجها أبي حذيفة وبيْن عباد بن بشر الأنصاري رضي الله عنهما، وشهد هذان المتآخيان في الله المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقُتلا معًا يوم موقعة سهل عقرباء - اليمامة - شهيدين سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية الشريفة بعْد أنْ جاهدا في الله حق جهاده رضي الله عنهما، فصبرت سهلة رضي الله عنها لذلك.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لقد كانت مواجهة زعماء قريش لدعوة الإسلام عنيفة متواصلة، ولقد ساءهم كثيرًا أن دخل في الإسلام عدد منْ أشرافهم مثل أبي حذيفة ابن شيخ قريش في الجاهلية عتبة بْنِ ربيعة، وزوْجته سهلة بنْتِ سهيل بْنِ عمرو خطيب قريش في الجاهلية والإسلام؛ فلأجل ذلك حاولوا فتنتهم بالتأليف أولًا، حيث أغروهم بالأموال والجاه إذا هم تركوا دينهم، فلمْ ينجحوا معهم في ذلك، فلجؤوا إلى محاولة حرمانهم من الأموال والمتاع، فلمْ يثنهم ذلك عنْ عزمهم على التمسك بدينهم الحنيف.

عند ذلك تحول الكفار إلى فتنة التخويف حيث قاموا بإيذاء المسلمين وتعذيبهم. وقد يبدؤون بفتنة الترهيب قبل المرور بفتنة الترغيب لإدراكهم بأن المسلمين ليسوا طلاب دنيا، وأنْ أي محاولة في ترغيبهم ستبوء بالفشل، أو انطلاقًا من شدة حنقهم على الإسلام ودعاته. وقد مر بهذه الفتنة أكثر المسلمين سواء في ذلك الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء، الأحرار والعبيد.

صفات كريمة

التسابق في ميدان الفضائل أمر محمود من البشر، فمنذ البدايات الأولى لإسلام فاطمة بنت أسد رضي الله عنها كانت من المسارعات إلى الخيرات، وذلك في الإيمان، والتصديق، فأضحت بذلك منْ نساء الصفوة ممن أخذن المكانة العليا في ساحة الفضيلة، وممن كن في الرعيل الأول في الموكب الباهر الذي صُنع على عين الله عز وجل، فكُتب له الخلود في سجل الدَّهر. وفاطمة رضي الله عنها ممن حُزْن الفضيلة في مجالات شتى، فقد كانت من المهاجرات الأول، ثم هي أول هاشمية ولدت هاشميًا، بل هي أول هاشمية تزوجُت هاشميًّا وولدت خليفة.

بدأت فاطمة رضي الله عنها تعيش حياة جديدة، كُلها إيمان وطاعة لله ولرسول الله ﷺ الذي تربى في بيتها، وارتوى منْ عطفها وحنانها، فكانت تتعايش مع آيات الله عز وجل، ومع سنة رسول الله ﷺ حتى أحست بسعادة لا تعدلها الدنيا بما فيها.

ولكن أعداء الله دائمًا يتربصون بالمؤمنين، فلقد بدأت قريش تصب غضبها وبطشها على الموحدين منْ أصحاب سيد المرسلين صلوات ربي وسلامه عليه، وبدأت تقف في وجه الإسلام وتحاربهُ حربًا ضروسًا، فلما رأى النبي ﷺ ما نزل بأصحابه من العذاب والنكال أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة.

هنا وقفت فاطمة رضي الله عنها وقد امتلأ قلبها حزنًا وأسى وهي تودع ولدها جعفر بْنَ أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس رضي الله عنهما فلقد كان جعفر أمير المهاجرين إلى الحبشة.

ولما رأت قريش أن الأمر يكاد يخرج من يدها، لجأت إلى مقاطعة بني هاشم، وحُصر بنو هاشم وبنو عبد المطلب بنسائهم وأطفالهم في الشِّعب، فصبرت فاطمة بنت أسد مع منْ صبر من النساء تبتُغي بذلك رضوان الله، وقاست واشتد عليها البلاء، وأكُلت ورق الشجر مع المسلمين المحاصرين، ورأت قريش أنْ بني هاشم وبني عبد المطلب قد صبُروا للمحنْةُ كرامًا، واحتملوها أعزة شمًّا، بل عجبوا منْ صبر نسائهم على تحمل المحنة التي استمرت نحوًا منَ ثلاث سنين.

يقول ابن سعد عن ذلك: فلما رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم وعرفُوا أنهم لن يسلموهم، وكان خروجُهم من الشعب في السنة العاشرة من البعثة، وفي هذه السنة توفيت أمُّ المؤمنين خديجة بنت خُويلد رضي الله عنها زوْج النبي ﷺ، ثم توفي عمه أبو طالب، فاشتدت المصائب على المسلمين، وأخذت قريش تجتهد أكثر في إيذاء الرسول الكريم ﷺ إلى أن أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة.

ولما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة هاجرت فاطمة مع منْ هاجر لتنال أجُر المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وخرجوا منْ دنُياهم ليظفروا بنُعمة التوحيد والإيمان بالله عز وجل، وهناك في المدينة نزلت في رحاب أخُواتها من نساء الأنصار فعاشت في ظل بيئة إيُمانية فكان إيمانها يزداد يومًا بعد يوم.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، الإيمان سلوك واعتقاد، فليس في الإسلام إيمان بلا عمل، فالإيمان والعمل قرينان {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. فالإيمان بالله يتبعه عبادة ظاهرة لله، وذلك مع سلوك طيب مع الناس، فلا يمكن أبدًا لمؤمن ألا يصلي، ولا ينبغي لمؤمن

يصلي ثم تراه يتكبر على الناس، ويمشي مغرورًا مختالًا، ويرفع صوته هكذا بلا ضابط، ولقد كان رسول الله ﷺ معروفًا بالصادق الأمين قبل أنْ يبعثه الله للبشر، وكان بعد بعثته قدوة للمؤمنين في الحلم والرفق والكرم والأمانة والصدق والقوة والشجاعة.

في رحاب الإيمان

كانت أُمُّ المؤمنين هندُ بنْتُ أمية، أمُّ سلمة، رضي الله عنها ، تعيش حياة النعيم والرخاء والسعة والدعة وخفض الْعَيش، ينفق عليها زوْجها أبو سلمة رضي الله عنه ، ويرعاها ويحنو عليها حنو الْمُرضعات على الفطيم، فقد عُرفت بين أترابها بكمال طلعتها، وجمال روحها، ورقة طبعها، ناهيك بكرم والدها الذي غطى رجال مكة وما حولها، فقد كان أَبُوها سيدًا من سادات بني مخزوم الْمَرمُوقين، وجوادًا منْ أجْواد العرب الْمَعدُودين، حتى كان يقال لهُ زاد الراكب؛ لأن الركْبان كانتْ لا تتزودُ إلا إذا قصدت منازلهُ، أو سارتْ في صُحبته.

لكنها في غضون أيام تترك هذا النعُيم كُلهُ، لتنْتُقل إلى نعيم روحي آخر عُبقتْ مكة كلها بأريجه، إنه عبق الدعوة المحمدية، التي يدعو إليها النبي الكريم ﷺ، وسارعت أمُّ سلمة وزوجها إلى الإيمان بالله فكانا من السعداء، وقد كان زوْجُها أبو سلمة رضي الله عنه أحد الْعَشرة السابقين إلى الإسلام، إذ لم يُسلمْ قبلهُ إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ونفر قليلٌ لا يبلُغُ أصابع الْيَدين عددًا، وكانتْ هي الأُخرى من السابقات إلى الإسلام أيضًا.

وما إنْ شاع نبأُ إسلام أُمِّ سلمة وزوْجها رضي الله عنهما حتى هاجتْ قُرَيْشٌ وماجتْ، وجعلتْ تصُبُّ عليهما من الأذى الشديد، ما يُزلْزلُ الصخور القاسية، فلمْ يضْعُفا ولمْ يهنا ولم يترددا، ولما اشْتد عليهما الأذى وأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالْهِجرة إلى الْحَبشة كانا في طليعة الْمُهاجرين، فكان أول منْ خرج من المسلمين فارًّا بدينه إلى أرض الحبشة أَبُو سلمة ومعه امرأته رضي الله عنهما.

مضتْ أُمُّ سلمة وزوْجُها إلى ديار الْغُربة، وخلفتْ وراءها في مكة بيْتها الْبَاذخ، وعزها الشامخ، ونسبها الْعَريق، مُحْتسبة ذلك كُلهُ عند الله، مُسْتقلة له في جنْب مرضاته، وعلى الرغْم مما لقيتهُ أمُّ سلمة رضي الله عنها وصحْبُها منْ حماية النجاشي رحمه الله، فقد كان الشوقُ إلى مهْبط الْوحي مكة المكرمة، والْحنينُ إلى رسول الله ﷺ مصْدر الْهُدى يفْري كبدها وكبد زوْجها فرْيًا.

ثم تتابعت الأخبار على الْمُهاجرين إلى أرض الْحَبشة بأن المسلمين في مكة قد كثُر عددُهُمْ، وأن إسْلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما قدْ شدَّ منْ أزْرهم، وكف شيئًا منْ أذى قريش عنْهُم، فعزم فريقٌ منْهُم على العود إلى أرض الوطن، يحْدُوهُمُ الشوقُ ويدْعُوهُمُ الْحنينُ، فكانتْ أمُّ سلمة وزوْجُها في طليعة الْعَائدين.

لكنْ سرعان ما اكتشف الْعَائدُون أن ما نمى إليهمْ منْ أخبار كان مُبالغًا فيه، وأن الْوَثبة التي وثبها الْمُسلمون بعْد إسلام حمزة وعمر، قد قُوبلت منْ قُريش بهجمة أكْبر، فافْتن الْمُشركُون في تعذيب المسلمين وترويعهم، وأذاقُوهُم منْ بأسهمْ ما لا عهد لهم به من قبلُ.

عبرة

يتبين لنا من هذا الموقف كيف كان المسلمون الأوائل يتعرضون للأذى والكيد من أعدائهم، وكيف كان سلوكهم في مواجهة الكيد، إنهم لم يكونوا يستسلمون لأعدائهم ويداهنونهم، وفي الوقت نفسه لمْ يكونُوا يقاومُون بالقوة والعنف وحالهم لا تسمح لهم بذلك، بل كانوا يقاومُون بالصبر على الأذى مع عرض ما يدعون إليه بالبيان الرائع الذي يمتلك القلوب، ويجبر كل متجرد من الهوى الجامح على أن يميل إليهمْ ويعطف عليهم.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لقد خرَّجتْ تلك الدعوة جيلًا فريدًا مميزًا في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ البشرية كلها، جيلًا فريدًا في تصوره وشعوره وانتمائه ووضوحه، جيلًا اختاره الله لحمل رسالته، ولصحبة رسول الله ﷺ، جيلًا جاءه الوحي على وعي، فتأسس على توحيد، وانطلق بعقيدة، وسار على منهج صحيح، حمل فكرًا ساميًا لغاية أسمى، زاده التقوى، وشعاره الجهاد، وحصنه الإيمان، وعدته الصبر، وخُلقه القرآن، وقدوته سيد الأنام محمد ﷺ، أمنيته الشهادة في سبيل الله ليكون الدين كله لله، وغايته تلك مع الجنة ورضوان الله.

فراق مؤلم

المتعرض لآلام الحياة، يدافعها وتدافعه، أرفع عند الله درجات من المنهزم القابع بعيدًا، لا يخشى شيئًا، ولا يخشاه شيء، وما ادخره الله لأولئك المعانين الصابرين يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من ثواب جزيل، ومن الخلط أن يحسب المسلم تلاحُق الأذى عليه آية على نسيان الله له، وإبعاده من رحمته، لكن هذا الفهم ساد بين المسلمين للأسف في عصور الانحلال والاضمحلال، لكن الجيل الأول، هذا الجيل الفريد، عرف أن الابتلاء امتحان لهم في الحياة الدنيا، لأجل الفوز في اليوم الآخر، فتعالوا بنا لنرى هذا الموقف من الصبر العظيم من الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس رضي الله عنها .

لم ينعم الزوْجان جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس رضي الله عنهما طويلًا بفرحة الرجوع إلى الأهل واللحاق برسول الله ﷺ سوى عام وبضعة أشهر، فقد اعتمر رسول الله ﷺ وصحابته بعد خيبر، وفور عودته إلى المدينة بعث بجيش قوامه ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، أمام عبدة الصلبان، إلى الرومان في مؤتة، واستعمل على الجيش زيدًا بن حارثة وقال: «إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.»

فلما دارت رحى المعركة، واشتد وطيسها، استشهد زيد ثم جعفر ثم ابن رواحة، وعن أخبار المعركة الدائرة في مؤتة كشف الله تعالى الحجاب لرسول الله ﷺ، وأخذ يصف للناس ما جرى في مؤتة وصفًا دقيقًا مؤثرًا، يصف صبر جعفر وهو يحمل لواء الإسلام، فتُقطع يده اليمنى فيحمله باليسرى، فتُقطع اليسرى فيضعه بين فخذيه حتى تُقطع قدماه، ويأخذ الراية عبد الله بن رواحة، ويخبر الرسول ﷺ المسلمين بأن جعفرًا يطيُر إلى الجنة بجناحين.

تقول أسماء بنت عميس رضي الله عنها: أصبحت في اليوم الذي أُصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتاني رسول الله ﷺ، ولقد هنأت، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «يا أسماء، أين بنو جعفر؟» فجئت بهم إليه، فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناهُ فبكى.

فقلت: «أي يا رسول الله ﷺ، لعلك بلغك عن جعفر شيئًا»، قال: «نعم يا أسماء، لقد قُتل اليوم.» قالت: فقمت أصيح، واجتمع إليَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ وقال: «اصْنعُوا لأهْل جعْفر طعامًا، فإنه قدْ جاءهُمْ ما يشْغلُهُمْ.» قالت: فدخل رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة رضي الله عنها وهي تقول: «واعماه»، فقال رسول الله ﷺ: «على مثل جعفر فلتبكِ الباكية.»

ثم دخل رسول الله ﷺ على أسماء بعد اليوم الثالث من استشهاد جعفر، وقال لها: «لا تحدي بعد يومك هذا، يا أسماء لا تقولي هجرًا، ولا تضربي صدرًا»، فسمعت وأطاعت، رضًا بقضاء الله وقدره، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أسماء، ألا أبشرك؟» فقالت: «بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، مثُلك لا يبشر إلا بالخير»، قال: «فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة»، ففرحت وقالت: «بأبي وأمي، فأعلِم الناس بذلك يا رسول الله»، ففعل.

عندئذ اعتصمت أسماء رضي الله عنها بالصبر، فالصابرون يُوفون أجرهم بغير حساب، وقد كتب الله عز وجل للصابرين والصابرات من جليل الأمر وجميل المثوبة ما جعل أسماء تسترجعُ وتتُذْكر قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ البقرة: ١٥٧.

عبرة

يدل هذا الموقف على مدى شفقته ﷺ على أصحابه، فلم يكن شيئًا قليلًا أن يبكي رسول الله ﷺ، وهو واقف في أصحابه يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء، وأنت خبير أيها القارئ الكريم أن بكاءه ﷺ عليهم، لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره، فإن العين لتدمع، والقلب ليحزن، كما قال عليه الصلاة والسلام، فتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليها، فما بالك برسول الله ﷺ.

أيتها الأخوات المؤمنات، إن الثبات على صدق الوفاء من أفضل ما تتحلى به النساء، ولهذا درجت المرأة المسلمة على مواتاة زوجها ومصافاته، واستخلاص نفسها له، واحتمال شدة الطبع منه، وأكُثر ما كان صفاء نفسها، وسماح خلقها، وعذوبة طبعها، إذا استحال الدهر بالرجل فرزأه في ماله، أو نكبه في قوته، أو بدله بكرم المنصب، وروعة السلطان، أعرافًا من السجن، وأصفادًا من الحديد.

بل لقد كان وفاؤها له بعد عفاء أثره، وانمحاء خبره، عديل وفائها له وهي بين أفياء نعمته، وأكناف داره، وكان إيثار الإسلام له بمد حدادها عليه أربعة أشهر وعشرة أيام، لا تتجمل في أثنائها، ولا تزدان، ولا تفارق داره إلى دار أبيها، سُنةً من سنن هذا الوفاء، وآياته، لذلك كانت المرأة المسلمة ترى الوفاء لزوجها بعد الموت، آثر مما تراه لأبيها وأمها وذوي قرابتها، فكانت تؤثر فضائله، وتذكر شمائله في كل موطن ومقام.

إنها جنان يا أم حارثة

إذا نمتْ وشائجُ الإيمان على الحب الصافي، فإن عظائم الأحداث تعجزُ عن فصْم عُراها الوثيقة؛ ولهذا كان إيمانُ أمَّهات الصَّحابة ذا أثر كريم في تربية أولادهن، حيث تركْن حروفًا من النُّور في سجلات العظائم. فتلذُّ الأعينُ بمطالعة سير هؤلاء الأُمهات اللواتي أبدعن في تربية أولادهن، وقد آنس الحلبيُّ رحمه الله القلوب لما تكلم عن أمِّ حارثة الأنصارية رضي الله عنها، فتعالوا بنا هذا المشهد الخالد لأول شهداء غزوة بدر الكبرى.

كانت أُم حارثة الأنصارية رضي الله عنها - الرُّبَيْعة بنْتُ النَّضْرِ - من كرائم نساء الأنصار، يتعلم الإنسان من سيرتها الصدق، والإيمان، وجلال الصبر، والإخلاص لله الواحد القهار، فقد كان ولاؤها للإيمان يفوق حد الإعجاب. كانت رضي الله عنها قد أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ عندما جاء رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، وكانت من السابقات إلى موكب النور، ففاحت فضائلها، وتألقت مواهبها الرائعة في المواقف الإيمانية، ودوَّن التاريخ أعمالها، لتبقى زادًا وضاء لمن يُردن السير على نهجها، والتأسي بصدقها وإيمانها.

كانت الربيعة بنْتُ النضر رضي الله عنها ممن أكرمهُن الله، وأحسن مثوبتهن، فقد أحسنت تربية ابنيها، وأعدت حارثة من جند الحق والجهاد في سبيل الله، ولما جاء يوم بدر، خرج حارثة مصحوبًا بدعوات أمه، ولما بدأت المعركة، فاز بالشهادة، وتحققت نبوءة رسول الله ﷺ فيه، واستجيبت دعوة حارثة أن يكون أول شهداء المسلمين في بدر، فلقد رُمي بسهم فسقط صريعًا في أرض المعركة.

بلغ الربيعة بنْتَ النضر خبرُ استشهاد حارثة رضي الله عنهما وهي بالمدينة، فقالت: «والله لا أبكي حتى يقدم رسول الله ﷺ فأسأله أين حارثة، أفي الجنة فأصبر وأحتسب، إما في النار بكيته، ودعوة الله من أجله.»

جاء الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه من بدر منصورًا، فجاءت إليه أُم حارثة رضي الله عنهما مسرعة، وقالت: «يا رسول الله، ألا تحدثني ماذا فعل حارثة، فإن كان من أهل الجنة صبرتُ، وإن كان من أهل النار اجتهدت عليه في البكاء، لعل الله يرحمه؟» فقال الحبيب ﷺ: «يا أُمَّ حارثة، أوَ هبلتِ؟ إنَّها جنان ثمان، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»، فرجعت أم حارثة وهي تضحك، وتقول: «بخ بخ لك يا حارثة.»

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، تتعلمُ نساء المسلمين من أمِّ حارثة أصول الأمومة، وتربية الأبناء على حبِّ الله ورسوله، فقد أثبتت أمُّ حارثة هذه الأمور عمليًّا، وخاصَّةً بعد أنْ نال ابنُها وسام الشهادة، حيث خرج يوم بدر مع الأنصار إلى الجهاد، ولم تفارقْ مُخيلته صورةُ أُمه التي ودَّعته بالدعاء، وأوصته بالإخلاص والثبات.

إن سنة الله تعالى في الدعوات، والدعاة، أن يقع الابتلاء على المؤمنين، وألا يترك الأمر للادعاء فقط، فهذا يتساوى به الجميع، إنما يتم الاختبار من خلال المحنة، فيُكتشف الدعي من الصادق، تمامًا كُمَا يتمُّ اختبار المعدن النفيس بالنار، وكلما ازداد صهره انكشفت جودته، أو خساسته.

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين، وهي التي تُدخل الناس في دين الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، وهكذا كان الجيل الأول الذي تربى من خلال المحنة، فهو لذلك جيل فريد، أقدم على اختيار طريق الإسلام، وهو يعرف تكاليف هذا الطريق، يستوي في هذا الأمر الحر والكريم في قومه، والعبد، والمرأة، والصبي.

سيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا

إن تكاثر المصائب إشارة إلى ما يُرشح له المرء من خير، وما يراد له من كرامة، وكثيرًا ما تكون الآلام طهورًا يسوقه القدر إلى المؤمنين، ليصادر ما يستهوي ألبابهم من متع الدنيا، فلا تطول خدعتهم بها، أو ركونهم إليها، ورب ضارة نافعةٌ، وكم من محنة في طَيها منح ورحمات؛ والتريث، والمصابرة، والانتظار، خصال تتسق مع سنن الكون القائمة. على أن المسلم إذا احتمى بالله ولجأ إليه، فلَّ حدَّ الحوادث، فضعف حرُّها في بدنه، وكثيرًا ما يكون اليقين البالغ طاغيًا على الآلام الحادة طغيان المُغيب في العمليات الجراحية الخطيرة، ولن تفارق المؤمن رحمة الله ما دام دينه لا يهي في الأزمات، ويقينه لا يزيغ لدى الشدائد. وكان موقف أمِّ المؤمنين أمِّ حبيبة رضي الله عنها في الحبشة هو النموذج الأمثل في الصبر والرضا والإيمان، فتعالوا لنرى هذا المشهد الذي كتبه التاريخ بحروف من نور.

لما وصلت طليعة المهاجرين إلى الله الفارين بدينهم إلى الحبشة، كانت أمُّ حبيبة رملة بنْتُ أبي سفيان رضي الله عنهما تشعر بلوعة الغربة، وتحن إلى وطنها ورؤية أهلها، وتتمنى من أعماق قلبها أن يهدي الله أباها زعيم القوم، وقائدهم في الحرب والسلم، وأن يهدي سائر أهل مكة، وهو على كل شيء قدير، ما كان يؤنسها في وحدتها سوى زوْجها عبيد الله بن جحش. ومرت الأيام عليهم في الحبشة، وحسُبت أم حبيبة بعد ذلك أن الأيام صفتُ لها بعد طول عُبُوس، وأن رحلتها الشاقة في طريق الآلام، قد أفضتُ بها إلى واحة الأمان، إذ لم تكُنْ تعلمُ ما خبأته لها المقاديرُ.

فقد شاء الله تباركتُ حكمتُهُ، أن يمتحن أم حبيبة رضي الله عنها امتحانًا قاسيًا، تطيش فيه عُقُولُ الرجال ذوي الأحلام، وتتضعضع أمامه أفهامُ ذوي الأفهام، وأن يخرجها الله من ذلك الابتلاء الكبير ظافرة تتربع على قمة النجاح. ففي ذات ليلة أوت أمُّ حبيبة إلى مضجعها، فرأت فيما يراه النائم، أن زوجها عبيد الله بن جحش يتخبط في بحر لُجيٍّ غشيته ظلمات بعضها فوق بعض، وهو بأسوأ حال، فهبَّتُ من نومها مذعورة مضطربة.

ولم تشأ أن تذكر له أو لأحد غيره شيئًا مما رأت، لكن رؤياها ما لبثت أن تتحقق، إذ لم ينقضِ يوم تلك الليلة حتى كان عبيد الله بن جحش قد حالف الشيطان، وارتد عن دينه وتنصر، وكان قديمًا قد دان بالنصرانية زمنًا، ثم تذبذب فيها وارتد عنها، وعاد إلى عبادة الأصنام، فكان ارتداده عن الإسلام بعد أن هداه الله إليه فاجعة مؤلمة في حياة أم حبيبة.

ثم أكب عبيد الله بن جحش على حانات الخمارين يُعاقر أم الخبائث فلا يرتوي منها ولا يشبع، وقد خيرها بين أمرين أحلاهما مُر: فإما أن تُطلق، وإما أن تتنصر. وجدت أُم حبيبة رضي الله عنها نفسها فجأة بين ثلاث: فإما أن تستجيب لزوْجها الذي جعل يلح في دعوتها إلى التنصر، وبذلك ترتد عن دينها، والعياذ بالله، وتبوءُ بخزي الدنيا، وعذاب الآخرة، وهو أمر لا تفعله، ولو مشط لحمها عن عظمها بأمشاط من حديد.

وإما أن تعود إلى بيت أبيها في مكة، وهو ما زال قلعة الشرك، فتعيش مقهورة مغلوبة على دينها؛ وإما أن تبقى في بلاد الحبشة، وحيدة فريدة شريدة لا أهل لها، ولا وطن، ولا مُعين. فآثرت من عند الله عز وجل على ما سواه، وعزمت على البقاء في الحبشة حتى يأتي الله بفرج من عنده، اعتزلت رملة الناس شاعرة بالخزي لفعلة الرجل الذي كان لها زوْجًا، ولطفلتها والدًا.

وأغلقت الباب عليها، وعلى وليدتها، مضاعفة الغربة، لا تريد أن تلقى الناس في دار هجرتها، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن وهناك زعماء مكة يعلنون حربًا شرسة على النبي ﷺ الذي صدقت وآمنت به. حتى جاءها السعد يُرفرفُ بأجنحته فوق بيتها المحزون على غير ميُعاد، فلقد خطبها النبي ﷺ لنفسه.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، تحملت أم المُؤمنين رملة بنْتُ أبي سفيان رضي الله عنهما أذى قومها، وتحملت هجر أهلها، والغربة عن وطنها وديارها، كل ذلك لتحيى حياة الإيمان والإسلام، بعيدًا عن الشرك والعصيان، وحينما استقرت في الحبشة آمنة مطمئنة، فاجأتها محنة شديدة وعصيبة، تلك المحنة هي ردة زوجها عن الإسلام، وتنصره بعد أن هداه الله للإسلام، إنها محنة منكرة، الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، والنجاشي أعلن إسلامه، وأسلم كبار البطارقة، وهذه زوجها تنصر، وشرب الخمر وعاقرها، حتى مات من شرب الخمر، هل هناك محنة أقصى من هذه المحنة؟ أقرب رجل إلى المرأة زوجها، زوجها أصبح يعاقر الخمر، من البطولة إلى معاقرة الخمر!

يا أيتها الأخوات الكريمات، صدقوا أنه ما ترك عبد شيئًا لله إلا عوضه الله خيرًا منه في دينه ودنياه. والله أعرف شبابًا مؤمنين مستقيمين ورعين، كلُّ الطرق أمامهم مسدودة، ولا يوجد أمل أن يتزوج، هناك من طَرَقَ بيته، وعرض عليه ابنته مع بيت وفرش، ومع مبلغ لتأمين حاجاته. هذا شيء دائم، فما من إنسان يعف عن الحرام ابتغاء وجه الله، إلا وله من الله معين، إلا وله من الله نصير، العبرة أن تكون مطيعًا لله، البطولة أن تطيعه ولا تعبأ بما سوى ذلك، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك؟

وقوف في وجه العاصفة

لم يجعل الله الحياة الدنيا دار جزاء وقرار، بل جعلها دار تمحيص وامتحان، والفترة التي يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات، يخرج من امتحان ليدخل في امتحان آخر قد يغاير الأول مغايرة تامة، أي إن الإنسان قد يُمتحن بالشيء وضده، مثلما يصهر الحديد في النار ثم يُرْمى في الماء. وكذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفًا من الابتلاء، ربما انتهت بمصارعهم، وليس أمام الفرد إلا أن يستقبل البلاء الوافد بالصبر والتسليم. وما دامت الحياة امتحانًا فلنكرس جهودنا للنجاح فيه، فتعالوا بنا لنرى كيف فازت أمُّ المؤمنين خديجة بنت خُويلد رضي الله عنها في هذا الامتحان الصعب.

لقد غاظ المشركينُ إسلام بعض أشراف مكة وزعمائها، خاصة حينُما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حيث امتنع بهم المسلمون، وعز بهم الإسلام، فأقدم المشركون على أسوا وأخطر محاولة فكروا فيها، وهي القضاء على حياة النبي ﷺ، واجتمع أمرهم على ذلك.

وازدادتْ قُريشٌ في تعذيبها للرسول ﷺ وللمسلمين، وأخيرًا اتفق مشركو مكة على أن يقْتلوهم جوعًا وعطشًا، فيحاصرُوهم في شعب أبي طالب، ويمْنعُوا عنْهم القوت، ويُشددوا عليهم الحصار حتى يقضْى عليهم، أو يتركوا محمدًا، فتموت دعْوتُه، وهو ما يُحاولُون أن يبْلغُوه. كتبوا بينهم كتابًا، تعاهدوا فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ومنْ يتْبعونهم، ألا يبيعوهم شيئًا أو يبْتاعُوا منهم شيئًا، أو يُخالطوهم، أو يُشاركوهم أو يصاهروهم، وأنْ يكونوا يدًا واحدة عليهم، وعلى من يعْطف عليهم، أو يُدافعُ عنهم.

دخلت السيدة خديجة بنْتُ خُويلد رضي الله عنها مع المسلمين في شعب بما اسْتطاعت من المال والزاد، وبشجاعة لا تعْرف الخوْف، وعزيمة لا تعْرفُ الضعْف، وهمة لا تعْرفُ الكلال، والمُشْركون لا يودُّون أنْ تدْخُل معهم؛ خوفًا منْ تدْبيرها، لا يشكُّون في أنها ستُفْسد عملهم كُله وهي داخل الحصار. وتم قطع الزاد عن المحاصرين، وكل يوم ينْقصُ الزادُ، ويشحُّ القُوتُ، حتى نفد كُلُّه ولم يبْقَ منه شيءٌ، فجعلوا يدُورون في الشعب يبْحثون في أرْضه عن شيء يخفف ألمُ الجوع، ويأكلون ما يصادفهم منْ أوراق الشجر، فهزلت الأجْسام، وانْهدت القُوى، وجفت أثْداءُ الأمهات، وانقطع لبنُها.

والسيدة خديجة رضي الله عنها بيْنهم صامدةٌ، تضْرب للناس المثل في الشجاعة والصبْر، وتُشجعُهم بكلامها الرقيق، وقد بذلت كل ما اسْتطاعت من مال، ومن مُواساة، وكانت قوية النفس، كبيرة القلب، تزْدادُ بسْمتُها اتساعًا كلما اشتدت المحْنةُ، وطغى البلاءُ. ومع أنها كانت في وسط الجموع المسلم دخل الشعب، بعيدة عن قريش، إلا أنهم كانوا يخْشوْنها، ويُشددون مُراقبتهم لها، ولمنْ يتوقعون أن يصل إليهم تدبيرُها.

وقد أحسُّوا مع إحْكام هذا الحصار الظالم، وشدة المراقبة، بأن بعض الطعام يدْخُلُ الشعب، فزادُوا المراقبة، وزاد نشاط أبي جهْل المُشرف على الحصار، ولم يعُدْ يهدأُ أبدًا، يدُورُ صارخًا، مهددًا، يقول بأعلى صوته مُحذرًا: «سوْف أُفْسد على خديجة كُل تدْبير، سوْف أُحْكمُ حلقات هذا الحصار عليها قبل سواها، ولن يستطيع أحدٌ من أقاربها أو أتْباعها أنْ يخْترق هذا الحصار.»

فقد كانت خديجة تقوم بعمليات جهادية أثناء الحصار، بإمداد المسلمين المحاصرين وأهليهم بالزاد، وقد وضعت مع ابن أخيها حكيم بن حزام خُطة الإمداد، حيث كان يحمِّل الجمال بالطعام، ويقودها إلى فم الشعب، ثم يطلقها لتدخل الشعب لأبي طالب. وفي يوم وصل الأمرُ إلى معركة بين حكيم بن حزام وصديق له وأبي جهل، حيث لقي أبو جهل حكيمًا ومعه غلام يحمل قمحًا يريد أن يدخل به شعب أبي طالب، فتعلق أبو جهل بحكيم بن حزام.

وقال له: «أتذهبُ بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة»، فجاء أبو البختري بن هشام بن الحارث فقال لأبي جهل: «ما لك وله؟» فقال: «يحمل الطعام إلى بني هاشم»، فقال أبو البختري - وكان يكره أمر الصحيفة والمقاطعة والحصار: «طعام كان لعمته خديجة عنده فبعثت إليه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ سبيل الرجل!» فأبى أبو جهل، واشتد على أبي البختري، فأخذ أبو البختري لحي بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطئًا شديدًا، وكان هذا الموقفُ من أسباب نقض الصحيفة، ورفع الحصار عن المسلمين.

عبرة

ظلت الطاهرةُ أمُّ المُؤْمنين خديجةُ رضي الله عنها من وراء رسول الله ﷺ، تشُد أزره، وتشاركُه في حمل الأذى من قومه بنفس راضية، صابرة محتسبة، حتى قضى الله تعالى قضاءه في هذه المقاطعة الظالمة المريرة، التي مكثت سيفًا مصلتًا على أعناق المحاصرين المؤمنين برسالة محمد ﷺ.

انتهى الحصارُ، وخرجت الطاهرةُ خديجةُ من الحصار ظافرة بثمرة صبرها لتتابع مع رسول الله ﷺ سيرها في الحياة، زوجة وفية أمينة مستظلة بظل الوفاء، وصدق الإيمان، وحسن الصبر. وفي ثبات المسلمين على هذه الشدة الرهيبة جعلهم الله من أصحاب المقام الرفيع في الآخرة.

الشجاعة النادرة

كانت المرأة رمزًا من رموز القوة في العصر الأول للإسلام، فتحملت المسؤولية، واحتمال التبعة، محتسبة الموقف العصيب بكل مضاعفاته في سبيل الله، وارتفعت بذلك بكل هواتف الضعف في كيانها كامرأة، وكانت على مستوى المسؤولية، مسؤولية الإيمان الذي صاغ منها سلاحًا من أسلحة القدر، فكانت بصبرها وبيانها، صورة التحدي الإسلامي، الذي صار شوكة في حلق العدو، فتعالوا بنا لنرى هذا الموقف العظيم لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في الهجرة.

لئن سلمت أسماء بنْتُ أبي بكر رضي الله عنهما من عثرات الطريق إلى الغار في رحلة الهجرة المباركة، لكن نالتها الشدائد والآلامُ من بلاء قريش وأذى كبرائها، وهي آمنة في دارها، فلقد أتاها نفر منْ أكابر مجرمي قريش على رأسهم أبو جهل، فوقفوا على باب أبي بكر ذات صباح ليتعرفوا منها أمر أبيها ورسول الله ﷺ.

فقد كانت الهجرة سرًّا لا يعرفه في مكة إلا رجل وامرأة: علي بن أبي طالب، وأسماء بنْتُ أبي بكر رضي الله عنهما، فقالوا لها: «أين أبوك يا بنْتَ أبي بكر؟» فأبت أن تذيع السر، فأنكرت أمره، وتجاهلت خبره، وقالت: «لا أدري والله أين أبي.»

في ذلك الوقت، أمعنوا في محنتها، واشتدوا في أذاها، حتى لطمها عدو الله النذل الفاحش الخبيث أبو جهل لطمة، فوقع منها قرطها، وهي حامل، وكذلك يفعل كل جبان، عجز عن أن يضرب الرجال، فضرب امرأة حاملًا، وهكذا هم الجبناء في كل عصر، غير أن هذه لطمة القوية لم توهن عزيمتها، ولم يعبث بمكنون سرها، ولم يزدها ذلك إلا إيمانًا بالله عز وجل وتسليمًا لقضائه، فهو العليم الخبير.

عبرة

هذا درس منْ أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلًا بعد جيل، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم.

وهنا أيضا مثُل منْ أُمثلة طغيان الكفار وجبروتهم، ولقد كُانْ منْ عادة العربَ تكُريم النساء، والترفع عن الاعتداء عليهن لأنهُم يعدُّون ذلك مما يخل بالمروءة، ويسقط الكرامة، ولكنْ أبو جهل لخبثه، وشدة حقده على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام، تناسى العرف السائد بين العرب، وأفرغ حقده في لطم تلك الفتاة البريئة، بعد أنْ عز عليه لطم الرجال، والظفر بهم.

بطولة نادرة

كانت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها من أولئك اللاتي تألق ذكرهن في تاريخ المؤمنات الصابرات الصادقات، وكانت رضي الله عنها من خيار المجاهدات اللاتي ضربن بسهم وافر في نصرة الإسلام، في كثير من المواطن، وأثبتت للعالمين أن المرأة المسلمةَ لو تسلحت بالإيمان الكامل، والعز الصادق، والإرادة القويةَ، لصنعت المعجزات، وضربت أُروع الأمثال في البطولة النادرة، والشجاعة الخارقة للعادة. إنها امرأة آمنت بربها، واستمسكت بالعروة الوثقى، وزادها الله يقينًا وهدى، ومنحها القوة على تحمُّل الشدائد، ومواجهة الصعاب.

انْضمت صفيَّةُ بنت عبد المُطلب إلى موْكب النُّور، هي وفتاها الزبير بن العوام رضي الله عنهما، وعانتْ ما عاناه المسلمون السابقون من بأس قريش، وعنتها وطغيانها، فلما أذن الله لنبيه والمؤمنين معه بالهجرة إلى المدينة، خلفت صفية رضي الله عنها وراءها مكة بكل ما لها فيها من ذكريات، ويممتْ وجهها شطْر الْمدينة، مُهاجرة بدينها إلى الله ورسوله. وعلى الرغم من أن هذه السيدة العظيمة كانت يوْمئذ تخْطُو نحو الستين من عمرها المديد الحافل، فقد كان لها في ميادين الجهاد مواقفُ ما يزالُ يذكرها التاريخ بلسان نديٍّ، ومنها يوم أُحُد.

ففي معركة أُحُد خرجتْ مع جند المسلمين في ثُلَّةٍ من النساء جهادًا في سبيل الله، فجعلتْ تنقل الماء، وتروي العطاش، وتبري السهام، وتصلح القسي. وكان لها مع ذلك غرض آخر، هو أن ترْقب المعركة بمشاعرها كلها، ولا غرْو في ذلك، فقد كان في ساحتها ابْن أخيها نبي الرحمة ﷺ، وأخوها حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله، وابنها الزبير بن العوام حواري رسول الله والفتى الباسل. وفي المعركة قبل كل ذلك مصيرُ الإسلام الذي اعتنقته راغبة، وهاجرت في سبيله راضية محْتسبةُ، وتركت من أجله كل شيء في صحراء مكة المكرمة.

وعندما أصبح الريح للمشركين، وحاول المشركين قتل النبي ﷺ، ورأت المسلمين ينكشفون عن رسول الله إلا قليلًا منهم، ووجدت المشركين يوشكون أن يصِلوا إلى النبي ويقضوا عليه؛ طرحتْ سقاءها أرضًا.

طبعًا هذا موقف شخصي، المرأة ليست مكلفة بالجهاد، لكن هذا موقف شخصي، المرأة عمرها ستون عامًا، وعملها في المعركة عمل إنساني، لكن لما رأت النبي ﷺ ابن أخيها قد انكشف الناس عنه، واضطرب المسلمون، ألقت السقاء، وهبَّت كاللبؤة التي هوجم أشبالها، وانتزعت من يد أحد المنهزمين رمحه، ومضت تشقُّ به الصفوف، وتضرب بسنانه الوجوه، وتزأر في المسلمين قائلةً: «وَيْحكم، انهزمتم عن رسول الله!» فلما رآها النبي ﷺ مقبلة، خشي عليها أن ترى أخاها حمزة وهو صريع، خاف على مشاعرها، فهو يعرف مدى حبها لحمزة.

فأشار النبي الكريم ﷺ إلى ابنها الزبير قائلًا: «المرأةَ يا زبير، المرأةَ يا زبير، أمَّك يا زبير، أبعِدْها عن ساحة المعركة»، فأقبل عليها الزبير وقال: «يا أمي إليك، يا أمي إليك»، قال: ضربتني في صدري، ثم قالت لي: «تنحَّ عني لا أمَّ لك!» قال: «إن رسول الله يأمرك أن ترجعي»، قالت: «ولمَ؟ إنه قد بلغني أنه مُثِّل بأخي، وذلك في الله»، فقال له النبي الكريم: «خلِّ سبيلها يا زبير»، فخلَّى سبيلها.

فلما وضعت المعركة أوزارها، وقفت صفية وهي في السِّتِّين من عمرها على أخيها حمزة، فوجدته قد بُقِر بطنُه، وأُخرِجتُ كبدُه، وجُدِع أنفه، وثُلِمتْ أذناه، وشُوِّه وجهه، فاستغفرت له

وجعلت تقول: «إن ذلك في الله، ولقد رضيتُ بقضاء الله، واللهِ لأصبرنَّ، ولأحتسبنَّ إن شاء الله» - هنا عظمة المؤمن، فهو كالجبل الرواسي، وليس أقل مصاب يقلبه ويهز أعماقه - وأخذت تردد قول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩ ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، هنا تظهر عظمة المؤمن، فهو كالجبل رسوخًا، وليس أقل مصاب يقلبه ويهز أعماقه، فمِنَ الناس اليوم مَن يشك في القضاء والقدر، ولأَقَلِّ مصاب يقول لك: واللهِ أنا محتار، إيماني تزلزل، ما هذا الإيمان الذي عندك؟ هذا ليس إيمانًا، هذا مِن ضعف الإيمان.

لقد رضيت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، وسلمت لأمر النبي ﷺ لها بالرجوع، بينما كانت قبل ذلك تخاطب ولدها الزبير رضي الله عنه بعنف وتضرب صدره، ظنًّا منها أنه هو الذي يمنعها من رؤية أخيها حمزة رضي الله عنه، والوقف عند أوامر النبي ﷺ دليل على قوة الإيمان.

دودة الكتب حرامية

الوفية الصابرة

الحياة الدنيا لا تسير على وتيرة واحدة، ولكنها تأخذ أشكالًا كثيرة، وصورًا متعددة، لا يدوم متاعها، ولا يستقر زخرفها، وإنما تتقلب الأحداث، وتتغاير الوقائع بإرادة الله تعالى. إن الحياة الدنيا لو كانت خيرًا كلها، لما تركت للآخرة ثوابًا، ولما عمل الإنسان لغيرها، ولو خلت الدنيا من الكوارث والابتلاءات، لتلهى الإنسان بمتاعها، وعاش فيها مغرورًا راضيًا؛ ولذلك قدر الله في الحياة المحن والبلاء ليظهر المؤمن الصادق من المنافق الكذوب، يقول رب العزة تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ (الملك: ٢).

ولقد مر الجيل الرباني رضي الله عنهم بكثير من الابتلاءات، ولقد تغلبوا على هذه المحن والابتلاءات بروح الإيمان، واليقين، والصبر، ولقد كان أصعب هذه الابتلاءات ما حدث للمسلمين يوم أُحُد، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الفريد من هذه الغزوة.

من ابتلاءات يوم أُحُد، وتغلب روح الإيمان على المصائب، ما حدث للصحابية الجليلة حمنة بنت جحش رضي الله عنها، زوْجة الداعية الأول للإسلام مصعب بن عُمير رضي الله عنه، فإنها رضي الله عنها أُصيبت بعدد من أهلها، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقال لها: «يا حمنة، اصبري واحتسبي، أجرك عند الله.»

قالت: «بأبي أنت وأمي، من يا رسول الله؟»

قال: «في خالك حمزة بن عبد المطلب.»

قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، ورحمه الله، هنيئًا له الشهادة.»

ثم قال: «اصبري، واحتسبي، أجرك عند الله.»

قالت: «من يا رسول الله؟»

قال: «أخوك عبد الله بن جحش.»

قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، ورحمه الله، هنيئًا له الشهادة.»

ثم قال لها: «اصبري، واحتسبي، أجرك عند الله.»

قالت: «من يا رسول الله؟»

قال: «في زوجك، مصعب بن عُمير.»

عند ذلك قالت: «وا حزناه»، وفي رواية أنها قالت: «وا عقراه!!» فقال ﷺ: «إن للزوج من المرأة مكانًا ما هو لأحد.» ثم قال لها: «لم قلت ذلك يا بنت جحش؟» فقالت: «يا رسول الله، ذكرت يتم بنيه فراعني ذلك.» فدعا رسول الله ﷺ لولده أن يحسن الله عليهم الخلف، فتزوجت طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فولدت له محمد بن طلحة، وكان أوصل الناس لأولادها.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، كانت هزيمة أُحُد بعد انتصار بدر، سببًا في إقبال المسلمين على الله بعد ذلك، والتزامهم بطاعة الله ورسوله، حتى نصرهم الله تعالى في كل المواطن، وإن الابتلاء

بصورة عامة يمحص الجبهة الإسلامية، فهو يطهر القلوب، ويخلصها من شوائب المادة، وثقل الغرائز، لأن القلوب تخالطها الشهوات، وتؤذيها الخواطر النفسية، وتحكمها العادات، وتستولي عليها الغفلة، ويلعب بها الشيطان، وهي في حاجة مستمرة للمجاهدة والتوجيه والإنذار، ولذلك اقتضت حكمة العزيز الرحيم أن يقيض لها من المحن والبلاء ما يكون كالدواء الكريه مذاقه وفيه الشفاء، فكانت نعمته سبحانه وتعالى عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتْل من قُتل منهم، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم، وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وذاك.

دودة الكتب حرامية

روائع من إيثار الصحابيات

دودة الكتب حرامية

بشر صاحبك غلام

إذا كان أمير المؤمنين عُمر بْنُ الخطاب رضي الله عنه يقضي حوائج المسلمين بنفسه، فإن زوْجَه أمَّ كلثوم بنْتَ علي رضي الله عنهما لمْ تكن أقلَّ منه رتبة في هذا الشأن، فقد كانت تشد أزره في الخيرات، وتشاركه في تخفيف الألم عن الناس، وكيف لا، وهي سليلة بيت النبوة الطاهر، وزوْج التقي الزاهد عمر، فقد كانت كلما رُفعت راية الخير تلقتها أمُّ كلثوم رضي الله عنها باليمين لتفوز بالأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

فتعالوا نحضر ليلة منْ ليالي المدينة المنورة مع هذين العلمين، تلك الليلة التي حلَّق كلٌّ واحد منهما عاليًا في سماء الفضيلة، وارتقى سدة المروءة والنجدة.

ففي ذات ليلة كان عمر في جولة يعسُّ بالمدينة والناس نيام ليطمئن على رعيته، ويبلو أخبارهم، ويتعرف على أحوالهم، ويقضي حاجتهم، ومَر عمر بظاهر المدينة برحبةٍ من رحابها، فإذا هو بيتٌ من شَعر - خيمة - يلوح وسط الظلام لمْ يكن في الليلة الفائتة، فدنا منه فسمع أنين امرأة ينبعث منْ داخل الخيمة، ورأى رجلًا قاعدًا فاقترب منه وسلم وسأله: «يا أخا الإسلام، من الرجل؟»

فقال: «رجلٌ من أهل البادية، جئت إلى أمير المؤمنين أُصيب من فضله»، فقال: «ما هذا الصوت الذي أسمعه في الخيمة؟» قال الرجل: «انطلق يرحمك الله لحاجتك»، وهو لا يعرف مع من يتكلم، فقال: «عليَّ ذلك، ما هو؟» فقال الرجل: «امرأتي جاءها المخاض»، قال عمر: «هل عندها أحد؟» قال الرجل: «لا، فإنا هنا وحيدان غريبان عن المدينة.»

وانطلق أمير المُؤْمنين عمر مسرعًا حتى أتى منزله، فقال لأم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما: «هل لكِ من أجرٍ ساقه الله إليكِ؟» قالت: «وما هو يا أمير المُؤْمنينْ؟» قال: «امرأةٌ غربية تمخض، ليس عندها أحد»، قالت أم كلثوم: «نعم، إن شئت»، قال: «فخذي معكِ ما يصلح المرأة لولادتها، وجيئيني ببرمةٍ، وشحمٍ، وحبوب»، قال: فجاءت به.

فقال لها: «انطلقي»، وحمل البرمة - وهي القدر الذي يطبخ فيها - ومشت خلفه حتى انتهى إلى الخيمة، فقال لها: «ادخلي إلى المرأة»، وجاء حتى قعد إلى الرجل، وجهز القدر فقال له: «أوقد لي نارا»، ففعل، فأوقد تحت القدر حتى أنضجها.

وما هي إلا سويعة حتى ولدت المرأة، وانبعث بكاء الوليد من داخل الخيمة، فخرجت أمُّ كلثوم فقالت: «يا أمُير المُؤْمنين، بشِّر صاحبك بغلام.»

فلما سمع الرجل «يا أمير المؤمنين» دُهش، واستعظم ذلك، وجعل يتنحى عنه على استحياء، وأخذ الرجل يعتذر إلى الفاروق، فقال له: «مكانك يا أخي كما أنت، لا بأس عليك»، ثم حمل القدر فوضعه على باب الخيمة، ونادى: «يا أمَّ كلثوم، خذي القدر، وأطعمي صاحبتك»، وبعْد أنْ فرغت منْ طعامها، جعلت القدر أمام باب الخيمة، فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدي الرجل، وقال: «كُل يا أخي، فإنك سهرت من الليل وتعبت»، فأكل الرجل.

ثمُ نادى عمر زوْجته أمَّ كلثوم، وقال: «اخرجي يا بنْتَ علي»، ثم التفت إلى الرجل وقال: «إذا كان الغد فأتنا، نأمر لك بما يصلحك إن شاء الله تعالى.» ففعل الرجل ووصله عمر، وأعطاه وردَّه بما يصلحه وأهله، فانقلب الرجل إلى أهله مسرورًا.

عبرة

كان سرور أمِّ كلثوم رضي الله عنها لهذا الأجر الذي ساقه الله إليها؛ لأنها كانت السبب في إدخال السعادة إلى قلب امرأة مسلمة غريبة، فاجأها المخاض في ساعة لا يعلم بحالها أحد إلا الله تعالى، وهكذا تابعت أمُّ كلثوم حياتها المعطاء مع الفاروق، وهما يعملان على ما يرضي الله عز وجل حتى استشهد عمر رضي الله عنه.

يا أيتها الأخوات الكريمات، عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل لا يتكلف البساطة، بل يتنفسها، ويُوطئ أكنافه في غبطة للكبير والصغير، فأين مظاهر السلطان، حتى المشروع والضروري منها، لكن عمر لم يكن رجل سلطان؛ لأنه فوق السلطان، فهو لا يستعير عظمته من شيء خارج نفسه، إنما يهب العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به، فأي تواضع، وأي بساطة، وأي حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان الذي رفع الله به من قدر الحياة.

دودة الكتب حرامية

المؤمنة العاقلة

ما زلنا نتعايش بقلوبنا في هذا الكتاب مع البستان الذي لا ينتهي عبيره، ولا تجف أرضه، ولا تنقطع ثماره وأزهاره، إنه بستان أسرة الصديق رضي الله عنه ، مع زهرة هذه الأسرة الغالية التي غُرست في حقل الإسلام، وسُقيت بماء الوحي، فنثرت عبيرها في الآفاق على مدار الأيام والأعوام، فكانت سيرتها، وما زالت، تطيب القلوب والأسماع بذكرها، إنها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، فقد ورثت رضي الله عنها عن أبيها الكثير والكثير من شمائله المرضية، وملكاته النفسية، وجمعت لنفسها ما لم تجمعه فتاة في سنها، وقامت بأعمال بطولية نادرة، وهذه أحدها.

نذكر في شجون موقفًا وضيئًا لأسماء بنْتِ أبي بكر رضي الله عنهما يدل على سعة أفقها، وكُمال عقلها، وصدق إيمانها، وقُد كُانْ إيمانها كعقلها، وكُانْتُ مُتحكَمة أبدًا في أعصابها.

لما كانت الهجرة حمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه ماله كُله معه، لا ليحرم منه أسرته، بل ليعين رسول الله ﷺ على دعوته، التي كان يراها أَولى منْ نْفسه وأسرته.

فعن أسماء بنْتِ أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كُلهُ، معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه، قالت: فدخل علينَا جدي أبو قحافة، وقد ذهُب بصره.

فقال: «والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه.» فقالت: قلت له: «كلا يا أبت، إنه ترك لنا خيرًا كثيرًا.»

قالت: فأخذت أحجارًا فوضعتها في كُوة البيت، كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: «يا أبتِ ضع يدك على هذا»، فوضع يده عليه، فقال: «لا بأس يا بنية، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم.» ثم قالت: «لا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني أُردتُ أنْ أسكُن الشيخ بذلك.»

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، بهذه الفطنة والحكمة، سترت أسماء رضي الله عنها أباها، وسكُنت قلب جدها الضرير، منْ غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًّا هذه الأحجار التي كومتها لتطمئن لها نفُس الشيخ، إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، ورثهم يقينًا وثقُة به لا حد لهما، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور، ولا تلتفت إلى سفسفها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالًا عز أن يتكرر، وقلَّ أن يوجد نظيره.

الوفية الصادقة

لما أقبلت الدنيا على الصحابة (رضوان ربي عليهم) جعلوها في أيديهم، وسخروها في مرضاة ربهم، أرقتهم حتى إذا ما أخرجوها في مرضاة ربهم نام الواحد منهم قرير العين، هادئ البال، ولساناه يقول: ما لي وللدنيا.

فها هو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه كان تاجرًا واسع التجارة، عظيم الثراء، فجاءهُ ذات يوم مال من حضرموت قدره سبعمائة ألف درهم، فبات ليلته تلك خائفًا، وجلًا، جزعًا، محزونًا يتململ، وقد جافاه النوم.

فدخلت عليه زوجته أمُّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وقالت: «ما بك يا أبا محمد؟ لعله رابك منا شيء»، فقال: «لا يا أم كلثوم، ولنعم الحليلة للرجل المسلم أنت، ولكن تفكرت منذ الليلة، وقلت: ما ظن رجل بربه إذا كان ينام، وهذا المال في بيته!!»

أيها الأخوات الكريمات، أهل الدنيا يتململون ويأرقون ويقلقون في كيفية تصريف هذا المال لتتضخم الثروة، وتحصل السعادة الوهمية بتزايد المال، أما طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فيتململ من تكاثر المال عنده خشية أن يحاسب عنه يوم القيامة، مع أنه ليس إلا الحلال المحض، والله ما هو رشوة ولا ربا، ولا حيلة ولا غش، ولا شبهة، حاشاه رضي الله عنه.

لكنها تربية النبي ﷺ الذي ثبت عنه كما في صحيح أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما فعل الذهب؟» - وأي ذهب؟ إنها سبعة دنانير فقط - قالت: «هي عندي يا رسول الله»، قال: «ائتيني بها»، قالت: فجئت بها فوضعها في يده، ثم قال: «ما ظن محمد بالله لو لقي الله عز وجل وهذه عنده، أنفقيها يا عائشة.»

وطلحة رضي الله عنه قبسٌ من ضوئه، ولا يتخلف عن ضوئه: «ما ظن عبدٌ بربه يبيت وهذا المال في بيته»، فقالت زوجه الوفية الصادقة: «فأين أنت من فقراء أخلائك، إذا أصبحت فادع بجفان وقصاع فقسمه فيهم، ونم قرير العين يا أبا محمد.» الله أكبر! ما أعظم التفكير، وما أبلغ المشورة، وما أصدق السلوك، فقال لها: «رحمك الله، والله إنك لموفقة بنت موفق.»

فلما أصبح طلحة دعا بالجفان والقصاع، فقسمها بين فقراء المهاجرين والأنصار، فقالت زوجته أم كلثوم رضي الله عنها: «أبا محمد، أما لنا فيه من نصيب؟» قال: «شأنك بما بقي»، فإذا هي صرةٌ بألف درهم.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن الزوجة الصالحة أكبر عون لزوجها على فعل الخير، إن المعروف المألوف أن تحاول الزوجة أن تتوسع مع ذويها بالمال، فإذا وُجدت من تكسر هذا المألوف وتشير على زوجها وتدله إلى الخير، فهذا غاية التوفيق والرشاد والسداد، لقد أيقظت في نفسه دوافع الخير التي يملك منها رصيدًا ضخمًا، فأثنى عليها وهي للثناء أهل، وهكذا يجب أن تكون الزوجة الصالحة يا بنت الإسلام.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن الصدقات التي نبذلها، على اختلاف صنوفها، من زكاة، أو هبة، أو نفقة، أو غير ذلك، جليلة الخطر في معاش الإنسان ومعاده، وعلى أساسها تضعف أو تقوى صلة المسلم بدينه، ولن يحرم المرء كبخله في الحقوق، وسوء ظنه بالله، ولن يسبق به كجوده

وثقته في فضل.

إذا انزلق المسلم إلى ذنب، وشعر بأنه باعد بينه وبين ربه، فإن الطهور الذي يعيد إليه بقاءه، ويرُد إليه ضياءه، ويلفه في ستار الغفران والرضا، أن يجنح إلى مال عزيز عليه، فينخلع عنه للفقراء والمساكين، زلفى يتقرب بها إلى أرحم الراحمين.

إيثار يفوق الخيال

كانت أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما حياتها نبعًا للحكمة البليغة، والأسلوب الفصيح المعبر عن خلجات نفسها الزكية، وعظمة أُخلاقها السوية، فقد ورثت عن أُبيها الكثير والكثير من شمائله، ودواعي العظمة في الرجال والنساء تتفاوت في مراتبها ودرجاتها، كتفاوت الكواكب والنجوم في عليائها، ومن العظماء من لا يستطيع اللسان أن يعبر عن مآثرهم، ولا عن جوانب العظمة فيهم إلا على استحياء يصحبه شعور بالقصور والتقصير، ولقد تميزت هذه الأسرة الكريمة بالكثير من الصفات الحميدة التي يتصف بها البشر، كان أعظمها على الإطلاق صفة الإيثار، وهذه القصة تدل على ذلك.

بعد وفاة خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما الإمارة فأصبح أمير المُؤمنين، وعاش المسلمون في عهده في ظل العدل، والرحمة، وكانوا ينتقلون في عهده من نصر إلى نصر، وتمر الأيام ويُقتل عمر رضي الله عنه، ليمُوت شهيدًا كما أخبره بذلك الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وفي اللحظات الأخيرة من حياة الفاروق رضي الله عنه قال لابنه: «يا عبد الله بن عمر، انطلق إلى أمِّ المُؤمنين عائشة فقل: «يقرأ عليك عمر السلام»، ولا تقل أمير المؤمنين؛ فإني لستُ اليوم للمُؤمنين أميرًا، وقل: «يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه»، فسلم عبد الله عليها، فأذنت له، فلما دخل عليها، وجدها قاعدة تبكي.

فقال: «يا أمَّ المُؤمنين، يقرأ عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه»، فقالت: «كنْتُ أريدها لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.» فلما أقبل قيل: «هذا عبد الله بن عمر قد جاء»، فقال عمر: «ارفعوني»، فأسند رجلٌ إليه، فقال: «ما لديك يا عبد الله؟» قال: «الذي تحبُّ يا أمير المؤمنين، لقد أذنت»، قال: «الحمد لله، ما كان من شيء أهم إليَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت احملوني، ثم سلِّم فقل: «يستأذن عمر بن الخطاب»، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني، رُدوُني إلى مقابر المسلمين.»

عبرة

يا له من إيثار يفوق الخيال! إنها تؤثره بأعز ما كانت تتمناه، أن تدفن بجوار النبي ﷺ، ومع أبيها الصديق رضي الله عنه. يا أيتها الأخوات الكريمات، لله درُّ أمِّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، فلقد نشأتْ في بيت أبيها الصديق فتعلمت منه الزهد والإيثار، فهو الذي جعل مالهُ كله لله، ولم يتعلق قلبُهُ لحظة واحدة بحطام الدنيا الزائل.

يا أيتها الأخوات الكريمات، المسلم يوقر صحابة رسول الله ﷺ لأنهم خير القرون، وناصرو الرسول، وناشرو الدين، وقد قال ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلُونهُم ثم الذين يلُونهُمْ»، ولا يخيبن أحد فيهزي بلسانه قائلًا هم رجال ونحن رجال، ولربما رأيته لا يحسن الوضوء، ولا يحسن تلاوة القرآن، لكنه يريد مناطحة السحاب ليثبت رجولة كاذبة، فإن هؤلاء النجوم المضيئة قد اصطفاهم الله لنبيه لينصروا دينه وينشروه في ربوع العالم، فكان الواحد منهم بألف، ولم يرَ العالم لهم مثيلًا من بعد ذلك؛ ولذا كانوا عند أهل السنة والجماعة هم أفضل الخلق بعد الأنبياء.

روائع من ورع الصحابيات

عقيلة بني هاشم

في البيت الذي أذهب الله عنه الرجس، وطهره تطهيرًا، نشأت أمُّ كلثوم بنْتُ علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بأكرم أمٍّ في الدنيا، فأمُّها فاطمة الزهراء بنْتُ رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، وقد صنعت أمُّ كلثوم على عين والديها، وكان جدها النبي الكريم ﷺ يحوطها برعايته وحبه، ولما بلغت أمُّ كلثوم أشدها كانت منْ أفصح بنات قريش، وكيف لا وقد غذيت البلاغة في البيت النبوي القرشي، فأكرم به منْ بيت.

أحب عمر بْنُ الخطاب رضي الله عنه، وهو أمير المؤمنين، أنْ يصل نسبه وسببه برسول الله ﷺ بزواجه منْ أمِّ كلثوم ابنة علي وفاطمة رضي الله عنهم، وانطلق عمر فأتى عليًّا، وخطب أمَّ كلثوم، وعاشت أمُّ كلثوم مع الفاروق، فكانت خير زوْجة، وخير أم، وتألقت أعُمالها الرائعة، وصفاتها الكريمة، مما جعلها تحيا في قاموس الخالدات في الدهر.

ومن المشهور أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعيشُ عيشة الفقراء، رغم أنه كان بيْن يديه خزائن الأرض، فقد كان يدين نفسه بهذه العيشة، ولا يأبى على غيره أن يخالفها، ويقنع باليسير، وأبى أنْ يعيش أفضل مما عاش عليه النبي ﷺ وخليفته الأول أبُو بكر الصديق رضي الله عنه، وكثيرًا ما تحدث إليه خاصته أنْ يشفق على نفسه، ويتوسع في العيش، ليكون ذلك أقوى له على الحق، فكان يقول لهم: «قد علمت نصحكم، ولكني تركتُ صاحبيَّ على جادة، فإن تركتها لم أدركهما في المنزل.»

ويبدو أن أمَّ كلثوم رضي الله عنها كانت في بداية حياتها مع عمر تود لو يميلُ قليلًا إلى الرفاهية، والعيش الهنيء، وأنْ يكسوها من الثياب ما يكسو به الصحابةُ زوْجاتهم، ولكن الفاروق يرد عليها رد الحكيم الذي يؤثر الآخرة على الدنيا، عند ذلك ترضى أمُّ كلثوم.

وقد حدث هذا حينما قدم ضيف عمر فأدخله منزله، ونادى امرأته فقال: «يا أمَّ كلثوم، غداءنا»، فأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ملح لمْ يُدق، فقال: «يا أمَّ كلثوم، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا منْ هذا؟» فقالت: «إني أسمع عندك حسَّ رجل»، فقال عمر: «نعم»، قالت: «لو أردت الخروج إلى الرجل لكسوتني غير هذه الكسوة، كما كسا ابن جعفر امرأته، وكسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته»، قال: «أما ترضين أنْ يقال: أمُّ كلثوم بنْتُ علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين؟»

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، الخير كل الخير في طاعة الله عز وجل ، والشر كل الشر في معصية الله، فالإنسان ينال البركة في طاعة الله، ويطمئن قلبه في طاعة الله، وتزيد حسناته في طاعة الله، ويملأ النور وجهه في طاعة الله، وينال ثقة الناس وثناءهم في طاعة الله عز وجل ، وتحفه الملائكة كذلك في طاعة الله، وتغشاه السكينة في طاعة الله، ولا يروعه فزع ولا فقر في طاعة الله، ولقد كان الصالحون والعارفون يرددون دائمًا: وجدنا الخير كل الخير في طاعة، وهكذا كان دائمًا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكذلك كان صحابة رسول الله ﷺ جميعًا.

الشهيدة العابدة

كانت أمُّ ورقة بنْتُ عبد الله بْنِ الحارث الأنصارية رضي الله عنها إحدى نساء الأنصار الفضليات، ممن نذرْنَ أنفسهن للعبادة والطاعة، والسعي لمرضاة الله عز وجل، ورسوله ﷺ، وقد تفردت رضي الله عنها بيْن النساء بمكرمة جليلة، رفعتها عاليًا في سماء العبادة والزهد والتقى، فقد كانت هذه المرأة الرزان الحصان جمعت القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ وحفظته، وفهمت معانيه، فأعظم بها منْ فضيلة، وأكرم بها منْ حافظة. وكانت رضي الله عنها من جموع السابقات إلى الإسلام، وتشرفت بمبايعة النبي ﷺ، كما تشرفت بالرواية عنه.

عُرفت أمُّ ورقة بنقاء السريرة، وصفاء النفس، وكثرة العبادة، وتلاوة القرآن، فقد وصلت نهارها بليلها في طاعة الرحمن، وكانت صلاتُها موصولةً بصيامها، فحظيت بالإكرام منْ رسول الله ﷺ، فكان يخصها بالزيارة بيْن الفينة والأخرى، وذات مرة زفَّ إليها نبأ ملأ جوانبها سرورًا، حيث أخُبرها أنها ستكون شهيدة، فكانت تُعرف بهذا اللقب، وتسمى الشهيدة. وكانت أمُّ ورقة رضي الله عنها قد أغرمت بالعبادة والصلاة غرامًا شديدًا.

ولما دعا داعي الجهاد إلى غزوة بدر، فابتدر المسلمون يسارعون إلى الفوز بمرضاة الله سبحانه وتعالى، ويتسابقون للظفر بشرف الجهاد مع النبي ﷺ، والخروج إلى بدر، فجاءته أمُّ ورقة منْ أقصى المدينة تسعى وقالت: «يا رسول الله، ائذن لي أنْ أخرج أداوي جرحاكُم، وأمرض مرضاكم، لعل الله يكتب لي الشهادة»، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن الله يهديك الشهادة، وقرِّي في بيتك فإنك شهيدة.»

وقرَّت أمُّ ورقة في بيتها تنتظر الشهادة، وما أخبرها به النبي ﷺ منْ فوزها بالشهادة، فرسول الله ﷺ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. وتبعت أمُّ ورقة رضي الله عنها حياة الزهد والعبادة، إلى أنْ توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها. وظلت أمُّ ورقة ترجو الشهادة في سبيل الله، وتسألُ الله أنْ يرزقها الشهادة، فنالتها في عهد عمر بْنِ الخطاب رضي الله عنه، وتحققت بشراه لها بالشهادة.

فقد كان لأمِّ ورقة رضي الله عنها غلامٌ وجاريةٌ، وكانت قد وعدتهما بالعتق بعْد موتها، ولما علم الغلامُ والجارية بهذا الشرط ظنا أن الحياة ستطول بأمِّ ورقة رضي الله عنها، فسوَّلت لهما أنفسهما أمَرا رديئًا، فقاما إليها بالليل فغمياها ثم قتلاها وهربا.

وكان منْ عادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنْ يسمع قراءة أمِّ ورقة كل ليلة، ولكنه لمْ يسمع صوتها في هذه الليلة، فلما أصبح قال: «والله ما سمعت قراءة خالتي أمِّ ورقة البارحة»، فدخل دارها فلم يرَ شيئًا، ولم يسمع صوتًا، فدخل البيت فإذا هي ملفوفة في قطيفة في جانب البيت، فقام عمر في الناس وقال: «صدق الله ورسوله، إنْ أمَّ ورقة غمها غلامها وجاريتها فقتلاها، وإنهما هربا»، فأمر بطلبهما فأُدركا وأُتي بهما، فسألهما الفاروق فأقرَّا أنهما قتلاها، فأمر بهما فصُلبا فكانا أول مصلوبين بالمدينة، عندئذ قال عمر: «صدق رسول الله ﷺ حين قال: «انطلقوا بنا نزور الشهيدة.»

عبرة

لقد شغفت أمُّ ورقة رضي الله عنها بالقرآن الكريم شغفًا جعلها من الحافظات لكتاب الله عز وجل، تتلوه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وظفرت بما كانت تتمناه فرزقها الله الشهادة،

وصدق رسوله الكريم ﷺ بما حدَّث من الغيوب المستقبلة، وهذا من دلائل صدق نبوءة رسول الله ﷺ، ونالت بذلك أمُّ ورقة أجر الشهداء الذين آتاهم الله منْ فضله، وحظيت بالجنة التي وُعد المتقون بها.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، مهما حاول الإنسان جاهدًا أن يغير ما لم يقدره الله تعالى فلن يفلح، ومهما حاول النجاة من الموت إن قدر له فلن يستطيع، ومهما حاول النجاة بنفسه من مرض أو غرق أو قتل، فلن يقدر تمامًا، فالإنسان يرفع يده بالدعاء كي يرد البلاء، أو يخفف عنه هذا البلاء، ولكن إذا أتى أمر الله فلا محيص عنه.

حقيقة النعيم

لما أدرك الصحب الكرام أن النعيم لا يدرك بالنعيم، فكان عندهم الثبات على دين الله نعيم، ولا يدرك بالنعيم، العلم نعيم، ولا يدرك بالنعيم، تبليغ سنة رسول الله ﷺ إلى الخلق نعيم، الفضيلة نعيم، كبح النفس عن الهوى نعيم، الإحسان إلى الخلق نعيم، ضبط الجوارح بالوحي نعيم، ضبط المكاسب بالوحي نعيم، ضبط الولاء والبراء بالوحي نعيم، والنعيم لا يدرك بالنعيم، والنعيم والملك الكبير على الحقيقة ثم في دار النعيم، والنعيم لا يدرك بالنعيم.

فقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم حقيقة هذا النعيم، فقد خرج الأصحاب (رضوان الله عليهم) مجاهدين، فإذا الستة منهم يركبون بعيرًا واحدًا، حتى نقبت أقدامهم، وسقطت أظفارهم، في يوم صائف، ولا نعال، فجمعوا الخرق على أرجلهم يتقون بها الحر والصخر، وهكذا النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، ولو كان في ذلك أذاها، إذ النعيم لا يدرك بالنعيم، ومن جد يجد، والنفس إن تعبت فربما راحة جاءت من التعب.

فها هي أمُّ المُؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، تستضاف عند عروة بن الزبير ابن أختها رضي الله عنهما، فجعل يرفع لها قصعة، ويضع أخرى، يقرب طعامًا، ويرفع طعامًا، فحولت وجهها إلى الحائط تبكي، ولم تأكل.

فقال لها عروة: «كدرت علينا أي أماه!!» فقالت: «والذي بعث محمد ﷺ بالحق، ما رأى المناخل من حين بعثه الله حتى قبض، وما شبع من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض، ولقد كان ﷺ يربط الحجر على بطنه، وقد غبرت جلدة بطنه يوم الخندق، وهو يحفر معهم الخندق»، فاستعبر الجميع وتركوا الطعام.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، هؤلاء الصابرون حينما تحولت حالهم إلى الرخاء، فكيف كان حالهم؟ أطغوا حين استغنوا؟ أتكبروا وبطروا وجمعوا فمنعوا؟ لا والله الذي لا إله إلا هو، لم يتكبروا، ولم يأشروا، ولم يبطروا، بل كانوا الشاكرين حقًّا، الخائفين من انفتاح الدنيا عليهم، فضحَّوا بها من أجل الثابت الباقي الدائم، وحالهم: تالله ما عقل امرؤٌ فقد باع ما يبقى بما هو مضمحلٌ فانٍ.

روائع من وفاء الصحابيات

المؤمنة الملهمة

لما هلك أبو طالب نالت قريش من النبي ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، وبالغ في إيذاء النبي، فدخل عليه الصلاة والسلام بيته، فقامت إليه إحدى بناته وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكِ يا بنية، فإن الله مانع أباكِ»، فلما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، كانت زينب رضي الله عنها لا تدري شيئًا عن أمر الهجرة، وفي يوم أصبحت زينب رضي الله عنها ومكَّة من أدناها إلى أقصاها، تتحدث عن مطاردة قريشٍ لأبيها، فلقد ترك النبي ﷺ مكة مهاجرًا إلى يثرب، وليس معه سوى صاحبه الصديق أبي بكرٍ رضي الله عنه ، وكانت زينب مضطربة، خائفةً على أبيها أيامًا وأيامًا، حتى جاءها خبر وصوله إلى يثرب، فزال عنها كربُـها، وسرَّت بسلامة أبيها ﷺ ووصوله إلى دار مأمنه في الهجرة.

ولم تمضِ إلا أشهرٌ معدودات حتى أرسل النبي ﷺ إلى أختيها فاطمة وأم كلثوم رضي الله عنهما من يحملهما إليه في دار الهجرة، وكانت رقيَّة قد هاجرت قبل ذلك، وبقيت زينب وحدها في مكة مع زوجها أبي العاص بن الربيع الذي لم يسلم - إذ لم يكن الإسلام قد فرَّق بينهما، أي لم ينزل الحكم الشرعي الذي يفرِّق بين الزوجة المسلمة والزوج الكافر - فبقيت في مكة، وقد غادرها الأهل، وتنتظر وقت اللحاق بأبيها رسول الله ﷺ في دار الهجرة.

مرت الأيام بحلوها ومرها وزينب رضي الله عنها تعاني منْ فراق أبيها وأخواتها الثلاث، وهي في كل يوم تطمع أن يعتنق زوْجُها الإسلام، ليلحق برسول الله ﷺ وهي معه، فيجتمع الشمل، ويلتقي الأحبة على قدر قدره الله عز وجل، ولكن ذلك لم يحدث بعْد، فالرجل لا يزال على شركه.

وبعد هجرة النبي ﷺ بعامين، أعدت قريش جيشًا من ألف رجل أو يزيدون، مزودين بأدوات الحرب كلها للقضاء على الإسلام والمسلمين، وكان أبو العاص بن الربيع في هذا الجيش مقاتلًا، فجزعت زينب رضي الله عنها لخروجه معهم، ولسان حالها يقول: ربي، زوجي يقاتل أبي، فأخذت تدعو له بالهداية، وتدعو لأبيها بالنصر، فهي تعلم أنْ الحرب عواقبها وخيمة، يصْلى بنارها الغالب والمغلوب، وهي لا تدري ما يخفيه القدر، ولكنها على كل حال راضية بأمر الله، صابرة على كل بلية تأتي في حينها، سائلة ربها أن يجعل لها منْ كل ضيق مخرجًا، ومن كل همْ فرجًا.

ظلت رضي الله عنها موزعة الفكر كاسفة البال حتى نصر الله دينه في بدر الكبرى، وهزم المشركين على كثرة عددهم ووفرة عدتهم وعتادهم، ولم تصل قريش إلى قصدها، وذاقت كؤوس المنايا في بدر، وكانت بدر تلطيخًا لها في الوحل، وأعزَّ الله الإيمان والإسلام، وخذل أهل الكفر، والشرك، والطغيان، وانتقل خبر الانتصار العظيم قبل وصول الفلول المنهزمة إلى مكة.

طبعًا فرحت زينب فرحًا شديدًا بانتصار أبيها النبي وأصحابه، حتى قامت لله عزَّ وجل شاكرةً لهذا النصر المؤزَّر، لكن حين جاءت فلول الجيش مهزومةً، علمت أن زوْجها كان من جملة الأسرى.

استشار النبي ﷺ أصحابه في شأن الأسرى، فمنهم من أشار بقتلهم، ومنهم منْ أشار بقبول الفدية، فقبل النبي ﷺ بالفدية، فأخذت قريش تفتدي أسراها، فأرسلت زينب رضي الله عنها

قلادتها إلى أبيها فداءً لزوْجها، وهي القلادة التي أهدتها إليها أمها يوم زفافها، فما كاد الرسول ﷺ يراها حتى رقَّ لمرآها، فقال لأصحابه في حنين لذكرى الحبيبة السيدة خديجة وابنتها زينب: «يا معشر الأنصار، إنْ رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها قلادتها فافعلوا»، فقالوا: «نعم يا رسول الله.»

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، أجمل صفة بالإنسان الوفاء، فزينب رضي الله عنها في مكة غافلها زوْجُها وانضمَّ إلى جيش المشركين، ليحارب النبي ﷺ وهو صهره، وقع أسيرًا، زوجها مأسور عند أبيها، وأهل زوْجها أغنياء، مستعدون أن يقدِّموا أعلى فدية لإنقاذ ابنهم، فماذا فعلت زينب مع زوجها الذي لم يرضَ أن يسلم، وبقي على كفره؟ أرادت أن تلقِّنه درسًا إيجابيًّا لا درسًا سلبيًّا، درسًا يحرِّك مشاعره، أرسلت في فدائه بشيءٍ ثمينٍ جدًّا: قلادةٍ قدَّمها النبي ﷺ لأمها خديجة يوم عُرسها، وخديجة قدَّمت هذه القلادة لابنتها زينب، وزينب أرسلت هذه القلادة لأبيها، كي تكون فداءً لزوجها، فهل بعد هذا الوفاء وفاءً؟

نتعلم من هذا الموقف أيضًا، أن الحب والوفاء والإخلاص والتفاهم بيْن الزوْجُين هو المثل الأعلى في الإسلام، لأن الزوْجين قد جمع الله بينْهما بكلمته العليا، وربط بينها برباط وثيق، وأخذ كل منهما على الآخر ميثاقًا غليظًا على أن يقيما ميزان العدل بينهما، وميزان العدل في الإسلام أن يعطي المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات، وهو ميزان وضعه الله بين الأزواج والزوجات، وإن شئت قلت وضعه الله بين الناس جميعًا في قوله جل وعلا: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ، وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، فكل حق يقابله واجب، فمن عرف ما له وما عليه، وكان له قلب يقظ وضمير حي، فإنه يقيم هذا الميزان بالقسط، ولا يخسره في صغيرة ولا كبيرة.

العاقلة الوفية

شاءت الإرادة الإلهية أنْ يكون أبُو بكر الصديق رضي الله عنه سابق الرجال إلى الإسلام، وسابُقهم إلى الجنة بعْد الأنبياء عليهم السلام، وبالطبع رجعْت ثمرة هذا الفوز العظيم إلى زوْجة أبي بكر أمِّ رومان بنْتِ عامر رضي الله عنهما، فمن الطبيعي أن يدعو الصديق أهل بيته إلى الإيمان من اللحظة الأولى التي وهب للإسلام فيها كلَّ شيء، فأخذ يدعو زوْجته، التي سارعت إلى نطق شهادة التوحيد، فكانت من ثلة السابقات إلى الإسلام، وممُن فُزن بالإيمان منذ إشراقته الأولى، واتبعن السراج المنير (صلوات ربي وسلامه عليه).

عُرفت أمُّ رومان رضي الله عنها بالصدق، والوفاء، والصلاح، كما عُرف زوْجُها الصديق كذلك بالصدق في الجاهُلية والإسلام، وقد امتدح الله عز وجل صفات الصدق بكتابه العزيز في مواطن كثيرة، وحضَّ عليها.

هذا، وقد تمثلت صورُ الصدق بأكملها في شخصية هذين الزوْجين الكريمين، اللذين حظيا بشرف لا يُدانيه شرفٌ ألا وهو مصاهرة أشرف الخلق رسول الله ﷺ.

ففي خطبة النبي الكريم ﷺ لعائشة، برزت أمُّ رومان بعنصرها الكريم، وبدا حسن رعايتها لزوْجها ولابنتها، كما ظهر صدق إيمانها، وأثبتت أنها امرأةٌ منْ طراز فريد بيْن النساء، وذلك في حسن تصرفها وأدبها مع رسول الله ﷺ، ومع زوْجها.

فقد ورد أنْ رسول الله ﷺ خطب عائشة، حين ذكرتها له خولة بنْتُ حكيم رضي الله عنها، التي قالت لأمِّ رومان: «يا أمَّ رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟» قالت: «ماذا يا خولة؟» قالت خولة والبشرُ يملأُ قسمات وجهها: «رسول الله ﷺ يذكر عائشة»، وهنا فكرت أمُّ رومان لحظات، وسرت فرحةٌ كبيرةٌ في نفسها ثم قالت: «انتظري فإن أبا بكر آتٍ»، فجاء أبو بكر رضي الله عنه فذكرت له ذلك.

ولكنْ أبو بكر رضي الله عنه كان قد وعد مطعم بْنَ عدي أنْ يزوْجها بابنه جبير، وما كان لرجل ذي مروءة كأبي بكر أنْ يخطبها إلى رسول الله ﷺ وقد وعد بها غيره، ثم إن أبا بكر الصديق أتى مُطعمًا وعنده امرأته، فسأله: «ما تقولُ في أمر هذه الجارية؟» فأقبل مطعم على امرأته ليسألها: «ما تقولين؟» فأقبلت هي على أبي بكر تقول: «لعلنا إنْ أنكحنا هذا الفتى إليك، تصبئه وتُدخلهُ في دينك الذي أنت عليه»، فلمْ يُجبها أبو بكر، وسأل المطعم بْنَ عدي: «ما تقول أنت؟» فكان جواب المطعم: «إنها تقول ما تسمع.»

وتحلل أبو بكر رضي الله عنه عنْد ذلك منْ وعده، وصدق في وفائه، وصدقتْ كذلك أمُّ رومان رضي الله عنها في قولها وفعلها، وتمت الخطبةُ على النبي ﷺ لعائشة، وغدت أمُّ رومان حماة أشرف خلق الله رسول الله ﷺ، وتزوج النبي ﷺ عائشة التي أحسنت أمُّها تربيتها وغذتها بالأدب الذي رفدتهُ بالقرآن، ناهيك بالتربية النبوية، والعناية البكرية الصديقية.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق، تذلل كثيرًا من الصعاب لزوْجها الداعية، إذا شاركته في همومه وآلامه، وبذلك تخفف عنه عبء هذه الهموم، وتبث في نفسه الاستمرار والثبات، فيكون لها أثُر في نجاح الدعوة وانتصارها، وموقف السيدة أمِّ رومان

رضي الله عنها من أبي بكر الصديق، هو المثل والقدوة، لما تستطيع الزوجة المؤمنة بدعوة الخير أن تلعبه من دور كبير في نجاح زوجها الداعية وثباته، واستمراره في دعوتها.

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وطلب إلى الناس أن يبنوا حياتهم على الحق، فلا يقولون إلا حقًّا، ولا يعملون إلا حقًّا. وحيرة البشر وشقوتهم، ترجعان إلى ذهولهم عن هذا الأصل الواضح، وإلى تسلط أكاذيب وأوهام على أنفسهم، وأفكارهم أبعدتهم عن الصراط المستقيم، وشردت بهم عن الحقائق التي لا بد من التزامها. ومن هنا كان الاستمساك بالصدق في كل شأن وتحريه في كل قضية والمصير إليه في كل حكم، دعامة ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه. وكذلك كان بناء المجتمع في الإسلام قائمًا على الصدق والوفاء، فهذا الصديق رضي الله عنه صدق في وفائه مع رجل كفار، ولم يرد على خطبة رسول الله لعائشة إلا بعد أن عرف رأى المطعم في زوج ابنه من عائشة.

الطاهرة النجيبة

كان الحبيب ﷺ يتيمًا فكفلهُ جده عبد المطلب، وكان يحبهُ حبًّا شديدًا، وبعْد فترة من الزمن أحس عبد المطلب بدنو أجله، فأوصى ولده أبا طالب بأنْ يكفل الحبيب ﷺ وأوصاه به خيرًا، فلما مات عبد المطلب انتقل الحبيب ﷺ إلى بيت أبي طالب فوجد في بيته أُمًّا رحيمة، جعلته يشعر بأنها أمُّه التي ماتت، وكانت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها تحوطه برعايتها، وتشمله برحمتها، حتى إنها كانت تخاف عليه أكثر منْ خُوفها على أولادها.

وكان أبو طالب فقيرًا، وكانت زوجته تشعر بأن أولادها لا يشبعُون من الطعام أبدًا، فلما عاش النبي ﷺ بيْنهُم دخلت البركة لأول مرة في هذا البيت الكريم، وبخاصة في طعام الأولاد إذا أكل معهم الحبيب ﷺ، فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعًا أو فرادى لمْ يشبعُوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبُو طالب إذا أراد أنْ يغذيهم أو يعشيهم يقول: «كما أنتم حتى يأتي ابني»، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكُل معهم فيفضل منْ طعامهم.

وكانت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ترى كل هذه البركات التي دخلت بيتها لأول مرة، وهي لا تكاد تُصدق نفسها، فكانت تزداد حبًّا للنبي ﷺ يومًا بعْد يوم، حتى كان الحبيب ﷺ يشعر بأن الله رزقه بتلك الأم الرحيمة ليعوضه عنْ موت أمه، فها هي تُرعاه في طفولته وشبابه، وتخصه بالتقدير والاحترام، وتشمله بعطفهُا وحنانها، وظلت ترعُاه إلى أنْ تزوج بأمُ المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

كانت رضي الله عنها تعرف رسول الله ﷺ إنسانًا كاملًا، جمع الشمائل الحميدة، والخصال الفريدة، كان طاهرًا لمْ تعُلق به شُبهة، أمينًا يُضرب المثل بأمانته، صادقًا لمْ يُعهد عليه كذب قط، وكانت تسمع ما يتكلم به الناس عنْ محمد ﷺ، وكثيرًا ما كانت تسمع زوجُها أبا طالب قوله: «إن ابن أخي ليُخبر بنعيم.»

منْ أجل تلك الصفات الكريمة، دفعت إليه بفلذة كبدها ابنها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليكون في كنفه ﷺ بعْد زواجه منْ أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها . قال ابن إسحاق: كان منْ نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبُو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان منْ أيسر الناس في بني هاشم: «يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى منْ هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنْه منْ عياله: آخُذ منْ بنيه رجلًا، وتأخذ أنت رجلًا فنكفلهما عنْه»، فقال العباس: «نعم»، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: «إنا نريد أن نخفف عنْك منْ عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه»، فقال لهما أبُو طالب: «إذا تركتُما لي عقيلًا فاصنعا ما شئتما»، فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمهُ إليه، وأخذ العباس جعفرًا - وقيل طالب - فضمه إليه.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، سعدت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها بموقف محمد ﷺ وشهامته ومروءته واعترافه بجميل عمه عليه حتى استطاع أنْ يرد لهُ هذا الجميل بطريقة قامت على الحكمة والمنطق، لقد أصاب محمد ﷺ هذا الموقف، وما كان ذلك إلا ليضاعف منْ إعُزاز فاطمة بنت أسد هذا الإعزاز الذي لمْ يفارقها طوال حياتها، والذي بدا في كثير منَ المواقف لها،

ولعل هذا الموقف الذي وقفهُ محمد ﷺ مع عمه وأبنائه يؤكد حكمة محمد ﷺ ووفاءه، إنها صورة جميلة عاشتها فاطمة رضي الله عنها ، صور ومواقف سطرتها صفحات التاريخ لتكون نور هداية للناس.

أمنا الحبيبة

كان النبي الكريم (صلوات ربي وسلامه عليه) عطوفًا يود منْ حولهُ، ويتحفهم بما يملك، وقد اتسع عطْفُه حتى شمل القريب والبعيد، فكيف بأمه منَ الرضاع حليمة السعدية رضي الله عنها؟ ويا لها منْ لحظات غالية عنْدما نتعايش بقلوبنا مع هذه الصحابية الجليلة التي لا يُذكر اسمها إلا ونُشعر بالرحمة والحنان والرأفة تتُدفق في العروق لتصل إلى القلوب مباشرة، إنها منْ أرضعته صلوات ربي وسلامه عليه.

كانت حليمةُ السعديةُ رضي الله عنها ودودًا بطبعها لكل المسلمين والمسلمات، يطيب رضي الله عنها لها أنْ تتحدث مع الصغير والكبير، ويطيب للناس أنْ يلقوها بالبشاشة والسرور، ويداعبوها في إجلال وتقدير، لما لها منْ مكانة سامية عنْد رسول الله ﷺ، ولما لها منْ روح ذكية في معاملتها للناس، ومعاشرتها للأخيار الأبرار منْ أصحاب النبي ﷺ.

لقد عاشتْ حليمةُ السعديةُ رضي الله عنها حتى بلغتْ من الْكبر عتيًّا، ولقد رأت الطفل الْيتيم الذي أرضعتْهُ، قد غدا للعرب سيدًا، وللإنسانية مُرشدًا، وللبشرية نبيًّا ورسولًا وهاديًا، ولقد وفدت إليه بعْد أنْ آمنت به، وصدقتْ بالْكتاب الذي أُنْزل عليه.

فما إنْ رآها حتى اسْتطار بها سُرورًا، وطفق يقول لها: «أُمي، أمي»، ثم خلع لها رداءهُ، وبسطهُ تحْتها، وأكرم وفادتها أبْلغ الإكرام، وعُيون الصحابة تنْظُر إليه وإليها في غبطة وإجلال. فعن عمر بن السائب أن رسول الله ﷺ كان جالسًا يومًا، فأقبل أبُوه من الرضاعة فوضع لهُ بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلْت أمهُ فوضع لها شق ثوبه منْ جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة - عبد الله بن الحارث - فقام فأجلسه بين يديه. صلوات الله وسلامه على مُحمد البر الوفي صاحب الخلق العظيم.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، مما يروع في سيرة رسول الله ﷺ أنه ظل هو الإنسان المتواضع تواضع الأنبياء العظماء في مختلف مراحل حياته: حين كان مضطهدًا، وحين كان منتصرًا، وحين كان وحيدًا، وحين كان سيد الجزيرة العربية المطاع، حين كان في أشد المحن، وحين كان في أوج المجد والانتصار. وما عهدنا بمثل هذا في تاريخ العظماء. وما كان محمدٌ عظيمًا فحسب، ولكنه رسول الله أيضًا.

وظل رسول الله يستمع إلى العبد والعجوز والأرملة والمسكين، يقف في الطريق لكل من يستوقفه، ويصافح كل من يلقاه، فلا يترك يده حتى يكون الذي استوقفه هو الذي يترك يده، يتفقد أصحابه، ويزور مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويستمع إلى مشاكلهم، ويشاركهم أحزانهم وأفراحهم.

إن محمد ﷺ الإنسان هو الذي يحرص كل مسلم على أن يكون ظله في الأرض، يتخلق بخلقه، ويهتدي بهديه، ويأتي به في صبره وجهاده، وزهده وعبادته، وتضحيته وإيثاره، ومأكله وملبسه، وما أعتقد أن الله أكرم رسوله الإنسان بمدح أعلى من هذا المديح الرباني ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

الوفية الكريمُة

لقد عاشت أمُّ المؤمنين خديجة بنْتُ خُويلد رضي الله عنها في كنف زوجها الحبيب محمد رسول الله ﷺ خمسة وعشرين عامًا، كلها خير وبركة، وحب ورحمة، وسماحة ويسر. ولما جاءت الرسالة من الله سبحانه وتعالى، دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأجابته خديجة رضي الله عنها طوعًا، فلم تحوجه إلى رفع الصوت، ولا منازعة، ولا تعبٌ في ذلك، بل أزلت عنه كُلَّ نصبٌ، وآنسته من كل وحشة، وهوَّنْت عليه كُل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها.

ولما ألم بها الداء بسبب مقاومتها لكثير من الخطوب والأهوال التي نزلت بها من قبل، لم تلبث أن أخذت تحتضر، ودام احتضارها ثلاثة أيام، وانتقلت إلى جوار ربها راضية مرضية، وحزن النبي ﷺ لموتها حزنًا شديدًا، فلقد كانت نعم الزوجة الصابرة المخلصة، التي آزرته طوال حياته، وبذلتُ من أجل نُصرة هذا الدين كُل غالٌ ونفيس، فلم يستطيع النبي ﷺ أن ينساها أبدًا، وكان يحملُ لها وفاءً يعجز القلم عن وصفه.

ومن الدلائل الرائعة على وفائه ﷺ للطاهرة خديجة رضي الله عنها، ما حدث في غزوة بدر الكبرى، إذ أُسر أبو العاص بن الربيع صهر الرسول ﷺ زوج ابنته الكبرى، ابنة زوجته الوفية الكريمُة خديجة، فأرسلت الوفيةُ زينب فداء لزوجها أبي العاص، كان من ضمن هذا الفداء قلادة كانت قلدتها بها والدتها الحبيبة المعطاء خديجة رضي الله عنها ليلة زفافها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وتذكر زوجته المباركة الوفية.

وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسرها، وتردوا عليها قلادتها فافعلوا»، فما كان من أصحابه الكرام (رضوان الله عليهم) إلا أن سارعوا بالاستجابة للنبي الكريم ﷺ الذي حركته مشاعر الذكرى لزوجته الوفية الطاهرة، وقد كان النبي ﷺ يحبها حبًّا عبَّر عنه بأقواله وأفعاله حتى لقي ربه عز وجل.

عبرة

لم ينسَ النبي ﷺ ولو لحظة واحدة أمَّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقد كان يذكرها دائمًا بالثناء العطر، ويدعو لها بخير الدعاء، ويرحب بمن كانت تزورها في بيتها. إنه لم ينسَ يومًا من أيامها، بل ولا لحظة من اللحظات التي قضاها معها، فكيف له أن ينسى امرأة هي أكمل نساء هذه الأمة خلقًا ودينًا؟!

كيف ينساها وقد أعطته من نفسها كل شيء، وأعانته على نشر دعوته بكل ما لديها من قوة مادية ومعنوية، ورزقه الله منها الذرية، وكانت منه بمنزلة الروح من الجسد إن صح هذا التعبير؟

لقد رحلت السيدة خديجة رضي الله عنها عن الدنيا، ولكن بقيت ذكراها في قلب رسول الله ﷺ، وتركت رسول الله ﷺ وهو في ذروة المعاناة، لِما يلقى من أذى المشركين وإعراضهم وكيدهم، وبقيت ذكرى السيدة خديجة في قلبه الشريف حيةً قويةً، فلم تبرحه حتى آخر يوم في حياته.

إننا لا نرى في تاريخ الرجال رجلًا كمحمد ﷺ، وفيًّا للمرأة التي قدمت إليه الإحسان، وعاشرته بالمعروف قرابة خمس وعشرين سنة، فنراه يحفظ ودها، ولا يمل ذكرها، ويكرم صديقاتها

وأقاربها، ويرتاع لسماع الصوت الذي يشبه صوتها، ويكرم العجائز اللاتي كنَّ صديقاتها، ويذبح الشاة فيقسمها أعضاء ويوزعها عليهن.

وفاءٌ لا مثيل له

ظل أبو سلمة رضي الله عنه وحيدًا يعاني ما يعانيه من فراق زوْجه وولده عامًا كامًلا، ينتظر من الله الفرج، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا، وهاجرت إليه أُم سلمة ومعها ولدها، والتقى الزوْجان بعد عام حافل بالْذكريات المضنية، والانتظار المؤلمْ، ونزلت أمُّ سلمة مع زوْجها رضي الله عنهما في رحاب الأنصار بالمدينة المنورة، وقد امتلأ قلبها بالسعادة والسرور، فلما أذن رب العزة عز وجل لرسوله الكريم (صلوات ربي وسلامه عليه) بالهجرة إلى المدينة، إذا بالْسعادة تكْتمُل في قُلب أُمَ سلمة وزوْجُها رضي الله عنهما .

ففي ربوع المدينة عُاش الزوْجُان في أُطيب حالُ، فلقد كان هذا الزوُج حسنُ الْعشرة، كُريم الأخْلاق، شهمًا مؤمنًا، بادلته زوْجته حبًّا بحب، وإخلاصًا بإخلاص، ووفاءً بوفاء، إلى الحد الذي دفعها يومًا لأنْ تقول له: «يا أبا سلمة، بلغني أنه ليس امرأة يموت زوْجُها، وهو منْ أهل الجنة، وهي منْ أُهُل الجنة، ثُمَ لمْ تتُزوج بعده إلا جمع الله بينهما في الجنة، وكذلك إذا ماتت المرأة، وبقي الرجُل بعُدها؛ فتعال أعاهدك ألا تتزوج بعدي، ولا أتزوج بعدك.»

فقال: «يا أُمَّ سلمة، أطيعيني»، قالت: «ما أستأْمرك إلا وأنا أريد أنْ أطيعك»، فقال: «فإن مت فتزوْجي»، ثم قال: «اللهم ارزق أمَّ سلمة بعدي رجلًا خيرًا مني، لا يحزنها ولا يؤذيها.»

وقد ظل الزوْجان يعبدان الله تعالى، ويتزودان بزاد التقوى، ويتعلمان الْخير كله بين يدي الحبيب ﷺ، وعكفت أُمُّ سلمة على رعاية وتربية أولادها على حب الله ورسوله ﷺ حتى أصبح أولادها من خيرة الصحابة.

وعلي الرغم من انشغالها بعبادة ربها عز وجل، ومعرفة سنة نبيها ﷺ، وتربية أبنائها، إلا أنها كانتْ تشجع زوْجها دائمًا على الخروج للجهاد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله. وانخرط أبو سلمة رضي الله عنه في صفوف المجاهدين في سبيل الله تحت راية رسول الله ﷺ يخوض غمار المعارك، ويبلى فيها أحسن البلاء، فكان في بدر في طليعة الجيش الإسلامي، يتربص بأهُل الشرك لينتقمْ لله منهمْ، فأخذ يصول ويجول في المعركة، يُضرب بسيفه مُيمنة وميسرة حتى تحققُ الْنصر للمسلمين في هذه الغزوة المباركة.

ثُم جاءت غزوة أُحُد في السنة الثالثة للهجرة، فأُبْلى فُيها أبو سلمة بلاءً حسنًا، وواصل فيها جهاده وجلاده، مقدمًا غير محجم، لكنه يخرج منها وقد جُرح جرحًا بليغًا، فقد رماه أبو أسامة الجشمي بسهُم في عضده، وظل شهرًا يتداوى منه، وهو يتحرق شوقًا إلى معاودة القتال في الميدان. وأراد الرسول ﷺ أن يرضي نزعة النضال في نفسه، فأرسله على رأس سرية إلى نجد لتأديب جمع من المشركين قد أعدوا العدة لقتاله، وذلك في السنة الرابعة من الهجرة، ففُرح بذلك أبو سلمة فرحًا شديدًا، فانطلق إلى نجد ومعه مائة وخمسون رجلا من أصحابه، وسار حتى أتى أرض بني أسد فالتقى الجمعان في معركة فاصلة، أيد الله فيها جنده بنصر المؤزر.

عاد أبو سلمة رضي الله عنه إلى الْمدينة يتحرق شوقًا إلى معاودة اللقاء بأهل الكفر والضلال، وهو يعد نفسه لذلك ماديًّا ومعنويًّا، لكن المنية عاجلته، إذ انتكس الجرح الذي كان يعاني منه يوم أُحُد، فقد رُم على فساد، فما لبث أن انفتح وألزم أبا سلمة الفراش.

وفيما كان أبو سلمة يعالج منْ جرحه قال لزوْجه: «يا أُمَّ سلمة، سمعْتُ رسول الله ﷺ يقُول: «لا تُصيبُ أحدًا مُصيبةٌ، فيسترجعُ عنْد ذلك ويقُولُ: «اللهُم عنْدك احْتسبتُ مُصيبتِي هذه،

اللهُم أخْلفْني خيْرًا منْها»، إلا أعْطاهُ الله عز وجل.»

ظل أبُو سلمة رضي الله عنه على فراش مرضه أيامًا، وفي ذات صباح جاءهُ رسول الله ﷺ ليعُودهُ، فلم يكدْ ينْتهي منْ زيارته ويُجاوزُ باب داره، حتى فارق أبُو سلمة الْحياة، فأغمض النبي ﷺ بيديْه الشريفتين عيني صاحبه، ورفع طرْفهُ إلى السماء، وقال: «اللهُم اغْفر لأبي سلمة، وارفع درجتهُ في الْمقربين، واخْلُفهُ في عقبه في الغابرين، واغفر لنا ولهُ يا رب العالمين، وأفْسح له في قبره، ونور لهُ فيه.»

أمَّا أُمُّ سلمة فتذكرت ما رواهُ لها أبُو سلمة عنْ رسول الله ﷺ فقالتْ: «اللهُم عنْدك أحْتسبُ مُصيبتي هذه»، لكنها لمْ تطبْ نفْسُها أن تقُول: اللهُم أخلفْني فيها خيرًا منها؛ لأنها كانتْ تتساءل: ومنْ عساهُ أن يكُون خيرًا منْ أبي سلمة؟ لكنها ما لبثتْ أنْ أتمت الدعاء، فلما وفت عدتها منْ وفاة زوْجها، خطبها أبو بكر رضي الله عنه فاعتذرت إليه بأدب ولطف، ثم خطبها عمر فلم تجبه بشيء، ثم خطبها النبي ﷺ لنفسه، فاستبشرت بذلك خيرًا، ورأت أن الله عز وجل قد أراد بها خيرًا كثيرًا في الدنيا، وأراد لها الفوز في الآخرة، واسُتجاب الله دعاءُها، وأخُلفها خيرًا منْ أُبي سلمة.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، نستخلص من هذا الموقف إدراكين مختلفين كل الاختلاف من حيث المضمون، ومتفقين معًا من حيث الهدف. أما الاختلاف، فإن الأول يتَّجه نحو التيتّم على الزوج الراحل، والترمّل من بعده أمد الحياة، وإن الثاني يتجه نحو محو الآثار بعد انقضاء العدَّة، بالزواج من رجل يأمل أن يكون خيرًا منه. الزوج الصالح يرى أن سعادته تتحقَّق في هناءة زوجته في دنياه، وبعد مماته، فإن كان هناؤها يتحقَّق بالزواج برجلٍ صالحٍ بعده فذلك غايته، وهذا ما كان يتأمله أبو سلمة، أن تحيا من بعده حياةً طيبةً كريمة. وقد حقَّق الله تعالى له أمله، ما الذي حصل؟

قالت: فلما مات، قلت: «من خيرٌ من أبي سلمة؟» لا أحد، فزوجها في نظرها أعلى رجل، أبو سلمة كان بطلًا، النبي ﷺ ولاه على المدينة، رسول الله يوليه على المدينة في غيبته، أي إنه نائب لرسول الله. قال لها: تزوجي بعدي، «اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلًا خيرًا مني، لا يحزنها، ولا يؤذيها»، هو أراد لها الهناء، وهي أرادت له الوفاء، أرأيتم هذا؟!

هذه بقيُة أهُل بيتي

إذا كان الإنسان محبًّا للناس، كان أهلًا لحبهمْ إياه، فإذًا فقد تمت له مسألة الصداقة منْ طرفُيها، وإنُما تتم هذه الصداقةُ بمقدار ما رُزق الإنسان منْ سُعة العاطفة الإنسانية، ومنْ سلامة الذوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الوفاء ولقد تميزت حضانة النبي ﷺ بركة بنت ثعلبة بْن عمرو أمُّ أيمنْ رضي الله عنها بالعاطفة الحية، والحنان الصادق، الذي بلغ الذروة مع النبي ﷺ، فبلغت أعلى مراتب الإيمان، وحظيت بحُب وتكُريم الحبيب المصطفى ﷺ.

وهذه المرأة العطوفُ ليستُ نكرة بين النساء، ولكنُها كانُتْ ذات مُكانة عُاليةُ، وشُهرة في عالمهن الواسع، واحتلت مكانة كريمة عالية بفضل هذا الدين العظيم الذي جعلها وأمثالها من متاعًا يُورث، ويُقسم بين الناس، تُقسيم السوائم بين الوارثُينْ، فأصُبحت بفضل الله عز وجل حرةً جليلة القدر، يُشار إليها بالبنان، وتُغبطُ على مكانتها المتميزة من الحبيب المصطفى ﷺ، وكيف لا، ورسول الله ﷺ كان يقُول عنْها: «أمُّ أيمن أمي بعد أمي»، وكان إذا نظر إليها فرح وقال لها: «هذه بقية أهل بيتي»، وهل فوق درجة الأمومة درجة؟!

لقد عرفت أمُّ أيمن رضي الله عنها النبي ﷺ طفلًا صغيرًا، وعرفتهُ شابًّا صادقًا أمينًا، وعرفتهُ ﷺ نبيًّا مُرسلًا منْ رب العالمين لهداية البشر. ومنْ أوائل المواقف الوضيئة لأمِّ أيمن رضي الله عنها مع النبي ﷺ، موقفها الرائع يوم أن ماتت آمنةُ بنْتُ وهب أمُّ النبي ﷺ، فقد تُوفيت آمنة بالأبواء - قرية بين مكة والمدينة - وهي عائدة منْ زيارة أخواله بنْي عدي بْن النجار بيثرب، وكانتْ أمُّ أيمن بَصحبتهُا في هذه الزيارة.

وفي تلك اللحظات الْحرجة الأليمة ظهرت أمُّ أيمن رضي الله عنها بعطفها وبرها برسول الله ﷺ الذي كان طفلًا في السادسة، وعادت به إلى مكة وحيدًا يتيمًا حزينًا على فراق أمه آمنة، وفي هذا الموقف الأليم برزت أمُّ أيمن رضي الله عنها لتحتلَّ مكانتَها بيْن النساء اللاتي تركن بصمات واضحة في التاريخ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى لها الْخير كله.

وعادت بالنبي ﷺ، وأَضحت حاضنته، وأوقفت نفسها لرعايته والعناية به، وغمرته بعطفها، كما غمره جده بحبه أيضًا، وقد عوضه الله سبحانه وتعالى بحنان جده وأم أيمن عنْ حنان أبويه، وكان جده يقول لأم أيمن: «يا بركة، لا تغفلي عن ابني هذا، فإني وجدته مع غلمان قريش قريبًا من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا، نبي هذه الأمة»، وقد نشأ رسول الله ﷺ وهو يرى أمَّ أيمن رضي الله عنها تتحفه وتكرمُه وتبرَ به.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن الاهتمام بأبنائنا وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة غير مشوهة، هو واجب على كل أب وكل أم، ويسهم فيه المعلمون بالمدارس، والمحفظون للقرآن في الكتاتيب وغيرهم، لأننا في أشد الحاجة إلى أن نربي أولادنا على حب الله، وحب رسول الله ﷺ، وعلي حب الصحابة الكرام رضي الله عنهم، لينشأ الولد نشأة طيبة مباركة، فيحب الله حبًّا يحول بينه وبين معصيته، ويحصل على رضوانه، ويستنفر همته إلى العمل لنصرة هذا الدين. كما إننا في أشد الحاجة لأن نربط الطفل بالقدوة والمعلم الأول للبشرية محمد ﷺ، فهو القدوة، والمثال الكامل، وهو الأسوة لمن أراد القدوة والمثال والأسوة.

روائع من رحمة الصحابيات

النسمةُ المباركة

من بني سعد تبرز ضيفتنا هذه السيدة الرصانُ الرَّزانُ الأثيرةُ لدى كُل مُسلم، العزيزةُ على كل مؤْمن، فمنْ ثدْييْها الطَّاهرين رضع الْغلامُ السعيدُ مُحمد بْنُ عبد الله (صلوات ربي وسلامه عليه)، وعلى صدْرها الْمفُعم بالْمحبة غفا، وفي حجْرها الطافح بالْحنان درج، ومنْ فصاحتها وفصاحة قومها بني سعْد نهل، فكان منْ أبْين ألْأنبياء كلامًا، وأفْصح الْفُصحاء نُطْقًا، إنَّها السيدةُ الْجليلةُ حليمةُ السعْديةُ رضي الله عنها أُمُّ نبينا مُحمد ﷺ منَ الرضاع.

ولإرْضاع السيَدة حليمةُ للطفْل الْمُبارك الذي ملأ الدُّنيا برًّا ورحمةً، وأثْرعها خيْرًا وهدْيًا، وزانها خُلُقًا وفضْلًا وعدلًا، قصةٌ منْ روائع الْقصص، فتعالوا بنا لنتعايش مع قصة رضاع الحبيب ﷺ. ولأننا لن نستطيع أن ننْصف روعة هذه القصة وجمالها، فسوف نترك المجال لحليمة السعْدية رضي الله عنها لتحكي لنا تلك القصة ببيانها الْمشْرق الأنيق الْجذاب، وأسْلوبها الْمتألق الرشيق الْممْتع، فتعالوا نسْتمعْ إليها، فخبرها عن النبي الكريم (صلوات ربي وسلامه عليه) منْ روائع الأخبار.

قالتْ حليمةُ السعْديةُ رضي الله عنها : خرجْتُ منْ منازلنا أنا وزوْجي وابْنٌ لنا صغيرٌ في عشر نسْوةٌ من نساء قوْمي بني سعد، نلْتمسُ الرضعاء في مكة، وكان ذلك في سنة قاحلة مُجْدبة، أيْبست الزرْع، وأهْلكت الضرْع، فلمْ تُبقِ لنا شيْئًا، وكان معنا دابتان عجْفاوان مُسنتان لا ترْشحان بقطْرة منْ لبن، فركبْتُ أنا وغُلامي الصغيرُ إحْداهُما، أمَا زوْجي فركب الأُخْرى، وكانتْ ناقتُهُ أكْبر سنًّا وأشدَّ هُزالًا، وكُنا والله ما ننامُ لحْظة في ليْلنا كُله لشدة بُكاء طفْلنا من الْجُوع، إذ لمْ يكُنْ في ثدْيي ما يُغْنيه، ولمْ يكُنْ في ضرعَيْ ناقتنا ما يُغذيه، ولقد أبْطأنا بالركْب بسبب هُزال أتاننا وضعفها، فضجر رفاقُنا منَّا، وشق عليهمُ السفر بسببنا.

فلمَّا بلغْنا مكة، وبحثْنا عن الرُّضعاء، وقعْتُ في أمْر لمْ يكُنْ بالْحُسْبان: ذلك أنهُ لمْ تبْقَ امرأةٌ إلا وعُرض عليها الْغُلامُ الصغيرُ مُحمد بْنُ عبد الله، فكُنا نأباهُ لأنهُ يتيمٌ، وكنا نقُولُ: ما عسى أنْ تنفعنا أُمُّ صبي لا أب لهُ؟، وما عسى أنْ يصْنع لنا جدُهُ؟، ثُم إنهُ لمْ يمْضِ علينا يوْميْن اثْنين حتى ظفرتْ كُل امرأة معنا بواحد من الرُضعاء، أمَّا أنا فلمْ أظْفر بأحد، فلما أزْمعْنا الرحيل قُلتُ لزوْجي: «إني لأكره أنْ أرْجع إلى منازلنا وألقى بني قوْمنا خاوية الْوفاض دُون أنْ آخُذ رضيعًا، فليْس في صُويحباتي امرأة إلا ومعها رضيعٌ، والله لأذْهبن إلى يتيم بني هاشم، ولآخُذنهُ.»

فقال لي زوْجي: «لا بأْس عليْك، خُذيه، فعسى أنْ يجعل الله فيه خيرًا»، فذهبتُ إليه، فاستقبلني جدُهُ عبدُ المطلب فقال: «منْ أنتِ؟» فقلتُ: «امرأة منْ بني سعْد»، قال: «ما اسمك؟» قلتُ: «حليمةُ»، فتبسم عبدُ المطلب وقال: «بخ بخ، سعد وحلم خصلتان فيهما خير الدهر، وعز الأبد»، ثم أدخلني بيت آمنة والدة النبي ﷺ فأخذته منها، والله ما حملني على أخْذه إلا أني لمْ أجدْ غُلامًا سواهُ.

فلما رجعْتُ به إلى رحلي، وضعتُهُ في حجْري، وألْقمتُه ثدْيي، فدر عليه من اللبن ما شاء الله أنْ يُدر بعد أنْ كان خاويًا خاليًا، فشرب الغلام حتى رُوي، ثُم شرب أخُوه حتى رُوي أيضًا، ثم نامَا، فاضجعت أنا وزوْجي إلى جانبهما لننام بعْد أنْ كُنا لا نحظى بالنوم إلا قليلًا بسبب صبينا الصغير، ثم حانتْ منْ زوْجي الْتفاتةٌ إلى ناقتنا الْمُسنة العجفاء، فإذا ضرعاها حافلان مُمتلئان، فقام إليها دهشًا وهو لا يُصدقُ عيْنيْه، وحلب منها وشرب، ثم حلب لي فشربت معه حتى امْتلأنا

ريًا وشبعًا، وبتْنا في خير ليلة.

فلمَّا أصبحْنا قال لي زوْجي: «أتدرين يا حليمةَ أنك قد ظفرت بطفل مُبارك؟» فقُلتُ لهُ: «إنه لكذلك يا أبا عبد الله، وإني لأرجو منْه خيرًا كثيرًا.» ثم خرجْنا منْ مكة فركبْتُ أتاننا الْمُسنة، وحملتُه معي عليها، فمضت نشيطة تتقدمُ دواب القوم جميعًا، حتى ما يلحقُ بها أي منْ دوابهم، فجعلت صواحبي يقُلن لي: «ويحك يا ابنة أبي ذُؤيب، تمهلي علينا، أليست هذه أتانك المُسنة التي خرجتُم عليها؟» فأقُول لهُن: «بلى، والله إنها هي»، فيقُلن: «والله إن لها لشأْنًا.»

ثمُ قدمْنا منازلنا في بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا منْ أرض الله أشدَّ قحطًا منْها، ولا أقسى جدْبًا، لكن غنمنا جعلت تغدُو عليها مع كل صباح فترعى فيها ثم تعودُ مع النساء، فنحلبُ منها ما شاء الله أن نحلب، ونشرب منْ لبنها ما طاب لنا أنْ نشْرب، وما يحْلبُ أحدٌ غيرُنا من غنمه قطرة. فجعل بنُو قومي يقُولُون لرعيانهم: «ويلكم، اسرحوا بغنمكم حيث يسرح راعي بنْت أبي ذُؤيب»، فصاروا يسرحون بأغنامهم وراء غنمنا، غير أنهم كانوا يعُودون بها وهي جائعةٌ ما ترشح لهُم بقطرة. ولمْ نزل نتلقى من الله البركة والْخير حتى انْقضت سنتا رضاع الصبي، وتم فطامهُ، وكان خلال عاميه هذين ينْمُو نموًّا لا يشبه نمو أقرانه، فهو ما كاد يتمُّ سنتيه عندنا حتى غدا غُلاما قويًّا مُكتملا.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يجعل نبيه محمدًا ﷺ يتيمًا، حتى لا تتدخل يد بشرية في تربيته وتوجيهه، فيكون الله تعالى هو الذي يتولى تربيته، ولا يتلقى أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئًا، إنما يتلقى من لدن الحكيم الخبير.

لقد ابتدأ النبي ﷺ يتيم الأب والأم، فالله تعالى هو الذي آواه، وسخر له جده وعمه لتهيئة الجانب المادي، بينما كانت التربية النفسية والخلقية والفكرية تعهدًا ربانيًّا، ورعاية إلهية، حتى ليشق بطنه، ويُغسل بالثلج وماء زمزم بعد نزع حظ الشيطان منه بيد جبريل عليه الصلاة والسلام، وقد وجده الله ضالًا فهداه.

ولقد شاء الله تبارك وتعالى لعبده ورسوله وأحب خلقه إليه اليتم والفقر، ليكون على يديه فيما بعد هداية الإنسانية وشفاءها من آلامها المادية كاليتم والفقر، والمعنوية التي تتمثل بالضلال والتيه. والدعاة الذين لم يعانوا من هذه الآلام والهموم والمحن غير قادرين على فهمها والإحساس فيها.

في رحاب الإيمان

ورث عديٌّ بن حاتم الطائي الرئاسة عنْ أبيه، فملكتْهُ طيئٌ عليها، وفرضتْ لهُ الربع في غنائمها. فلما صدع الرسول الكريم ﷺ بدعْوة الْهدى والْحق، ودانتْ لهُ الْعرب حيًّا بعْد حي، رأى عديٌّ في دعْوة النبي ﷺ زعامة تُوشكُ أنْ تقْضي على زعامته، ورياسة ستُفْضي إلى إزالة رياسته، فعادى الرسول ﷺ أشد الْعداوة، وهُو لا يعرفُهُ، وأبْغضهُ أعْظم البغض قبل أنْ يراهُ، وظل على عداوته للإسلام قريبًا منْ عشرين عامًا حتى شرح الله صدْرهُ لدعْوة الْهدى والحق.

يقُول عدي بن حاتم: بلغني وأنا في ديار الشام أن خيْل رسول الله أغارتْ على ديارنا، وأخذتْ أُختي في جُمْلة منْ أخذتْهُ من السبايا، وسيقتْ إلى يثْرب، وهناك وُضعت مع السبايا عند باب الْمسجد، فمر بها النبي ﷺ فقامتْ إليه وقالتْ: «يا رسول الله، هلك الْوالدُ، وغاب الْوافدُ، فامْنُن عليَّ منَّ الله عليك»، فقال: «ومنْ وفدُك؟» فقالتْ: «عدي بْنُ حاتم»، فقال: «الْفار من الله ورسوله؟» ثُم مضى رسول الله ﷺ.

فلما كان الْغدُ مر بها فقالتْ لهُ مثْل قولها بالأمس، فقال لها مثل قوله. فلما كان بعد الْغد مر بها، وقد يئستْ منهُ فلمْ تقُل شيئًا، فأشار لها رجُلٌ من خلفه أنْ قُومي إليه وكلَميه، فقامتْ إليه فقالت: «يا رسول الله، هلك الْوالدُ، وغاب الْوافدُ، فامْنُنْ عليَّ منَّ الله عليك.»

فقال: «قدْ فعلْتُ»، فقالت: «إني أُريدُ اللحاق بأهلي في الشام»، فقال رسول الله ﷺ: «ولكن لا تعْجلي بالْخُروج حتى تجدي منْ تثقين به منْ قومك ليُبلّغك بلاد الشام، فإذا وجدْتِ الثقة فأعلميني.» فلما انْصرف رسول الله ﷺ سألتْ عن الرجُل الذي أشار عليها أنْ تُكلمهُ، فقيل لها: «إنهُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.»

ثُم أقامتْ حتى قدم ركْبٌ فيهمْ منْ تثق به، فجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت: «يا رسول الله، لقد قدم رهطٌ من قومي لي فيهمْ ثقةٌ وبلاغٌ»، فكساها رسول الله ﷺ، ومنحها ناقة تحملُها، وأعطاها نفقة تكفيها، فخرجت مع الركب.

قال عديٌّ: ثُم جعلنا بعْد ذلك نتتبع أخبارها، ونترقبُ قُدُومها، ونْحنْ لا نكاد نُصدقُ ما رُوي لنا منْ خبرها مع مُحمد وإحسانه إليها كُل ذلك الإحسان، مع ما كان مني تجاههُ، فوالله إني لقاعدٌ في أهلي إذ أبصرتُ امرأة في هودجها تتجه نحونا، فقلتُ: «ابنةُ حاتم»، فإذا هي هي، فلما وقفت علينا بادرتني بقولها: «القاطعُ الظالمُ، لقد احتملت بأهلك وولدك، وتركْت بقية والدك وعورتك.»

فقلتُ: «أي أُخيةُ، لا تقولي إلا خيرًا»، وجعلْتُ أسترضيها حتى رضيت، وقصت عليَّ خبرها، فإذا هُو كما تناهى إليَّ، فقُلتُ لها - وكانت امرأة حازمة عاقلة: «ما ترين يا سفانة بنْت حاتم في أمْر الرجُل؟» فقالت: «أرى والله أنْ تلحق به سريعًا، فإن يكُنْ نبيًّا فللسابق إليه فضلُهُ.» وشهد عدي وسفانة ابنْا حاتم شهادة الْحق.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، هنا نلمس عظمة النبي ﷺ، وحسنْ خلقه الذي لا يضاهى، فإنه خاطبها بلغة الكرم والجود والعطاء والرحمة والوفاء والرفق والأناة، وهذا ما عاشت عليه سفانة مع أبيها حاتم الطائي المعروف بالكرم والجود، هذا الأسلوب الفريد في الدعوة إلى الله تعالى

جعلها تسارع إلى إعلان الإسلام، وإن كان في ذلك ما يكون، فلقد دخل الإسلام شغاف قلبها، والدعوة العملية تخطف القلوب، وتشرح الصدور، وتزكي النفُوس، فعمل رجُل في أهل رجل خير من قول ألف رجل في رجل. وكمْ منْ بلاد دخلت الإسلام عنْ طريق الأخلاق الإسلامية الفذة فلم ترتد، وهذا واضح في ملايين المسلمين في ماليزيا، وبنجلاديش، والهند، والصين، وإندونيسيا.

لقد كانت معاملة رسول الله ﷺ الكريمة لأخت عدي بن حاتم حيث بقيت معززة مكرمة، ثُم كساها النبي ﷺ وأعطاها ما تتبلغ به في سفرها، وقد كان النبي ﷺ أبقاها لترى حياة المسلمين، لتروي لأخيها أخلاقهمْ ومعاملاتهم، وقد كان لهذه المعاملة الكريمة أثر واضح في قدوم أخيها وإسلامه. لقد كان النبي ﷺ مُوفقًا كُل التوفيق في دعوته حيث كانْ خبيرًا بأدواء النُّفوس ودوائها، ومواطنُ الْضعفُ فيها، وأُزمةَ قيادها، فكان يعامل كل إنسان بما يلائم علمه وفكرهُ، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، حتى استطاع أنْ يُجتذب أُكابر الناس وسادتهم بالطرق التي يراها تؤثُر فيهم، وبذلك دخل الناس في دين الله أفواجًا.

تلك هي الكرامة

لا شك أن في النساء صورة منْ صور الضعُف، وليس ضعفًا مذمومًا، فإنُه من جانُب ليس مقصودًا منْهن، ومن جانب آخر هو محمود مرغُوب. فأما الجانبُ غير المقصود فهو ضعف البنية والجسم، وهذا لا حيلة للمرأة فيه، فلا يلومُهنَّ أحدٌ عليها. وأما الجانبُ الْمحمود فهو في ضعف القلب والعاطفة، بمعنى رقة المشاعر، وهُدوء الطباع، وهو لا شك أمر محمود في النساء، وكلما زاد دونُ إفراط كان ألطف وأجمل.

وكان النبي ﷺ يُقدر هذا الضعف في النساء، ويحرص على حمايتهنَّ من الأذى الجسدي أو المعنوي، ويُظهر رحمته بهنَّ بأكثر من طريقة، وفي أكثر من موقفُ، وكان ﷺ دائم الوصية بالنساء، وكانْ يقولُ لأصحابه: «اسْتوْصُوا بالنساء خيْرًا»، وتكررت منْه نفس النصيحة في حجة الوداع.

غير أن الذي يلفت النظر بصورة أكبر في رحمته ﷺ بالنساء، هو جانب التطبيق العملي في حياته ﷺ، فلم تكُنْ هذه الكلمات الرائعة مجرد تسكين لعاطفة النساء، أو تجمُّل لا حقيقة له، بل كانت هذه الكلمات تُمارَس كل يوم وكل لحظة في بيته ﷺ. ويكفي هنا أن نسرد موقفًا واحدًا معُ أمِّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

اسْتأْذن أبُو بكر رضي الله عنه يومًا على النبي ﷺ، فسمع صوْت عائشة رضي الله عنها عاليًا، فلما دخل تناولها ليلْطمها، وقال: «ألا أراك ترْفعين صوْتك على رسول الله ﷺ؟» فجعل النبي ﷺ يحْجزُهُ، وخرج أبُو بكْر مُغْضبًا. فقال النبي ﷺ حين خرج أبُو بكْر: «كيْف رأيْتني أنْقذْتُك من الرجُل؟» فمكث أبُو بكْر أيامًا ثُم اسْتأْذن على رسول الله ﷺ، فوجدهُما قد اصْطلحا، فقال لهُما: «أدْخلاني في سلْمكُما كما أدْخلْتُماني في حرْبكُما»، فقال النبي ﷺ: «قدْ فعلْنا، قدْ فعلْنا.»

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، رحمة رسول الله ﷺ هنا قد فاقت رحمة الأب، فأبو عائشة رضي الله عنهما أراد أن يعاقبها على خطئها، ولكن الرسول ﷺ لرحمته بها حجز عنْها أباها، وأحيانًا تخطئ زوجته خطًا كبيرًا، ويكون هذا الخطأ أمام الناس، وقد يسبب ذلك الإحراج له ﷺ، ومع ذلك فمنْ رحمته يُقدر موقفها، ويرحم ضعفها.

روائع من خوف الصحابيات

الحروف والحتوف

كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أحب البشر إلى خالتهُ أمِّ المؤمنين عائشة بنْت أبي بكر رضي الله عنهما بعد رسول الله ﷺ وأبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه. وكان عبد الله أبر الناس بها. وكانت تُكنى به، فيقال لها: أمُّ عبد الله. والخالةُ بمنزلة الأُم، وعائشة رضي الله عنها أمٌّ لجميع المؤمنين بنص كتاب الله عز وجل. وكانت رضي الله عنها لا تُمسك عندها شيئًا مما جاءها من رزق الله إلا تصدقتْ به على المساكين.

فقال عبد الله بن الزبير حدبًا على خالته في بيع أو عطاء عظيم أعطته، وقيل في دار باعتها وتصدقت بثمنها، فقال: «والله لتنتهين خالتي عائشة، أو لأحجُرن عليها، ينبغي أنْ يؤخذ على يديها»، فعرفت أمُّ المؤمنين بالأمر فقالتْ: «أهُو قال ذلك؟» قالوا: «نعم»، قالت: «هو لله عليَّ نذر أنْ لا أكلم ابنْ الزبير أبدًا.»

طال الهجر على عبد الله، وضاقت به الأرض، وضاقت نفسه، فاستشفع إليها بالمهاجرين، فقالت: «والله لا أشفع فيه أحدًا قط، ولا أتخنث في نذري، ولا آثم فيه»، فلما طال ذلك عندها كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود رضي الله عنهما، وهما منْ أخوال النبي ﷺ، وكانت أرق شيء لقرابتهما من رسول الله ﷺ، فقال لهما: «ناشدتكم الله إلا ما أدخلتماني على خالتي عائشة، فإنه لا يحل لها أن تنذر قطيعتي إلى أبد، إنْ كانت عقوبة على ذنبي، فليكن لذلك أمد.»

فأقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما، حتى استأذنا على أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقالا: «السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أمَّ المؤمنين، أندخل؟» قالت عائشة: «ادخلوا»، قالوا: «كلنا»، قالت: «نعم كلكم» - وكانت لا تعلم أن معهما ابن الزبير، فلما دخلوا، اقتحم عليها ابن الزبير الحجاب، فاعتنق أمُه عائشة، وطفق يناشدها ويبكي، والمسور وعبد الرحمن ينُاشدانها إلا ما كلمته وقبلت منه.

ويقولان لها: «يا أمَّ المؤمنين، قد نهى رسول الله ﷺ عما علمت من الهجر، وإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام أو ليالٍ»، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريم، طفقت تذكرهما وتبكي وتقول: «نذرت، والنذر شديد»، فلم يزالا بها يكلمانها حتى كلمته، وعفت عنه.

فلا تسل لكأنه عبدٌ مملوكٌ أعتقته، فأرسل إليها بعد ذلك عبد الله بعشر رقاب، فأعتقتهم جميعًا لوجه الله، ثم لمْ تزل تعتق حتى أعتقت أربعين رقبة، كل ذلك مبالغة منها في براءة ذمتها رضي الله عنها، وكان يكفيها عتق رقبة واحدة، وكانت رضي الله عنها كلما تذكر نذرها ذلك، تبكي حتى تبل دموعها خمارها.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز منْ أكل الحرام، والظلم، والربا، والزنا، والسرقة، وشرب الخمور، والنظر المحرم، وغير ذلك، ومع ذلك يُصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى لترين الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلمُ الكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا، يزل بها أبعد مما بين المشرق والمغرب، إنها الحروف لو قُدر كون بعضها سائلاً ثم مُزج بماء البحر لأفسده.

بحروف ملفوظة أو مكتوبة يهوي المرء أو يُرفع، ويُرضى عنه أو يُسخط عليه، فقد قال رسول الله ﷺ كما في الصحيحين: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جنهم.»

ضوابط دقيقة، وزواجُر عظيمة، وكم من الحروف تجد الحتوف.

وحان وقت الرحيل

بعد الرحلة الطويلة من العبادة، والعلم، والبذل، والعطاء، والتضحية لدين الله سبحانه وتعالى، نامت الصديقة الطاهرة أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما على فراش الموت بعدما ملأت الدنيا علمًا وفقهًا وزهدًا وورعًا، فلقد آن الأوان لأمنا الغالية أن تستريح، وأن تبدأ رحلتها مع النعيم المقيم، فهي زوجة الحبيب ﷺ في الدنيا والآخرة.

ففي ليلة من ليالي رمضان، آن فيها لشمس العلم أن تغيب، فعن ذكوان مولاها قال: جاء ابن عباس رضي الله عنهما يستأذن على عائشة، وهي في فراش الموت. قال: فجئت وعند رأسها عبد الله ابن أخيها عبد الرحمن، فقال: «هذا ابن عباس يستأذن بدخول»، قالت: «دعني من ابن عباس لا حاجة لي به، ولا بتزكيته»، فقال لها ابن أخيها عبد الله: «يا أماه، إن ابن عباس من صالحي بنيك، يسلم عليك ويودعك»، فقالت: «ائذن له إن شئت»، فأدخله. فلما دخل قال: «كيف تجدينك؟» قالت: «بخير إن اتقيت»، قال: «فأنت بخير إن شاء الله تعالى»، ثم قال: «أبشري، فما بينك وبين أن تلقي محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروحُ من الجسد، فقد كنتِ أحب نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، ولم يكنْ رسول الله ﷺ يحب إلا طيبًا، وسقطتْ قلادتُك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ ليطلبها حين يصبح في المنزل، فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله عز وجل {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} المائدة: ٦.

«وكان ذلك في سبيلك، وما أنزل الله لهذه الأُمة من الرُّخصة، وأنزل براءتك من فوق سبْع سماوات، جاء بها الرُوح الأمينُ، فأصبح ليس مسجدٌ من مساجد الله يُذكر فيه إلا هي تُتلى فيه آناء الليل والنهار.» فقالت رضي الله عنها: «يا ابن عباس، دعني منْك ومن تزْكيتك، فوالله لوددْت أنِّي كنت نسيًّا منسيًّا.»

ولم تنسَ رضي الله عنها أن توصي حين موتها، فقالت: «إذا كفنت، وحنطت، ثم دلاني ذكوان في حفرتي، وسواها عليَّ فهو حرٌّ.» وقالت: «لا تدفئوا مني النار، ولا تحملوني على قطيفة حمراء.» وكانت وفاتها رضي الله عنها ليلة الثلاثاء لسبع عشرة من شهر رمضان سنة ٥٨ هجرية، وهي ابنة ست وستين سنة، وأمرت أن تدفن من ليلتها، ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، المؤمن ينظر في أمور الدنيا لمن هو أدنى منه كي لا يزدري نعمة الله تعالى عليه، فلا ينظر لمن هو أكثر منه مالًا، ولكن ينظر لمن هو أشد منه فقرًا كي يعرف مدى نعمة الله عليه فيشكرها. أما في أمور الآخرة فإن المؤمن ينظر إلى من هو أفضل منه وأكثر عبادة، فلا يقول: أنا أصلي وغيري لا يصلي، ولكن ينظر إلى غيره يصلي في المسجد وفي أول الوقت. وهكذا يكون ميزان المؤمن في الدنيا كي يحيا حياة كريمة، ويرضي الله تعالى، ولا يكون كالذين يردون الحياة الدنيا.

الصائمة العابدة

فقهت المرأة المسلمة عن الله أمره، وتدبرت في حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشت من فتنتها، وتجافى جنبها عن مضجعها، وتناءى قلبها من المطامع، وارتفعت همتها عن السفاسف، فلا تراها إلا صائمة قائمة، باكية والهة. وقد حفل التاريخ بالخيرات الصالحات اللواتي نهجن طريق الزهد عن فرط علم، ورسوخ عقيدة، لا عن حماقة وجهالة، كما تجدُ في كثير ممنُ عُرفنُ بالنسك والتصوف من أشتات.

ويتصدر هؤلاء العابدات نساء الصحابة •، ويتصدر نساء الصحابة أمهات المؤمنين، وآل بيت النبي ﷺ، وعلى رأس هؤلاء أمُّ المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما.

فمن الصفات الطيبة والمآثر الحسنة التي اتصفتْ بها الصديقةُ بنت الصديق رضي الله عنهما، كثرةُ الصيام والقيام، فلقد كانت رضي الله عنها عابدة قانتة، وكانت تصوم يومًا، وتفطر يومًا، وتكثر من التهجدُ ليلا، والتطوع نهارًا.

فعن القاسم بن محمد بن أبي بكر - وهو ابن أخيها - رحمهما الله قال: «كانت عائشة تصوم الدهر.» وعن عروة بن الزبير قال: «إن عائشة، تصوم الدهر لا تفطر إلا يوم أضحى، أو يوم فطر.»

وكان القاسم بن محمد يقول: كنت إذا غدوت إلى المدينة أبدأ ببيت عائشة رضي الله عنها فأسلم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تصلي وتقرأ قول رب العزة ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ الطور: ٢٧، وكانت تقول: «اللهم من علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم»، وتدعو وتبكي وترددها، فقمتُ حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي.

عبرة

كان كرم السيدة عائشة رضي الله عنها لم يترك حاجة في نفسها تبتغيها من دنياها سوى رضا الله عز وجل، فإن زهدها هو الذي مكنها من التفرغ الكامل للعبادة في صورها المؤتلفة، اقتداءً برسول الله ﷺ، فقد كانت تراه يقوم الليل حتى تورمت قدماهُ، فكانت تقوم على قدر طاقتها مع حداثة سنها، وتراه يكثر من ذكر الله ومن الدعاء، فتفعل مثل ما يفعل. لقد سلكت سننه كلها في عباداته وعاداته وفي شأنه كله.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد منَّ الله على أناس من خلقه فحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وتولاهم بولايته، وأحاطهم بعنايته، فشرح صدورهم لطاعته، وأوزعهم شكر نعمته فأصبحوا شاكرين، وأمسوا مشفقين من عذاب ربهم، إلى أن بعثهم ربهم، فرأوا بأعينهم جهنم التي أقسم الرب أن الخلق كلهم ليردونها أجمعين، والتي لم تغب عن أذهانهم طيلة حياتهم، ولم تفتر ألسنتهم يسألون ربهم أن يصرف عنهم عذابها، فهاهم اليوم يمرون فوقها، ولا يزالون مشفقين من عذابها، ويزداد خوفهم من عذابها حين أبصروا بأعين رؤوسهم إلى من تخطفهم النار بكلاليبها فيكردسون في النار، فينجيهم منها بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، برًّا بهم، لطفًا ورحمة، فتنطق ألسنتهم مثنية على ربها: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾، وما منَّ عليهم هناك إلا لما منَّ عليهم هنا في الدنيا بمباعدتهم عما يوجب دخلوها.

روائع من فقه الصحابيات

الصابرة المحتسبة

من المؤمنات الصحابيات من فقهت في دينها، وأخذت من أحكام الشريعة بحظ وافر، وعرفت طريقها إلى الله عز وجل، فاستجابت له، وأسلمت أمرها إليه، وأحسنْت التوكُّل عليه، واستمسكتُ بالعروة الوثقى، حتى لقيت ربها عز وجل، وهي مؤمنة صادقة كل الصدق في إيمانها، مخلصة كل الإخلاص في أقوالها وأحوالها ومقاصدها، ومن هؤلاء كانت خولة بنت حكيم امرأة أوس بن الصامت رضي الله عنهما - وهو أخو الصحابي الجليل والقائد الملهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

كانت خولة رضي الله عنها امرأة قد تحلت بالفضائل، وتخلت عن الرذائل، واشتهرت بالحلم والحكمة، وتميزت بالجدل الذي يوصل إلى الحق، ويهدي إلى سواء سبيل. وقد كانت رضي الله عنها تحسنُ إلى زوجها وابن عمها أوس بن الصامت، وتحنو عليه، وتجود عليه بالكثير من مالها، ولا تدخر وسعًا في إسعاده وإدخال السرور عليه.

وكان لها الفضل رضي الله عنها في إبطال الظهار وتحريمه على كل مسلم، والتخلص من بوائقه بمشروعية الكفارة لمن وقع فيه وأراد العدول عنه، ففي شأنها مع زوجها أنزل الله تعالى قرآنًا يُتلى إلى قيام الساعة، وهو صدر سورة المجادلة.

قالت خولة: كنت عند أوس بن الصامت، وكان شيخًا كبيرًا قد أصابه الحزن، فدخل عليَّ يومًا فراجعته في أمر، فغضب وقال: «أنتعليَّ كظهر أمي»، ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني، فقلت: «كلا، والذي نفسي بيده، وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا.»

فخرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خولة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سُري عنه، فقال: «يا خولة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنًا»، ثم قرأ عليَّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤ ﴾.

لقد كانت هذه الآيات حلًّا لإشكال طالما تأزم خطره على المجتمع العربي في الجاهلية، واستشرى ضرره بين الأزواج والأسر، فقد كان الرجل إذا أراد أن يفارق زوجته يشبهها بأمه في الحرمة، فيقول لها: «أنتِ عليَّ كظهر أمي»، وبذلك القول المنكر والزور تفارقه ويفارقها إلى الأبد.

وقد شاء الله عز وجل أن تجيء هذه المرأة المؤمنة إلى رسول الله ﷺ فتشكو له زوجها، فتحاوره إلى أمره وأمرها، وتقول له في حوارها: «يا رسول الله ﷺ، زوجي فعل وفعل، وقد كبرت

سني، ووهن عظمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن أبقيتهم معي جاعوا، ...» إلى آخر ما قالت رضي الله عنها.

والرسول الكريم ﷺ يقول لها: «أراكِ قد حرمت عليه»؛ فهو لا يملك شيئًا، وليس عنده في هذا الأمر مخرج يدلها عليه. ولكن الله عز وجل كان يعلم حالها، ويسمع قولها، وهو أرحم بها من نفسها على نفسها، فأنزل هذه الآيات لتكون مخرجًا لها ولأمثالها من هذا المأزق الحرج، والموقف المحرج، فحفظ المسلمون لها هذا الفضل، ودعوا لها بخير.

عبرة

أيتها الأخوات الكريمات، إن هذه المرأة قد عرفت أن الله لن يضيعها، ولن يخذلها أبدًا في شكواها، فقالت بعد أن أكثرت الجدال في هذا الشأن الذي جاءت من أجله إلى رسول الله ﷺ: «إلى الله أشتكي»، أي إليه أبث حزني وأسفي، لا إلى غيره، فهو الذي بيده الأمر كله، وإليه الملجأ والملاذ، وهي تعلم أن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، فهو يتلقى الوحي من ربه، ولا يقول في الدين برأيه، فأنزل الله هذه الآيات، حسمًا للقضية، ودفعًا للحرج والمشقة، وإحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل، ووضعًا للأمور في نصابها.

لقد بذلت السيدة خولة رضي الله عنها جهودًا كبيرة كي تحافظ على زوجها ولا تهدم بيتها بكلمة خرجت في لحظة ضعف، حتى إنها جاءت تجادل رسول الله ﷺ وتناقشه في مخرج لها ولزوجها، ونحن نستشعر من ذلك مدى حرصها على إقامة هذا البيت، وهو درس ينبغي أن تتعلمه كل زوجة تطلب من زوجها الطلاق لأتفه الأسباب، أو تتعارك مع زوجها وتغضبه وتمنعه حقه، وتكلفه ما لا يطيق، وتشبعه الشكاوى من الجيران والأولاد والأقارب، بما يجعله في هم دائم ونكد أبدي.

خطيبة النساء

أسماء بنْتُ يزيد الأنصارية هي فارسة الفرسان، وأميرة الفصاحة والبيان، حباها الله لسانًا طلقًا بليغًا، تتلألأ الحروف والكلمات بين شفتيها فتشق طريقها إلى العقول والقلوب بلا عناء، فقد جمعت أسئلة النساء، وحملتها إلى النبي ﷺ، وعادت إليهن بالإجابات الشافية، والردود الوافية، والحقائق الجامعة المانعة، التي تشفي الصدور، وتروي ظمأ النفوس.

وأسماء هذه هي رسول النساء إلى النبي ﷺ، أي كانت ترسَل من قِبل النساء إلى النبي ﷺ، وكانت من ذوات العقل والدين. وكان يقال لها خطيبة النساء. نعم، حازت على شهادة الفصاحة من الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم)، فقد عُرفت بحسن المنطق، وقوة البيان، وقد زادت سماتها تلك بأن نهلت من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، حتى لُقبت بخطيبة النساء.

جاءت أسماء بنت يزيد إلى النبي ﷺ تسأل في أمر يشغل النساء المسلمات، قالت بلسانها الذي يفيض فصاحة وبلاغة: «بأبي وأمي أنت يا رسول الله، إنني رسول مَن ورائي من جماعة نساء المسلمين، كلهن يقلن بقولي، وهن على مثل رأيي، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء،

فآمنا بك واتبعناك، ونحن معشر النساء مقصورات، قواعد البيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فُضلوا بالجُمع والجماعات، وعيادة المرضى، وحضور الجنازات، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا أو مجاهدًا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الأجر والخير؟!»

التفت الرسول ﷺ إلى صحابته الكرام رضي الله عنهم وسألهم: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مُساءلتها في أمر دينها من هذه؟» قالوا: «يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا.»

فالتفت النبي ﷺ بوجهه كله لها ثم قال: «انصرفي يا أسماء، وأعلمي مَن وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقته، يعدل كل ما ذكرتِ للرجال»، فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر فرحًا وبشرًا بما قال النبي الكريم. وحُسن تبعل المرأة يعني تفانيها في طاعة زوجها، وحسن رعايتها له ولبيتها وأولادها، وحفظها له في ماله وفي عرضها.

ما معني هذا الكلام؟ معناه أن النبي ﷺ يشير لها أن المجتمع ينقسم إلى قسمين: جبهة خارجية، وجبهة داخلية. الجبهة الخارجية لا يمكن أن تستمر إذا لم توجد جبهة داخلية، والجبهة الداخلية لا يمكن أن تستمر إذا لم توجد جبهة خارجية. إذًا الجبهة الخارجية لو ذهب الرجل يجاهد في سبيل الله، ويحضر الجمع والجماعات، ويسافر في سبيل الدعوة إلى الله، أو غير ذلك، وبيته ليس به أحد يحفظ البيت، ويقوم على مصالح الأولاد، ويحفظ المال، ويعد له طعامه، ونحو ذلك، إذا لم يوجد أحد عنده في البيت يفعل هذا، فهي مشكلة، لن يستطيع أن يواصل وهو في الخارج في الجبهة الخارجية. وكذلك المرأة في جبهتها الداخلية، أن يكون هناك أحد يحميها، ويصون عرضها، وينفق عليها، ويقوم على شأنها، ويرفع رأسها، ونحو ذلك، وإلا فلن تستطيع هي أيضًا أن تقوم بالجبهة الداخلية.

عبرة

يا أيتها الكريمات، صدق رسول الله ﷺ، فطاعة المرأة لزوجها جهاد من نوع آخر غير جهاد السيف، إنها جهاد العاطفة والهوى والنفس، إنه لثواب عظيم ما أجدر زوجاتنا أن يحرصن عليه، جنة عرضها السماوات والأرض تُعطى ثمنًا لطاعة الزوج وعبادة الله، ما أرخص الثمن، وما أغلى المبيع.

ونحب أن ننبه هنا إلى الطاعة المطلوبة من المرأة لزوجها إنما هي في حدود الشريعة، والمصلحة المحققة لها ولأولادها، فمَن أمرها زوجها بشرب المسكرات، أو مرافقة الرجال، أو ضرب الأبناء ضرب التلف، لم تلزمها الطاعة، بل تحرم عليها الطاعة في مثل هذه الأوامر.

يا أيتها الأخوات الكريمات، هذا مثلٌ للبنت التي رباها الإسلام بأسلوبه الحكيم العظيم، فلما تصبح أمًّا تعلم ابنها كيف يضرب أروع الأمثال في الفداء والتضحية والاستشهاد في سبيل الحق، لنذكر هذا دائمًا حين نحاول أن نعرف سر الخلود في تاريخ عظمائنا الخالدين، وسر الإخفاق في تاريخ رجالنا المعاصرين.

روائع من بطولات الصحابيات

امرأة بألف رجل

إن نساء الصحابة لَم يدعن لرجالهن خلة يستأثرون بها دونهُن، ولم يتركن سبيلًا للخير منْ سبل العظائم ولا مشرفًا منْ مشارف المكارم إلا وكُنَّ من السابقات إليه، حتى جاذبن الرجال حبل البطولةُ، واصطلينْ بنيران الحرب، وأبدعُنْ في ساحات الوغى حين دعت الحاجة لذلك، فهذه نسيبة بنت كعب المازنية - أمُّ عِمارة - كانت لها السبقُ إلى ساحة الإيمان، والجهاد في سبيل الله.

لم يهدأ بال قريش منذ ما غشيها في بدر الكبرى من قتل صناديد المشركين في المعركة، وكان ما جد من الحوادث بعدُ لا يزيد أحقادها إلا ضرامًا. فلما استدارت السنة، كانت مكة استكملت عدتها، واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله، فخرج الجيش الثائر في عدد يربو على ثلاثة آلاف، ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغُ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم.

خرج المسلمون لملاقاة المشركين، وعسكروا بالشعب من أُحُد، خرجتْ أمُّ عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنها إلى أُحُد تحْملُ سقاءها لترْوي ظمأ المجاهدين في سبيل الله، ومعها لفائفُ لتُضمد جراحهُمْ، ولا عجب فقدْ كان لها في المعركة زوْجٌ وثلاثةُ أفئدة، همْ: زيد بن عاصم رضي الله عنه، ورسول الله ﷺ، وولداها حبيبٌ وعبدُ الله ابنْا زيد بن عاصم رضي الله عنهم، وذلك بالإضافة إلى إخْوتها من الْمُسْلمين المدافعين عن دين الله، الْمُنافحين عنْ رسول الله ﷺ.

بدأ القتال الدامي، وكانت النصُرة لجند الله المُوحدين، وبدأ المسلمون في جمع الغنائم، وإذا بالرماة يتركُون مواقعهم هابُطين إلى الميدان، فاغتنم المشركون الفرصة، وجاؤوا من الخلف، وهجموا على المسلمين، وقتلوا عددًا كبيرًا منهم، ثم بحثوا عن النبي ﷺ يريدون قتله.

لقدْ رأتُ أمُّ عمارة رضي الله عنها بعيْنيْها كيف تحول نصْرُ الْمسلمين إلى هزيمة كبرى، ورأت كيف أخذ الْقتلُ يشْتدُّ في صفوف الْمسلمين فيتساقطُون على أرْض الْمعركة شهيدًا إثْر شهيد، وكيف زُلْزلت الأقدامُ، فتفرق الرجال عن رسول الله ﷺ حتى لمْ يبْقَ معهُ إلا عشرة أو نحوٌ من عشرة، عنْد ذلك ألْقت أمُّ عمارة سقاءها، وانْبرت إلى المعركة كالنمرة التي قُصد أشْبالها بشر.

لنتْرُك هنا الحديث لأُم عمارة رضي الله عنها لنستمع عنْ هذه اللحظات الْحاسمات، فليس كمُثْلها منْ يسْتطيعُ تصْويرها بدقة وصدْق، تقول: لما انْكشف الْمسلمون عنْ رسول الله ﷺ فما بقي إلا نفر قليل ما يزيدُون على الْعشرة، فملْتُ إليه أنا وابْني وزوْجي، وأحطنا به إحاطة السوار بالْمعْصم، وجعلْنا نذُودُ عنه بسائر ما نمْلكُه من قوة وسلاح.

ورآني الرسول الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - ولا تُرْس معي أقي به نفْسي منْ ضربات الْمُشركين، ثم أبصر رجُلًا مُوليًا ومعه تُرسٌ فقال له: «ألقِ تُرسك إلى منْ يقاتل»، فألقى الرجُل تُرسهُ ومضى، فأخذْتُهُ وجعلتُ أترسُ به عن الرسول ﷺ، وما زلْتُ أُضاربُ عن النبي ﷺ بالسيف وأرْمي دُونهُ بالْقوس حتى أعْجزتني الْجراح.

وفيما نحنُ كذلك أقْبل ابن قمئة كالْجمل الْهائج وهو يصيحُ: «أين محمدٌ؟، دلوني على محمدٌ، لا نجوتُ إن نجا»، فاعْترضْتُ سبيله أنا ومُصعب بن عمير، فصرع مصْعبًا بسيفه وأرْداهُ قتيلًا، ثُم ضربني ضربة خلقت في عاتقي جُرحًا غائرًا، فضربتُهُ على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، ما قامت به أم عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنها من التحول عن أداء مهامها كامرأة إلى أداء مهام الرجال الجهادية، وذلك حينما وقعت الإصابة على المسلمين، وأُفرد النبي ﷺ في نفر من أصحابه، فرأت أم عمارة أن واجبها آنذاك أكبر من تقديم الخدمات المساعدة، فباشرت قتال المشركين دفاعًا عن رسول الله ﷺ، وحصل منها ما ذُكر في هذه الموقف من التصدي للأعداء، والمشاركة في رد هجماتهم.

يا أيتها الأخوات الكريمات، هكذا لمْ تخف ربيبة الإسلام وبنت الإيمان من الضرب أو الطعان، بل أقبلت ثائرة عازمة على أن تبذل كل طاقتها في سبيل دينها وحريتها، وكرامة أمتها، فقابلت ضربة العتل الأثُيمُ بضربات لها قوتها وشدتها، ولكن اللعين كان قد حصن جسمه، فوضعُ عليه درعُينُ لا درعًا واحدة، ونسيت أم عمارة حينئذ كل شيء إلا أنها في ميدان يحتاج إلى وفاء وفداء، فمضت تطعن وتضرب، حتى قال فيها رسول الله ﷺ: «ما التفتُّ يمينًا ولا شمالًا إلا رأيت أمَّ عمارة تقاتل دوني.»

العجوز المجاهدة

لن ينسَ أحد موقف صفية بْنت عبد المطلب رضي الله عنها يوم الخندق، هذا الموقف العجيب والغريب، فإليك خبرها كما ذُكر في كتب التاريخ. كان من عادة النبي ﷺ إذا عزم على غزوة من الغزوات أن يضع النساء والذراري في الحصون؛ خشية أن يغدر بالمدينة غادرٌ في غيبة حُماتِها، فلما كان يوم الخندق جعل نساءَه وعمَّته معهن، وطائفة من نساء المسلمين، في حصنٍ لحسان بن ثابت، ورِثه عن آبائه، وكان من أكثر حصون المدينة مناعةً، وأبعدها منالا.

وبينما كان المسلمون يرابطون على حوافِّ الخندق، في مواجهة قريش وأحلافها، وقد شُغلوا عن النساء والذراري بمنازلة العدو، أبصرتْ صفيةُ بنت عبد المطلب رضي الله عنها شبحًا يتحرَّك في عتمة الفجر، فأرهفتْ له السمع، وأحدَّتْ إليه البصر، فإذا هو يهوديٌّ أقبل على الحصن، وجعل يَطوف به، متحسسًا أخباره، متجسسًا على مَن فيه، فأدركتْ أنه عينٌ لبني قومه، جاء ليَعلم أفي الحصن رجالٌ يدافعون عمن فيه، أم أنه لا يضمُّ بين جدرانه إلا النساء والأطفال.

فإذا علم هذا اليهودي المتجسس أنَّ هذا الحصن لا يضمُّ إلا نساءً وأطفالًا، داهموا هذا الحصن، وسبَوْا النساء والذراري، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، وانتهى الأمر، وصاروا في صف الأعداء من قريش وأحلافها.

فقالت في نفسها: إن يهود بني قريظة قد نقضوا ما بينهم وما بين رسول الله من عهدٍ، وظاهروا قريشًا وأحلافها على المسلمين، وليس بيننا وبينهم أحدٌ من المسلمين يدفعون عنا، ورسول الله ﷺ ومَن معه مرابطون على الثغور لمواجهة العدو، فإن استطاع عدو الله هذا اليهودي أن ينقل إلى قومه حقيقة أمرنا سبَى اليهودُ النساءَ، واسترقُّوا الذراري، وكانت الطامَّة على المسلمين.

عند ذلك بادرت إلى خمارها، فلفَّته على رأسها، وعمدت إلى ثيابها فشدَّتها على وسطها، وأخذت عمودًا على عاتقها، ونزلت إلى باب الحصن، فشقَّته في أناةٍ وحذقٍ، وجعلت ترقب من خلاله عدو الله في يقظةٍ وحذر، حتى إذا أيقنت أنه غدا في موقفٍ يُمَكِّنها منه، حملت عليه حملةً حازمةً صارمةً، وضربته بالعمود على رأسه، فطرحته أرضًا، ثم عززت الضربة الأولى بثانيةٍ وثالثة، حتى أجهزت عليه، وأخمدتْ أنفاسه بين جنبيه، وبادرتْ إليه، فاحتزَّتْ رأسه بسكين كانت معها، وقذفت بالرأس من أعلى الحصن، فطفق يتدحرج على سفوحه، حتى استقر بين أيدي اليهود، الذين كانوا يتربَّصون في أسفله، فلما رأى اليهود رأس صاحبهم، قال بعضهم لبعضٍ: «قد علمنا أن محمدًا لم يكن ليترك النساء والأطفال وحدهم من غير حماةٍ»، ثم عادوا أدراجهم.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لقد أجرى اللهُ على يديها حفظَ نساء المسلمين وسلامتهنَّ بهذه الشجاعة النادرة، رضي الله عن صفية بنت عبد المطلب، كانت مثلًا فذًّا للمرأة المسلمة، ربَّت وحيدها فأحكمت تربيته، أصيبت بشقيقها في أُحُد فأحسنت الصبر عليه، اختبرها اللهُ في الشدائد فوجد فيها المرأة الحازمة العاقلة الباسلة. إن صفية بنت عبد المطلب كانت أول امرأةٍ قتلت مشركًا في الإسلام، هذه بطولة، وهذا موقف عظيم للمرأة في الستين من عمرها كانت في أعلى درجات إيمانها، وأعلى درجات محبَّتها لدين الله، ولرسول الله، وأعلى درجات دفاعها عن هذا الدين العظيم.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن المحنة هى التي تمحص القلوب، وتكشف ما في الصدور من

إيمان أو كفر، وقد يتزلزل المؤمن لكنه لا يفقد إيمانه، قد يفقد موقفه، وقد يفقد شجاعته وثباته، لكن إيمانه لا يتزلزل أبدًا. أما ضعيف الإيمان فينهار إيمانه أمام الأحداث، وأما المنافق المتجلبب بجلباب الإسلام حين يكشف الغطاء، ويرى أن دولة الإيمان على وشك الزوال كما يبدو له، فيكشف هنا عن خبيئة نفسه، ويظهر نتن قلبه، ويعلن شكه بدينه ونبيه وربه، وهؤلاء لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم في الدنيا والآخرة.

شهيدة البحر

كانت الصحابية الكريمةُ أمُّ حرام بنت ملحان رضي الله عنها تتمنى منْ أعماق قلبها أن تخدم هذا الدين، وأنْ تنُصره، ولو كان الثمن أنْ تُقدم حياتُها فداءَ لنُصرة دين الله، وتتمني أنْ تُكون مع ركب المجاهدينُ، وكانت تُشتهي أنْ يرزقُها الله عز وجل الشهادة في سبيله، وذلك لِما للشهداء منْ منزلة وكرامة عنْد الله سبحانه وتعالى، وكانت الشهادة في سبيل الله نصب عينيها، وحلمًا تود تحقيقه، وكثيرًا ما كانت تسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يرزقها الشهادة، إذا بالبشرى تأتيها منْ فم الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، فلقْد بشرها الحبيب المصطفى ﷺ بأنها ستموت شهيدة تغزو البحر.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يدخل على خالتي أم حرامٍ بنت ملحان فتُطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت رضي الله عنه، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم اسْتيقظ وهو يضحك فقالت: «ما يضحك يا رسول الله؟» قال: «ناس من أمتي عُرضوا على غُزاة في سبيل الله يركبون ظهر هذا البحر، كالملوك على الأسرة»، فقالت: «يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم»، فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم وضع رأسه ثم اسْتيقظ وهو يضحك فقالت: «ما يضحك يا رسول الله؟» قال: «ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله» - كما قال في الأولى - فقالت: «يا رسول الله، ادع أن يجعلني منهم»، فقال: «أنت من الأولين.»

وتمر الأيام وما زالت أمُّ حرام رضي الله عنها تتعايش مع نُور القرآن، والسنة، فكانت عُابدة، صائمة، قائمة، إلى أنْ جاءت اللحظة التي جعلت القلوب تُبكي الدماء بدل الدموع، يوم أنْ مات الحبيب المصطفى ﷺ، فضاقت الدنيا بكل ما فيها على أمِّ حرام، وحزنت على وفاة سيد الخلق حزنًا شديدًا، كاد أنْ يمزق قلبها، وظلت رضي الله عنها على العهد بعد وفاة النبي ﷺ عابدة لله، تبحث عن الشهادة التي بشرها بها الحبيب ﷺ، إلى أن جاءت خلافة ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي عهده تحققت رؤيا الحبيب ﷺ لأمِّ حرام رضي الله عنها .

ففي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه اتسعت الفتوحات الإسلامية على اليابسة اتساعًا كبيرًا، غير أن الخليفة عثمان رأى أن هجمات الروم كانت تنطلق منْ جزيرة قبرص على أساطيل بحرية فقرر غزوها. ويستوقفنا هنا سؤال: كيف سيحارب المسلمون الروم، وهم لم يجربُوا المعارك البحرية من قبل؟ فعقد عثمان رضي الله عنه مجلسًا للشورى في هذا الأمر، وخرج بقناعة لغزو قبرص، وكان ما أراد، إذ شهدت البحرية الإسلامية ميلادها للمرة الأولى عقب ذاك المجلس.

وفي سنة ٢٧ هجرية أذن أمير المؤمنين عُثمان لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنْ يركب البحر ويغزو قبرص، فأبحر إليها من الشام، وركبت أم حرام مع زوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنهما، وأذن الله وكتب النصر للمسلمين، واستسلمت الجزيرة، ووقَّعت على الصلح الذي فرضه المسلمون، فلما رجعوا قُربت بغلة لها لتركُبها فصرعتها، فدُقت عنقها فماتت، ودُفنت في جزيرة قبرص، وقبرها في قبرص يُدعى بقبر المرأة الصالحة، فتحققت أمنية المجُاهدة أم حرام رضي الله عنها بالاستشهاد.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، نحن نرى في هذه المرأة المسلمة مثلًا رائعًا لكل منْ تريد أن تكتب نفسها في عداد المجاهدين في سبيل الله، لتلحق بهؤلاء اللاتي ضرين بسهم وافر في نصرة دين الله عز وجل، وفي إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وجمعن لأنفسهن بين خيري الدنيا والآخرة، وفزن فوزًا عظيمًا بحب النبي ﷺ لهن وتقديره لشأنهن، وحب أصحابه الكرام البررة لهن ولأمثالهن ممن حذون حذوهن هنا وهناك.

وإذا كنا نرى في المجتمع كثيرات من النساء قد تمردن على آداب الإسلام، وتنكرن لتعاليمه السمحة، وألفن حياة اللهو والعبث، فإن تاريخنا العظيم يعرض علينا نماذج كثيرة من السيدات المؤمنات اللواتي عرفن طريق الهدى والتقى، ومهدن أمام أبنائهن طرق المكارم والعلا، ووضعن أمام الرجال والأبطال صورًا تبقى على مر الأجيال في الصبر والاحتمال.

المجاهدة المؤمنة

تبدو ملاح الشخصية العبقرية في سيرة أمِّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما منْ تعدد جوانب التفوق في حياتها، فهي متفوقة في العلم، والفقه، والعبادة، والزهد، والخشية، والخوف، والورع، والجهاد في سبيل الله. فلنتحدث بشيء من التفصيل عن ملامح الجهاد في سيرة أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فقد بلغ حرصهُا رضي الله عنها إلى كل ما يُقربها من الله عز وجل أن استأْذنت من النبي ﷺ لكي يأْذن لها بالجهاد في سبيل الله، من كثرة ما سمعت عنْ فضائل الجهاد، ومنزلة المجاهدين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد، فقال: «جهادكن الحج.»

وعلى الرغم منْ ذلك كانت رضي الله عنها تصر على أنْ تشارك المجاهدين في أرض الشرف والفداء، وأنْ تبذل ما في وسعها لنُصرة هذا الدين العظيم، فكان الجهاد من البركات التي تنضم إلى سيرة أمِّ المؤمنين عائشة، تلك الصفحات ذات الأريج المعطار التي خطتها في ساحات الجهاد مع رسول الله ﷺ.

ومما يدعو إلى الوقوف وقفة إعجاب، أن أمُنا عائشة كانت تشارك في الجهاد كأي امرأة آخر دون تمييز، وذلك ضمن الحدود التي وضعها الشرع من سقاية الماء، وتمريض الجرحى، وإعداد الطعام. ففي أُحُد كانت عائشة رضي الله عنها تشارك في حمل الماء على عاتقها لسقاية المجاهدينُ، وكانت ما تزال صغيرة السن، ولكنها شاركت للمرة الأولى في هذه الغزوة.

وفي غزوة الخندق، كانت لأمِّ المؤمنين شجاعة نادرة، وجرأة مشهورة، حتى إن الفاروق عمر رضي الله عنه أنكر جرأتها لما رآها تقترب من الصفوف الأولى للمجاهدين، وقد تحدثت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عنْ ذلك فقالت: خرجت يوم الخندق اتباعًا للناس فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنة، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منها أطرافُه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز ويقول:

-لبث قليلا يدرك الهيجا جمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

فقمت فاقتحمت حديقة فإذا نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة له - تعني المغفر - فقال عمر: «ما جاء بك! والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز»، فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض فُتحت ساعتئذ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله، فقال: «يا عمر ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى!»

وعندما خرج النبي ﷺ إلى غزوة بني المصطلق، كانت عائشة ممن خرج سهمها من النساء، فُخرجت لتؤدي واجُبها، وفي هذه الغزوة امُتُحنت أمُنا عائشة محنُة منْ أشد وأقسى المحن، ولكن الله سبحانه أدركها بعنايته، وخرجت من المحنة بشهادة ربانية مباركة، تُتلى إلى يوم الدين في بيوت أذن الله أنْ تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وكل مكان وبيت علم على وجه الأرض، ألا هو حديث الأفك.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، في الخبر يظهر لنا مثلٌ من رغبة الصحابيات • الشديدة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وشوقهن البالغ للشهادة، فها هي أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تريد أن تحصل على وسامة الشهادة في سبيل الله، فرغم قول النبي ﷺ لها «جهادكن الحج»، إلا أنها رضي الله عنها كانت تصر على أنْ تشارك المجاهدين في أرض الشرف والجهاد.

إن هذه الأماني السامية، والأهداف العالية تُظهر لنا مدى تفوق الصحابة رضي الله عنهم رجالًا ونساء في الإيمان الراسخ، والعلم بالآخرة علم اليقين الذي يكاد أن يشبه علم المشاهدة.

منْ يُطيقُ ما تُطيقين يا أَم عُمارة

إن مَن عرف الحق هانت عنده التضحيات، فيتعالى على متع الحياة، وعلى زخارفها؛ لأنه ينتظر متعة أُبدية سرمدية في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيقدِّم مراد الله على شهواته ولذائذه، ويقدم مراد الله على كل ما يلذ لعينه، وما يلذ لقلبه، فيسعد في دنياه، ويسعد في أُخراه، ولهذا عرف الصحابة الحق فهانت عليهم كل لذائذ النفس، وقدموا كل ما يملكون في سبيل الله، بنفس راضية، وهذه أمُّ عمارة قدمت كل ما تملك في سبيل الله ذلك الدين.

كانت أمُّ عمارة رضي الله عنها تحضر معظم المعارك مع الرسول القائد (صلوات ربي وسلامه عليه)، تخدمُ المجاهدين، وتُحرض المقاتلين، وتثبت المترددين، وتقوم على الجرحى، وتحمل الماء للعطاش، فإذا جد الجدُ، أو انفرط العقد، وناداها الموقف، شهرت سلاحهًا، وقتُلتُ قتال الأبطال، وثبتت ثبات الجبال.

ففي غزوة أُحُد تألق نجمُ أمِّ عمارة رضي الله عنها، فانتضت سيفها لمَّا دعت الحاجة لذلك، إذ خرجت يومها تسقي الظماء، وكانت الدولة للمسلمين في غرة الحرب، ولكنهُ لما انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ وولوا مدبرين عدا بضعة أبطال، هنالك جاء دور أم عمارة، فانتضت سيفها، وأخذت ترسًا، وراحت تدافع عن النبي ﷺ، فكانت من أظهر القوم أثرًا، وأعظمهم موقفًا، كانت لا تكاد ترى الخطر يدنو من رسول الله ﷺ حتى تسرع لإزالته.

كانت المعركة لا تزال مستمرة، والأسرة المجاهدة - أسرة أمِّ عمارة - تدور حول الرسول ﷺ تقيه بنفسها، تقُول أمُّ عمارة: وفيما كان ابْني يُناضلُ عنْ رسول الله ﷺ ضربهُ أحدُ الْمُشركين ضربة كادت تقْطعُ عضُدهُ، وجعل الدم يتفجرُ منْ جُرحه الْغائر.

فأقْبلْت عليه، وضمدْتُ جُرحه، وقُلْت له: «انْهض يا بني وجالد الْقوم»، فالْتفت إليَّ رسول ﷺ وقال: «ومنْ يُطيقُ ما تُطيقين يا أُم عمارة؟!»

ثُم أقبل الرجُل الذي ضرب ابني، فقال رسول الله ﷺ: هذا ضاربُ ابْنك يا أُم عمارة»، فما أسرع أن اعْترضتُ سبيلهُ، وضربتُهُ على ساقه بالسيف، فسقط صريعًا على الأرض، فأقبلنا عليه نتعاورُهُ بالسيوف، ونطعنُهُ بالرماح حتى أجْهزنا عليه، فالتفت إليَّ النبي الأعظمُ ﷺ مُبتسمًا وقال: «لقد اقْتصصتِ منهُ يا أمَّ عمارة، والحمد لله الذي أظْفرك، وأقر عينك من عدوك، وأراك ثأرك بعينُك.»

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن هذه الأعمال الجهادية الخشنة لا يُستغرب صدورها من الرجال لأنهم قد مرنوا عليها، وألفت عليها أجسامهم، لكن صدور ذلك من النساء أمر غير مألوف عادة، فكوْن أم عمارة تقوم بذلك الجهد الكبير، وتواصل الدفاع عن النبي ﷺ رغم إصابتها بتلك الجراح التي بلغت ثلاثة عشر، يُعدُّ تضحية كبيرة وطاقة عالية غير معتادة.

كانت حكمة الله تعالى في هذه المعركة بتمحيص الصف، وتمييز المؤمن من المنافق، وقوي الإيمان من ضعيفه، وقد أبرزت أُحُد لنا نماذج إيمانية رائعة في قلب المحنة، ما كان لنا أن نشهدها لولا هذه المحنة في الجولة الثانية من هجوم قريش على المسلمين.

المجاهدة الصالحة

كانت أُم سليم الرميصاء رضي الله عنها صحابية جريئة شجاعة، صامدة صابرة، يفيض الإيمان من كل ذرة من كيانها، ليتدفق في أعماقها دعوةً إلى الإسلام، ودفاعًا عنه، ففي سيرة أم سليم رضي الله عنها مواقف مضيئة تستوقف الإنسان عجبًا، وتحركه طربًا، لِما آتاها الله عز وجل من قوة القلب، وثبات الجنان. وكان رسول الله ﷺ يُقدِّر أمَّ سليم، وصحبها في غزواته، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة معها من الأنصار، يسقين الماء، ويداوين الجرحى.

كانت أُم سليم رضي الله عنها تشارك في غزوة حنين قبل أن تلد ولدها عبد الله، فكانت تسقي الجيش، وترعى شؤونه، وثبتت مع زوْجها في من ثبتوا، يدافعون عن النبي ﷺ حين تفرق عنه كثير من المسلمين. كانت أم سليم تسمع النبي ﷺ وهو يصيح بالناس: «أيا أيها الناس هلموا إليَّ، أنا الرسول، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، أنا النبي لا كذب، أنا بن عبد المطلب»، رأت زوْجها أبا طلحة وهو يقاتل باستبسال نادر ويزأر بالأعداء زئير الأسد، حتى قال عنه النبي ﷺ: «لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل.»

وعندما احتدم القتال وفر الناس، تركت أمُّ سليم سقاية الجيش وتمريض الجرحى، وأمسكت الخنجر التي كانت تخبئه في نطاقها، وبدأت تقاتل مع النبي ﷺ، لم تخف، ولم يمنعها حملها من أن تقاتل لنصرة دين الله، وكانت حاملًا آنذاك بابنها عبد الله، فقال أبو طلحة: «يا رسول الله، هذه أمُّ سليم معها خنجرٌ»، فالتفت النبي ﷺ ورآها في ميدان المعركة قال:» أم سليم!» قالت: «نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله.»

فقال لها: «ما هذا الخنْجر؟» قالت: «يا رسول الله، إن دنا مني مشركٌ بقرت بطنه»، وفعلًا استخدمت أمُّ سليم خنجرها حين احتاج الأمر إلى مشاركتها في القتال. وقد انتصر المسلمون في غزوة حنين، وأخذ النبي ﷺ حصيات من الأرض ورماها في وجوه الكفار، وهو يقول: «انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة»، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فانهزموا.

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، في هذا الموقف لأم سليم بنت ملحان رضي الله عنها مفخرة من مفاخر المرأة المسلمة في صدر الإسلام، فقد كانت في المعركة مع زوجها أبي طلحة رضي الله عنهما وهي حازمة وسطها ببرد لها، وهي حامل، وهكذا كانت المرأة المسلمة، وهكذا ينبغي أن تكون جريئة تسهم في معارك الدفاع بحضورها بنفسها، حتى إذا احتيج إليها أو دنا منها الأعداء ردَّت عدوانه بنفسها كيلا تؤخذ أسيرة مغلوبة.

تُرى، هل تعيد فتياتنا المسلمات تاريخ خديجة، وعائشة، وأسماء، وأم سليم، والخنساء، ونسيبة، وصفية، وأمثالهن؟ هل يعدن إلينا اليوم تاريخ هؤلاء المؤمنات الخالدات، والنجوم الساطعات؟ هل يصعب أن يوجد فيهن اليوم عشرات من خديجة وعائشة وفاطمة؟ كلا، ولكن التوجيه الصحيح، والإيمان الواعي المشرق، كفيل بذلك وأكثر.

مجاهدة بثياب العرس

العقيدة المكينة، معين لا ينضب للنشاط الموصول، والحماسة المذخورة، واحتمال الصعاب، ومواجهة الأخطار، بل هي سائق حثيث يدفع إلى لقاء الموت دون تهيب، إن لم يكن لقاء محب مشتاق. تلك هي طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن في القلوب، إنه يضفى على صاحبه قوة تنطع في سلوكه كله، فإذا تكلم كان واثقًا من قوله، وإذا اشتغل كان راسخًا في عمله. وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم، وهكذا كانت الصحابية الجليلة أمُّ حكيم بنت الحارث رضي الله عنهما، فتعالوا بنا لنرى قوة وبطولة أمِّ حكيم في معركة مرج الصفر.

تمضي أمُّ حكيم بنْتُ الحارث رضي الله عنهما مع ركب المجاهدين بجَلد وصبر، وقد احتسبت أباها الشهيد الحارث بن هشام، والزوج الشهيد عند الله عكرمة بن أبي جهل، فاعتدت عليه أربعة أشهر وعشرًا، ويتقدم لخطبتها بعض رجال قريش وفرسانها، منهم الصحابي الجليل والفارس الشجاع خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، فترضاه زوجًا يسترها، ويشد أزرها، وتشد أزره في معارك الجهاد في سبيل الله.

ويطلب خالد من أم حكيم أنْ يُعرس بها في مرج الصفر جنوبي دمشق، فقالت، وقد استحوذ حبُ الجهاد على عقلها: «لو تأخرت حتى يهزم الله هذه الجموع من الروم»، فيجيبها خالد: «إنَّ نفسي تحدثني أني أُصاب في جموعهم هذا اليوم»، فقالت: «فافعل ما ترى يا خالد.»

وأعرس خالد بأمِّ حكيم عند القنطرة التي بالصفر، وبها سميت قنطرة أم حكيم، فلما أصبح أوْلم عليها فدعا أصحابه على الطعام، وما كاد ضيوفه يفرغون من طعامهم حتى نزلت بهم الروم منْ كُل جانب، واحتدم قتال مرير، ولم يلبث خالد بن سعيد رضي الله عنه أنْ سقط شهيدًا وسط هذه الجموع من الروم.

تجلدت أمُّ حكيم، وقد فُجعت بزوجها خالد، بعد أنْ فجعت من قبل بزوجها عكرمة وأبيها الحارث بن هشام يوم اليرموك، فشدَّت أمُّ حكيم رضي الله عنها ثياب عرسها، وكان عليها أثر خلوق - أي طيب - بقي عليها من أثر عرسها، فاقتتلوا أشد القتال عند النهر، وفي ذلك اليوم أظهرت أمُّ حكيم البسالة والشجاعة ما عجز عنهُ فرسانُ الروم، حيث قتلَت منهم يومئذ سبعة من صناديد الروم بعمود الفسطاط الذي أعرس بها خالد فيه.

عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، هكذا المرأة المسلمة تعرف ربها وتدرك رسالتها، فهي قرة عين لزوجها وراعية مسؤولة في بيت الزوجية، ومجاهدة قوية خارج بيتها تعرف واجبها في كُل ميدان تحسنه، حسبةً لربها، ودفاعًا عن دينها.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، يجب أن يكون المسلم شاعرًا بقوة اليقين في شخصه، وروعة الإيمان في نفسه، فإن لم يستطع فرض ذلك على ما حوله بقي كالطود الأشم، لم تجرفه الغمار السائدة، ولم تطْوه اللجج الصاخبة، وماذا عسى يفعل الناس لامرئٍ اعتز بإيمانه، واستشعر القوة لصلته بربه واستقامته في دينه؟ إنهم لو تألبوا عليه جميعًا ما نالوا منه قليلًا ولا كثيرًا.

النجيبة الرشيدة

السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها كانت واحدة زمانها، وعظيمة دهرها، لما تهيأ لها من الكثير من مشاهد النبوة والوحي، فقد صحبت أباها من نعومة أظفارها إلى أن فارقها النبي ﷺ يوم التحق بالرفيق الأعلى على مدى ربع قرن، لقد شهدت كل المعاناة التي عاناها النبي ﷺ، وكانت إلى جانبه، كانت معه، كانت ترى بعينيها تطور البعثة من حال إلى حال.

كانت فاطمة الزهراء رضي الله عنها تتمنى أن تفدي أباها رسول الله ﷺ بنفسها، بل والدنيا كلها، وتدبروا معي هذا المشهد المهيب: فها هو عقبة بن أبي معيط يتعرض مرة أخرى للحبيب ﷺ بالإيذاء، في مشهد يكاد فؤاد الصحابي الجليل (عبد الله بن مسعود) رضي الله عنه يتفطر ألمًا وحزنًا، وهو يري بعينيه ما يحدث أمامه في باحة الحرم المكي، زاد من ألمه تلك القهقهات التي انطلقت من المجرم أبي جهل، ورفاقه من سفهاء مكة، فلقد رأى المشركون رسول الله ﷺ وهو يصلي عند بيت الله الحرام، وذلك بعد موت عمه أبي طالب الذي كان يحميه من بطش الكفار.

فنظر عدو الله أبو جهل إلى رفاقه وسألهم: «أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذ، فيضعه على كتفي محمد إذا سجد؟» - وسلا الجزور هو أمعاء الشاه بما تحمله من أوساخ - فانبعث المجرم عقبة بن أبي معيط فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه.

عندها ارتفعت ضحكات أولئك المجرمين على النبي ﷺ، وهو ساجدٌ لربه لا يحرك ساكنًا، فأصبح عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حيرة من أمره، فالرسول ﷺ أمر المسلمين بالصبر على أذى المشركين، ونهاهم عن القتال في تلك المرحلة المبكرة من الدعوة، وفي نفس الوقت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من المستضعفين في مكة الذين ليس لهم منعة، فلو قام عبد الله إلى رسول الله ليحميه لنشب قتال بينه وبينهم بلا شك، ولدخل المسلمون في محنة جديدة هم في غنى عنها في تلك المرحلة.

هنا رأى ابن مسعود طفلة صغيرة دون العاشرة من عمرها، تجري كالبرق من بعيد بين شوارع مكة متجهة إلى رسول الله ﷺ، فلما اقتربت منه أزاحت الأوساخ عنه بيدها الصغيرتين، ثم اتجهت نحو أبي جهل ومن معه من السفهاء فشتمتهم بصوتها الطفولي، فصعق أبو جهل ومن معه من شجاعة هذه الطفلة الجريئة، وتساءل المشركون عن هويتها، فجاءهم الجواب: إنها فاطمة بنت محمد.

عبرة

في هذا الموقف عدة من العبر والدروس يجدر بدعاة الحق وجنوده أن يقفوا عندها طويلا، إن انهزام الدعوة في معركة قد يكون ناشئًا من وهن في عقيدة بعض أبنائها، وعدم إخلاصهم للحق، وعدم استعدادهم للتفاني في سبيله.

إن المرأة المسلمة اليوم، بين صالحة مستقيمة تكتفي من صلاحها بإقامة الصلوات، وقراءة القرآن، والبعد عن المحرمات، وبين منحرفة في تيار الحضارة الغربية قد استبدلت بآداب الإسلام آدابها، وبأخلاق المرأة المسلمة أخلاق المرأة الغربية التي جرَّت عليها، وعلى أسرتها، وشعبها، البلاء والشقاء. وإذا كان بعض الناس قد أخذوا على عاتقهم تجريد المرأة المسلمة من أخلاقها وخصائصها التي ربت بها أكرم أجيال التاريخ سموًّا ونبلًا وخلودًا في المآثر والمكرمات،

فإن الإسلام وتاريخه، بخاصة السيرة النبوية، يهيب بها اليوم أن تتقدم من جديد لتخدم الإسلام والمجتمع الإسلامي في حدود وظيفتها الطبيعية، ورسالتها التربوية، وخصائصها الكريمة، من نبل، وعفة، وحشمة، وحياء.

نالت الرضوان

كانت الهجرة، وهي حادث هين في ذاته. رجلان خرجا منْ مكة إلى يثرب، يخرج مثلهما كثير كل يوم من كل بلد، من يوم خلق الله الدنيا حتى يأذن في خرابها. ولكنه عظيم في نتائجه، لأنه لم يكُنْ سفرًا من بلد إلى بلد، بل انتقال الإسلام من طور الدعوة إلى طور الدولة، من طور الإسرار والضعف، إلى طور الإعلان والقوة. وما كان لمحمد ﷺ موكب تخفق فيه الرايات وتقرع أمامه الطبول، ما كان في موكبه إلا هو وصاحبهُ والدليل، كان موكب تهرب فيه البشرية من ماضٍ أسود، إلى مستقبل منير بالعلم والحضارة والإيمان.

موكب كان فيه رجلان وامرأة نابت عن النساء حين مثلتهن في هذا الموقف الأعظم في تاريخ البشر، امرأة لم تقطع الطريق كله معهما، ولكن أمدتهما بالطعام والزاد، وكذلك تصنع المرأة، إذا لم تصل مع الرجل إلى كل ميدان وصل إليه، فإن لها الفضل في إمداده وعونه، فلولا المرأة ما استطاع الرجال خوض هذه الغمرات.

كانت أحداث الهجرة النبوية، بدايةُ أسماء بنْتُ أبي بكر رضي الله عنهما، بدايةً خيرة طيبة وضيئة، ولعل شهرتها قد طارت في الأفق من ذلك اليوم العظيم، وكانت ما تزال فتاة حديثة السن. لقد أعجل النبي ﷺ وأبو بكر الصديق عن ابتغاء الزاد، وشغلهما الغرض الأسمى عن الغرض الأدنى، فسارا خفيفين إلى غار جبل ثور إخفاءً لأمرهما، فكانت أسماء تمسيهما كل ليلة بالزاد والماء، وبما عسى أن تكون قد رأته أو سمعته من أخبار قريش.

ثلاثة أميال تقريبًا كانت تقطعها هذه الصبية الجريئة في جوف الليل ووحشة الطريق، ماشية متخفية حذرة مترقبة، حتى تصعد إلى هامة الجبل بين الصخور، وهي حامل بابنها عبد الله، ثم تنحدر في جوفه فتوافي رسول الله ووالدها بالزاد والأخبار.

نعم، لقد اقتحمت هذه الفاضلة الباسلة ذلك الطريق المروع الطويل ثلاث ليالٍ سويًّا، وفي الليلة الثالثة، وهي التي أزمع فيها المهاجران على مفارقة الغار إلى عرين الأنصار في المدينة، وافتهما بزاد السفر، فلما أذن رسول الله ﷺ بالرحيل نهضت لتعلق سفرة الزاد، فإذا ليس لها رباط فلم تجد ما تعصمها به إلا نطاقها، فخرجت فشقته نصفين فعصمت السفرة بنصفه، ووكأت السقاء بباقيه، ومنذ ذلك اليوم سميت بذات الناطقين، وأبدلها الله عز وجل بنطاقها ذلك نطاقين في الجنة لقوله ﷺ: «قد أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة.»

عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن عمل أسماء هذا يعجز عنه الرجل الشجاع لِما فيه من مخاطر وظلمة ووحشة، ولِما يحتاجه من جرأة، وثبات قلب، وقوة أعصاب، وتحكم بالمشاعر. ولم تتوقف شجاعة أسماء عند هذا المقدار فحسب، للإنسان أنْ يتصور مدى صبرها وتحملها للمشقة إذ كانت حاملًا، كل هذا في هزيع الليل، وهي تحمل طعامًا، وتسلك الطريق الطويلة الوعرة، وتصعد جبلًا لتصل إلى الغار، كانت تجتاز كُل هذه المخاطر، وعيون المشركين تتابعها، ولكن عناية الله سبحانه هي التي كانتْ تحفظها.

(تم الكتاب بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

إهداء

سر عظمة هذا الجيل

قبل البداية

مقدمة

روائع من تضحيات الصحابيات

أول شهيدة في الإسلام
من أجل هذا المواقف أعددته
رجولة بددت رجولة الرجال!
مثلٌ للمؤمنات المجاهدات
المؤمنة الصابرة
تحتسب أولادها الأربعة
ففروا إلى الله
أم الشهداء السبعة
صبرٌ واحتساب
وتوالت الأحزان
الممتحنة التي صدقت في هجرتها لله
الصالحة الصابرة
ففروا إلى الله

روائع من حب الصحابيات

التماس البركة
الزوجة الصالحة
تلك هي الكرامة
الداعية العظيمة
كل مصيبة بعدك جلل

إنها ابنة الصديق
هكذا يكون الوفاء
أصحاب السفينة
الوفية لزوجها
ما يبكيك يا أم أيمن

روائع من كرم وبذل الصحابيات

أم المساكين
العابدة المتصدقة
صاحبة الإيثار

روائع من إيمان الصحابيات

هكذا يكون الإيمان
موقف لا ينسي
أجيبوا طلب رسول الله
أكرم مهرًا
الإيمان وأثره في القلوب
لقاء تحت الشجرة
جراح وأفراح
امرأة من أهل الجنة
مهرها آيات من القرآن
سقاية من السماء
صلابة أم سليم
موعد مع السعادة
حبًا يفوق حدّ الخيال
الطاهرة النجيبة

روائع من صبر الصحابيات

احتسب ولدك عند الله

المجاهدة المحدثة
قتلاهم ترافقوا بالجنة
المخلصة الوفية
نقية السريرة
الشوق إلى البيت العتيق
صفات كريمة
في رحاب الإيمان
فراق مؤلم
إنها جنان يا أم حارثة
سيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا
وقوف في وجه العاصفة
الشجاعة النادرة
بطولة نادرة
الوفية الصابرة

روائع من إيثار الصحابيات

بشر صاحبك غلام
المؤمنة العاقلة
الوفية الصادقة
إيثار يفوق الخيال

روائع من ورع الصحابيات

عقيلة بني هاشم
الشهيدة العابدة
حقيقة النعيم

روائع من وفاء الصحابيات

المؤمنة الملهمة
العاقلة الوفية

الطاهرة النجيبة
أمنا الحبيبة
الوفية الكريمُة
وفاءْ لا مثيل له
هذه بقيُة أهُل بيتي

روائع من رحمة الصحابيات

النسمةُ المباركة
في رحاب الإيمان
تلك هي الكرامة

روائع من خوف الصحابيات

الحروف والحتوف
وحان وقت الرحيل
الصائمة العابدة

روائع من فقه الصحابيات

الصابرة المحتسبة
خطيبة النساء

روائع من بطولات الصحابيات

امرأة بألف رجل
العجوز المجاهدة
شهيدة البحر
المجاهدة المؤمنة
منْ يُطيقُ ما تُطيقين يا أُم عُمارة
المجاهدة الصالحة
مجاهدة بثياب العرس
النجيبة الرشيدة
نالت الرضوان